

تكوين الصَّهْبُونِيَّة

خالد القشطيني

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

جميع الحقوق محفوظة

**المؤسسة العربية
للدراسات والنشر**

تأليف: صلاح الكارلن. ساقية الخضرير. ت. ١٩٧٩.
لترقياً: موكيال بيرون. ص. ١٩٨٦. بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٦ م

مكتبة
المهتدين



تكوين الصَّهْبُونِيَّة



مقدمة

إذا كان لكل كتاب قصة، فقصة هذا الكتاب ترجع إلى الستينات عندما بدأت بدراسة الحركة الصهيونية من زواياها الفكرية، وفيما ترتب عليها من نتائج بالنسبة للشعب الفلسطيني والأمة العربية. وخلال هذه الدراسة تبينت لي جوانب طالما أغفل الباحثون في إستقصائها رغم إشاراتهم الكثيرة إليها. وكان أول جانب إستدعى طول النظر والتأمل، الجانب النفسي الذي تلونت به هذه الحركة. إن لكل الحركات السياسية جوانبها النفسية، وكثيراً ما عمد علماء الاجتماع في الحقبة الأخيرة إلى مراعاتها في دراساتهم. ومن الواضح أن هذه العوامل النفسية هي المسؤولة في أكثر الأحيان عن المتغيرات والتفاوتات في النتائج رغم إستعمال نفس الوصفة وتطبيق نفس القاعدة. هذا هو ما يجعل الهند أو مصر تتفاعل مع التطبيقات الديمقراطية بشكل يختلف كلياً عما يحصل في باكستان أو ليبيا مثلاً، رغم تجاور البلدين وتشابه ظروفهما. وقد أذهلني هذا البعد النفسي في تأثيره بصورة خاصة على تاريخ الفكرة الصهيونية منذ تكونها وعبر تطورها على مر القرون، ودفعني إلى متابعة الموضوع وإطالة النظر فيه.

وإذا أقول بأن قصة هذا الكتاب ترجع إلى الستينات وتستغرق نحو ربع قرن من الدرس والتفكير والتقرير، فلا أقصد أنني قضيت كل تلك السنين

أواصل ليايلها بنهارها في كتابة هذه الدراسة. لقد كتبت ونشرت الكثير خلال الفترة، وقمت بالعديد من المهمات والأعمال. وقام غيري من الباحثين والمفكرين بمهمات وإنجازات أكثر وأكبر. وكان من شأنها أن طورت الفكر الإنساني ووسعت معارفنا ومداركنا فتبددت آراء وإعتقادات وإستجذت مكتشفات وإجتهدات. وكان لا بد لهذه المسيرة الزمنية أن تترك أثرها وتنفض غبارها على الصفحات التي سبق وأن سطرتها، الكاتب الذي لا يستجيب لأحداث الفكر وتطورات العالم عبر ربع قرن ليس بجدير براء العلم. بيد أن المحصلة النهائية والخطوط الأساسية لإستنتاجاتي ومطالعاتي عبر كل تلك السنين بقيت صامدة. وكان في صمودها هذا مبرر كاف لسكب هذه الدراسة في قلبها النهائي وطرحها كحدث آخر من ألوف الأحداث التي تلقي أضواءها على عالمنا السياسي لأونة من الزمن، طالت أو قصرت.

هذا بحث لا يرمي إلى سرد تاريخ الحركة الصهيونية، فهناك كثير من المصادر في هذا الميدان. ولا إلى مناوراتها وتحركاتها وأخطارها. هناك أيضاً الكثير من الكتب في هذا الخصوص. إنها ترمي إلى تحليل ظاهرة تاريخية طالما حيرتنا وحيرت البشر عموماً في فهم كنهها وسرها. إنني لا أتوقع من كل قارئ، بل ولا من أي قارئ أن يوافقي على ما أقول جملة وتفصيلاً. هذا بحث ينطوي على تأملات شخصية وإجتهدات غير مطروقة. إننا لا نتفق على وقائع التاريخ بذاتها، ناهيك عن الاتفاق على تحليلها.

وعندما يكون القارئ قد وصل نهاية الكتاب، سيكون رجائي عندئذ أن الساعات التي قضاها معي قد فتحت أمامه زوايا جديدة للنظر إلى الظاهرة، بل وربما أعطته أيضاً منظراً جديداً لرصد الظواهر التاريخية عموماً. إن من أسوء المواقف الفكرية وأخطرها التثبت بمقياس واحد والترصد لعامل واحد في تفسير وفهم حياة الفرد ومعاناته، وحياة الشعوب وتطورها. إن الركود إلى القول بأن الصهيونية ربيبة الاستعمار والاكتفاء

بإرجاع كل شيء فيها إلى الاستعمار تبسيط ساذج للقضية ومؤذ لأصحابه .

النزوح الصهيوني لليهود نحو فلسطين عبر قرون طويلة، وتعلقهم العاطفي بها ظاهرة إستثنائية في حياة المجتمع البشري . وأثارت هذه الظاهرة تساؤل الكثيرين وإستغرابهم من شأنها . إنها بدون شك ظاهرة لا يمكن أن تفسر ضمن النطاق الاقتصادي أو الاجتماعي . المنطق الاقتصادي والعقلاني يقتضي من اليهود أن يذوبوا في مجتمعاتهم الشتاتية ويتخلصوا من ويلات الاضطهاد والتقتيل التي تعرضوا إليها عبر القرون . ما الذي جعلهم يتحملون كل ذلك من أجل هويتهم المنفصلة وإعتقاداتهم الساحقة في القدم؟ أي تفسير يمكننا أن نعطيه لمثل هذا الموقف اللاعقلاني من أناس إشتهروا بغزارة العلم والاطلاع وحدة الذكاء والفتنة؟ ما الذي جعلهم يتركون هذه الأرض الواسعة والعامرة بخيراتها وهذه العواصم الأوروبية والأمريكية الآمنة والمترفة إقتصادياً وحضارياً ليتشبثوا بهذه البقعة الصغيرة الفقيرة والمحاطة بشعوب معادية، ويخوضوا نزاعاً دمواً معها من أجل بقاء قلق معرض بإستمرار إلى الهجمات وربما إلى مأس ومجازر عاجلاً أم آجلاً؟ هذه أسئلة لا بد لأي مراقب لهذا الموضوع من أن ينتهي إليها ويطلب النظر في إستيعابها والإجابة عليها . وهذه هي الأسئلة التي ظلت تلح على بصيرتي ومخيلتي وإنتهت في آخر المطاف إلى تلمس الإجابة عليها في إطار الأبعاد النفسية . إنها أسئلة نفسية، ولا مفر من الإجابة عليها في ضوء التنظير النفسي المعاصر .

ربما سيجد البعض في تحليلات وتعليلات الفصل الأول من هذا البحث فيما يتعلق بإرجاع النزوح الصهيوني وكثيراً من التشنجات العاطفية اليهودية إلى عقدة الاثم، ما ينطوي على ما يسمى بمعاداة السامية، أو على الأقل النظر إلى اليهود على أساس عنصري أو قومي أو قبلي . هذا أبعد ما يكون من ذهني ومن تفكيري ونظرتي إلى الحياة والسياسة . لقد كنت وما زلت من أول الداعين إلى فصل اليهودية عن الصهيونية وتحاشي النظر إلى كل يهودي

على أنه صهيوني - مما وقع فيه كثير من الكتاب والصحفيين العرب. لا مبرر هناك لمطابقة الأفراد بالمجموعة أو تحميل كل طرف مسؤولية الطرف الآخر. لا مبرر هناك للنظر إلى العرب والعروبة عبر شخصية الأثرياء العرب الذين يفسدون إلى لندن ويقضون لياليهم في المواخير ونوادي القمار. الملايين من الجماهير العربية لا تأتي إلى لندن ولا تقضي لياليها في المواخير ولا تملك ما تنفقه بسخاء في نوادي القمار. وعلى موازنة هذا المثال يمكن القول ان من الخطأ النظر إلى كل يهودي من زاوية الحركة الصهيونية وما قامت به من أعمال في فلسطين.

هذا خطأ ينبغي تحاشيه مثلما ينبغي تحاشي الخطأ الآخر الذي قد يخطر إلى القاريء في النظر إلى الموضوع بمعيار الأقلية والأكثرية. لكل مجموعة بشرية كيانه الروحي الخاص بها ويتجسم في معتقداتها وتقاليدها وأساطيرها وفولكلورها وتفكيرها. يرتبط هذا الكيان الروحي بالمجموعة ككل لا بأفرادها، الأقلية منهم أو الأكثرية. ولعلنا نجد خير مثال لهذه المقولة في الدول النفطية الغنية. فرغم دخلها القومي العالي سواء من حيث المجموع الإجمالي أو من حيث مدخول الأفراد، فإن ذهنية معظم هذه الدول ما زالت قائمة على مفاهيم المجاعة والفقر والشحاذة. وطريقتها في التعامل على النطاق الدولي تقوم عموماً على تقديم الولائم المحملة باللحم والرز وإغداق العطايا والهدايا للأفراد والحكومات. ولن يحزنني شيء في أمر هذا الكتاب كالوقوع في الخطأ السير في مطابقة النفسية الجماعية على سلوك ومواقف كل فرد من أفراد المجموعة.

لقد كتبت هذا البحث في اللغة الانكليزية أولاً آملاً في نشره في لندن. وبعد محاولة فاشلة في الحصول على ناشر له في بريطانيا، إنصرفت في تفكيري إلى ترجمته إلى اللغة العربية وطبعه في الوطن العربي. ورغم كل الحرص على إعطاء الترجمة العربية شخصيتها العربية الأصيلة، فلن أستبعد من القاريء أن يجد فيها ما يذكره بأن ما يقرأه قد جاء من لغة أخرى.

اللغة كيان حي له هويته القومية والشخصية، وكما يصعب تحويل الفيل إلى جمل قد يصعب تحويل الكتاب الانكليزي إلى كتاب عربي. وفي ضوء هذا التشبيه المغرط في مبالغته، لا أملك غير الاعتذار إلى القاريء. وبحق هذا الاعتذار بصورة خاصة بالنسبة للنصوص العربية والتي قرأتها مترجمة إلى الانكليزية، وفرض علي البحث إعادة ترجمتها إلى العربية مع ما ينطوي عليه هذا العمل من خروج حتمي عن الأصل، وفي مثل هذه الأحوال تباديت الاستشهاد نصاً.

«تكوين الصهيونية» بحث نظري يتناول بالدرس الجذور والأصول والمعادن التي تضافرت في تكوين التركية. إنه يساعدنا في فهم الخصم الذي قدر علينا منازلته. ولكنه مع ذلك يتعدى مجرد التنظير الفكري، ويخرج إلى نتائج عملية في غاية الأهمية. ولعل أهم نتيجة نخرج إليها ونحن في بطون الكتاب تؤدي بنا إلى إستبعاد احتمالات التعايش السلمي بين الكيان العربي والكيان الصهيوني، وترجيح فكرة إنقراض الكيان الصهيوني كفصل أخير لتراجيديا النزاع الطويل. وربما سيجد بعض الأحرار واليساريين والإنسانيين غضاظة متشائمة في مثل هذا التحليل، ولكن مسؤولية الباحث تجميع الوقائع وتسجيل مطالعته عنها بصدق وشجاعة. وأرجو ألا أكون قد أخفقت في هذه المسؤولية. وأنتهز الفرصة لأسجل في معرض ذلك شكري وتقديري العميم لشجاعة السادة الناشرين في تناولهم مثل هذا الكتاب وتحمل مسؤولية. من لم يستطع أن يجاهد بسيفه بقلمه ومن لم يستطع بقلمه فبمطبعته، وبمثل ذلك تحيا الأمم وينهض الفكر.

خالد القشطيني

لندن

الفصل الأول

جذور الصدمة النفسية

بذور المأساة

لا بد لأي بحث يتناول بالدرس الحركة الصهيونية والمسألة اليهودية التي تشكل جزء منها أن يواجه باستمرار كلمات مثل «فريدة» و«مختلفة» و«خاصة» و«إستثنائية» و«وحيدة» و«شاذة» و«غير إعتيادية» ونحو ذلك من الكلمات في وصف الشخصية اليهودية والوجود اليهودي والكيان الصهيوني عموماً. وقد كتب أبا أيان في معرض رفضه لتحويل إسرائيل إلى كيان إعتيادي من كيانات الشرق الأوسط فقال: «لن تصبح إسرائيل مجرد أي شيء آخر. إنها ستبقى بذاتها الخاصة وبخصوصيتها المطلقة»^(١). وإستخدمت مثل هذه الكلمات أو العبارات بصورة مدح أو قدح للدفاع عن الجانب اليهودي من ناحية ولدعم الموقف المعادي للصهيونية من الناحية الأخرى حسب آراء المتكلم. وعمد النازيون مثلاً إلى إستخدامها للتأكيد على الفروق بين اليهود وبقية المجتمع وما يترتب على ذلك من المعاملة المختلفة والتمييز العرقي وطرد اليهود أو القضاء عليهم في الأخير. وإلتجأ دعاة القومية اليهودية إلى نفس العناد في تأييد حجتهم ومطالبتهم التي لم تسبق لها سابقة

Eban, A., My People, New York, 1960, p.499.

(١)

في التاريخ في دعواهم لإسترجاع أرض تركوها - كما يقولون - قبل أكثر من ألفي سنة .

وقد أدى الوعد بإقامة وطن قومي لليهود والسعي لتحقيق هذا الوعد والقيام بشتى التصرفات والعمليات التي نفذتها إسرائيل إلى خرق كثير من أسس العرف والقانون الدولي ومبادئ الأخلاق الدولية . وفي كل حالة تقريباً إلتجأ الناطقون الصهاينة إلى حجة «الحالة الخاصة» و «الانفرادية الاستثنائية» التي تتميز بها القضية الصهيونية والكيان الاسرائيلي . وهكذا تكلم قادتهم عندما بدأ الرئيس ولسن ، رئيس الولايات المتحدة بعد الحرب العظمى إلى التردد بشأن تصريح بلفور في ضوء مبدأ حق تقرير المصير الذي تبناه لكافة الشعوب . لقد أجابوه بالإشارة إلى «الحالة الخاصة» التي إنفردت بها المسألة اليهودية وإستدعت التغاضي عن حق تقرير المصير بالنسبة للسكان الفلسطينيين^(١) وإلتجؤوا إلى نفس الحجة بالنسبة لإعطاء الأقلية اليهودية في فلسطين في عهد الانتداب حقوقاً تجاوزت حقوق الأكثرية العربية وإخترقت قاعدة الصوت الواحد للمواطن الواحد الذي سارت عليها الديمقراطيات . وجاءت الخصوصية الشاذة هنا في ربط يهود فلسطين والكيان الصهيوني ربطاً إستثنائياً مع مواطنين أجانب في دول أخرى إلتموا إلى اليهودية . ومن آخر هذه الاستثنائيات السماح للمواطنين اليهود في الولايات المتحدة وأفريقيا الجنوبية الخدمة في الجيش الاسرائيلي دون المساس بجنسياتهم . وطرح نفس الفكرة، فكرة الاستثناء عن المعتاد، في ميدان الفكر الاشتراكي بالنسبة للصهاينة . لقد تحلى اليساريون الصهاينة عن قاعدة «يا عمال العالم اتحدوا» عندما تعلق الأمر بالعمال العرب في فلسطين فنادوا بمقاطعتهم وبرروا نداءهم مرة أخرى بالحالة الخاصة للوطن القومي اليهودي .

أما بالنسبة لمن لم يكن مؤيداً للفكرة الصهيونية ولا لمعاداة السامية ولم

Adler, Selig, The Palestine Question in the Wilson Era, Jewish Social Studies, October, 1948.

يؤمن بإستثنائية أو تمايز أي ملة فقد وجد نفسه يتحدث عن تحويل الوجود اليهودي إلى وجود طبيعي وإعتيادي . وفي كل من هذه الحالات المشار إليها آنفاً نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع شيء شاذ وغير إعتيادي . وكلما أمعنا في قراءة النصوص الصهيونية أو اللاسامية كلما تعاظم هذا الشعور بالاستثناء والشذوذ عن المعتاد . وهذه حقيقة من الحقائق القليلة التي يتفق عليها الجميع في هذا الميدان .

من المؤكد أن كل مشكلة سياسية تتميز بشيء من التفرد والخصوصية وإلا لما أصبحت مشكلة سياسية ولكن بينما يمكن حل معظم هذه المشاكل بمرور الزمن ، أو على الأقل يمكن تحديد معالمها والاتفاق على طبيعتها ، فإننا نلاحظ صعوبة كل هذا بالنسبة للمسألة اليهودية التي تظل تنتقل من قرن إلى قرن تتحدى أي حل أو تعريف أو تحديد حتى خيل لأكثر الناس بأنها مشكلة أبدية ولا سبيل إلى إنهايتها ، وأمام هذا الانغلاق إضطر شخص مثل أدولف هتلر إلى محاولة حسمها بما سماه «الحل النهائي» في إبادة أبناء هذه الملة عن وجه الأرض . ومما لا يمكن الاختلاف بشأنه أن المسألة اليهودية أعطتنا في هذا العصر أقدم مشكلة سياسية وإجتماعية عرفها الإنسان .

وقد ذهب المفكرون الماركسيون إلى ربط هذه المشكلة بقيام النظام الرأسمالي بينما إنصرف رجال الكنيسة المسيحية إلى إرجاع كل شيء في هذا المأزق إلى رفض اليهود الاعتراف بالمسيح وقبول المسيحية . ومع ذلك فمن الملاحظ بجلاء وبساطة أن مشكلة اليهود قد ظهرت في أزمان وأماكن لا علاقة لها بقيام النظام الرأسمالي أو إعتناق المسيحية . ومن المعروف مثلاً أن اليهود عانوا نفس المشاكل المتعلقة بالمسألة اليهودية في بلاد نائية مثل الصين وقبل قيام النظام الرأسمالي بقرون . وأصبح من الواضح أن الدراسة الاعتيادية للأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أحاطت بالوجود اليهودي وتحليل الظروف الخاصة بحياتهم المعاصرة لن تؤدي بنا إلى كثير من النتائج ولن تجيب تمام الإجابة على التساؤلات التي تحير الباحث . وكل ما

يمكن أن نتوصل إليه في مثل هذه المحاولة هو أننا نعالج مسألة «غير إعتيادية» ونعالج مجموعة بشرية يمكن أن نسميها بمجموعة مشكلة Problem Group. ولدى مطالعنا للأدبيات التي نشرها القوميون اليهود، لا يسعنا غير أن نلاحظ الاستعمالات المتكررة للرمزيات والعبارات السايكولوجية ونتطلع بين الفينة والفينة عبر نافذة ضيقة إلى عالم تسوده روح معذبة وقلق نفسي عميق. ونلاحظ أيضاً أن المعادين للسامية لا ينفكون من التحدث عن اليهود كما لو كانوا مخلوقات غير طبيعية تمتلك قوى شيطانية لا قبل لسواد الناس على فهمها.

وخلال القرن التاسع عشر، طرح الليبراليون والاشتراكيون فكرة الاندماج كحل للمسألة اليهودية، بيد أن اليهود الذين تمسكوا بالتراث التقليدي لليهودية والذين واجهوا زخم التمييز اللاسامي ضدهم رفضوا الالتفات إلى مثل هذا الحل وذعروا من طرحه. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أصبح شعار الاندماج والتلاحم الاجتماعي الشعار الذي أخذ به الاشتراكيون والإنسانيون في حل مشاكل التمييز العرقي واللوني والديني المرتبطة بالأقليات ورفضوا بوجه عام الأفكار الاقليمية التي تدعو إلى الانفصال أو التهجير. بيد أن القوميين اليهود ساروا ضد هذا الاتجاه وجعلوا مقاومته من مهماتهم الأولى. وفي كل مرة، راحوا يرددون أن مسألة اليهود مسألة خاصة لا تنطبق عليها الحلول الجارية. وكان ما قالوه في هذا المضمار يعني أن اليهود يشكلون شعباً غير إعتيادي ويعاني من مشكلة غير إعتيادية ذات أبعاد وتعبيرات ونوازع غير إعتيادية. ولا بد لنا لفهم هذا الوضع من الرجوع إلى خيوط البداية الأولى والأعوام الأولية لتكون القومية اليهودية القديمة.

يعاني التاريخ العبري القديم من كثير من الغموض والغيبات ويزداد هذا الغموض باعتماد العبريين على الشفوية وعدم تثبيت تاريخهم بالوثائق كما فعلت بقية أقوام الشرق الأوسط القديمة، ودون اليهود تاريخهم الأولي بعد

قرون من وقوع حوادثه وأعطوا ما دونوه صبغة روحية وغيبية ودينية زادت من تضبيب الصورة. ومن المعروف أن كتاب موسى الذي يتكون من الأسفار الأولى الخمسة للعهد القديم قد دون بعد قرون من وفاة موسى وأعيد تنقيحه مرة تلو المرة حتى وصلنا في حالته الراهنة. ويربط العهد القديم ببقية الوقائع الثابتة عن تاريخ الشرق الأوسط، يمكن للباحث أن يقرر أن العبريين كانوا يشكلون عدداً من القبائل التي خرجت من منطقة الجزيرة العربية بمعناها الأوسع وراحت تبحث عن بلاد أكثر رخاء ونعمة خلال فترة من القحط والجذب. ولم تكن الأولى في هذا المسلك فقد سبقتها موجات من الهجرات السامية التي تدفقت إلى بلاد الرافدين وفلسطين والشام قبل ذلك بقرون عديدة. ويبدو أن العبريين كانوا أقل عدداً ولم يستطيعوا بالتالي إقتحام منطقة رحية واسعة كما فعل الأكديون والآشوريون والفينيقيون من قبل. ولعل ذلك يفسر انشغالهم المبكر بفكرة العدد والتكاثر وإنجاب الأسرة الكبيرة. إن من أول الوعود المقدسة التي منحها الرب لإبراهيم الخليل في سفر التكوين: «ثم أخرج الرب إلى الخارج وقال أنظر إلى السماء وعد النجوم إن إستطعت أن تعدّها. وقال له هكذا يكون نسلك»^(١). وقد إضطرت القبائل العبرية إلى إستيطان المناطق الشبه الصحراوية بإمتداد الشريط الجنوبي الغربي من الهلال الخصيب في وقت ما بين العصرين البرونزي والحديدي عندما كانت مجموعات مختلفة من القبائل تتنافس في العثور على موطن لها في بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين^(٢). وبعد أن تعلمت هذه الأقوام تدجين الحيوان وتربية المواشي والاستقرار في المناطق المزروعة والمراعي الخصبة قرب ضفاف الأنهار، لم يعد بإمكانها الالتفات إلى الوراثة والتقهقر إلى سابق عيشتها^(٣).

ويظهر أن موجة أخرى من المجاعة والقحط، مما أشار إليه سفر

(١) سفر التكوين، ١٥/٥.

(٢) Noth, M. History of Israel, London, 1958, p.82.

Engels, F., Origin of the Family, Marx Engels Selected Works, London, (٣) 1950, Vol. II, p.172.

التكوين، اضطرت قسماً من هؤلاء إلى الرحيل إلى مصر حيث رحب بهم الفراعنة كيد عاملة رخيصة سرعان ما إستخدموها بصفة الرق. وأخيراً حدا بهم ذلك إلى الهروب من مصر فكان أن تحولت قصة عبورهم شبه جزيرة سيناء تحت قيادة موسى إلى ذلك الفصل الذي أخذت فيه الديانة اليهودية طريقها الذي نعرفه، ولم يكن جميع أتباع موسى من العبريين فقد إنضم إليهم آخرون ممن كانوا يرزحون تحت حكم فرعون وخرجوا معهم فيما كان أشبه بثورة عبيد ضد الاستغلال. وذهب سيغموند فرويد إلى أكثر من ذلك فإعتقد أن موسى نفسه لم يكن عيرانياً وإنما كان مصرياً. ومما لا شك فيه أن القسم الأكبر من الشرائع الموسوية لم يرد في سيناء ولكن تلك العملية القيادية الخطيرة إستدعت رصيذاً عالياً من العقيدة والسند الايديولوجي والنفسي. وكما تحدث طارق بن زياد إلى أتباعه فيما بعد وأشار إلى ثروات أسبانيا التي تنتظرهم، تحدث موسى إلى قومه عن اللبن والعسل اللذين ينتظرانهم في أرض الميعاد. ومثل هذه البشائر مألوفة بين رجال القبائل الرحل كما يدلنا المثل العربي المعروف، «إن الرائد لا يكذب أهله».

وإكتسب هذا الوعد مع ما صاحبه من إصطفاء العبريين كشعب الله المختار المدولات القومية الطموحة بعد إقامة المملكة وعندما دونت أسفار موسى (الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم)^(١). وبالطبع لا جديد هناك في إدعاء أي شعب في مرحلة توسعه وإنتصاراته بإمتيازه على بقية الشعوب وشرف مجده الخاص. وفي إطار تفكير العالم القديم كان من المعتاد لهذه الفكرة أن تأخذ شكلها في قالب الدين تماماً مثلما أخذت قالب العلم والعنصرية في أوروبا الوسطى في عهد داروين والأنثروبولوجيا. وقد تعززت الفكرة القومية لبني إسرائيل كما تعززت في بولندا نتيجة وقوع مملكتهم بين قوى متطاحنة جبارة، وهي آشور وبابل ومصر.

(١) لدراسة تدوين أسفار العهد القديم، راجع Rowley, H.H., The Growth of the Old Testament, London, 1967, p.32.

أعطى المؤلف عام ٩٠٠ ق.م كأقدم تاريخ في هذا الموضوع.

كانت فلسطين وبقيت بلداً فقيراً بالنسبة للبلدان المجاورة كالعراق ومصر وشحت فيها مصادر المياه والأخشاب والمعادن، ولكنها كانت مركزاً للطرق الرئيسية التي تربط آسيا بأفريقيا وأوروبا، ومصر بالعراق وسوريا بالحجاز واليمن ثم الهند. وغدا من الطبيعي لسكانها، ونخص بالذكر منهم اليهود، أن ينصرفوا إلى التجارة، ولا سيما قبل إستيلائهم على السهول والوديان الزراعية الكنعانية في الأخير. وإزداد التخصص في التجارة تركيزاً بعد تأسيس مملكتهم والاتفاق التجاري الذي عقده الملك سليمان مع ملك صور للسيطرة على خطوط الملاحة التجارية في البحر الأبيض المتوسط من قبل صور والخطوط الملاحية للبحر الأحمر من قبل الملك سليمان. وسرعان ما إستطاع اليهود والفينيقيون إقتسام جميع تجارة الملح (وهو البضاعة التي تمتعت آنئذ بالأهمية السياسية والاقتصادية التي يتمتع بها النفط في أيامنا هذه) للعالم القديم. وفي حديثه عن اليهود ومستهل تاريخهم، كتب كارل كاوتسكي قائلاً: «أن طبقة التجار تعتبر أكثر القطاعات الاجتماعية أهمية وقومية بنفس الوقت»^(١).

إستطاع اليهود أن يعطوا العقيدة الدينية بعداً أكثر عالمية مما عرف عن أديان العالم القديم في الشرق الأوسط، وفي عين الوقت سخرُوا هذا الدين كألة فعالة تخدم مصالح القومية اليهودية، أو بعبارة أخرى مصالح الطبقة التجارية التي أدركت تمام الإدراك أن من الضروري لنجاحها وتوسعها أن توجد وراءها دولة قوية تساندها وتفتح لها الأسواق الخارجية، وتضمن الأمن لعملياتها وخطوط مواصلاتها، وتعطيها ما تحتاج إليه من هيبة وسمعة، وتكفل لأبنائها السلامة والنفوذ عند تواجدهم في الخارج. وأصبح التناقض بين الجانب الأُمِّي والجانب القومي المحلي من الظواهر التي صاحبت التاريخ اليهودي على مر العصور. وتجلّى هذا التناقض في الصراع بين الاتجاه الإنساني الاصلاحى والاتجاه الصهيونى الانفصالي.

Kautsky, K., The Foundations of Christianity, London, p.210.

(١)

وساعد العمل التجاري كذلك على التمسك بالتجريدية مما إرتبط بصورة طبيعية بحياة البداوة للساميين. على نقیض المزارع أو الحرفي الذي ينتج سلعاً ملموسة بالید وظاهرة للعیان ويعبر عن نفسه بنتیجة ذلك بأساليب مجسمة ملموسة، كما في الفنون التشكيلية من نحت ورسم، نجد التاجر يتعامل بسلعة واحدة هي النقد، ذلك الرمز المجرد الذي يعبر عن كل شيء بالأرقام والمفاهيم المجردة وقلما تمسه حتى يد التاجر. وبالتالي أصبح هذا الإنسان ينظر إلى العالم بفكر تجريدي ورياضي وغیبي ويتعلق باله يتجاوز الأسماع والأبصار.

... ظهر بنو إسرائيل على مسرح العالم القديم في عصر ساد فيه النظام الأمفيثيون الذي يقوم، كما رأى نوٹ، على إثنتي عشرة قبيلة تشترك في معبد واحد. وكان هذا التنظيم شائعاً في الشرق الأوسط في الألف الثاني قبل الميلاد ويعتقد نوٹ أنه ساهم مساهمة كبيرة في صياغة العقيدة التوحيدية لمجتمع المجموعة العبرية القائمة على الاثنتي عشرة قبيلة. ومن جانب مختلف تماماً، رأى فروید أن هذا التطور الفكري نقله العبريون معهم من مصر بعد تقوض الإصلاح الديني الذي إشتهر به الملك أخناتون ووحداً إله مصر تحت ظله في شخصية الإله الواحد «آتن»^(١). والحقيقة أنه كان من الطبيعي للعبرين بعد ما قاسوه من إستعباد المصريين أن تمتلئ نفوسهم بالامتعاظ من ديانة مصر وما إتصفت به من تعدد الآلهة. وكان أن إنسجمت هذه الميول العقائدية مع المتطلبات التجارية وذهنيتها كما ترعرعت في مملكة يهودا وإرتبطت فيما بعد بالشتات. بيد أن ذلك لم يحل مشكلة التناقض بين المنحى الأممي الإنساني والمنحى الشوفيني المشرنق. وهكذا إستمر الصراع بين الرب الأعلى، خالق البشرية والوجود، والإله الاقليمي القبلي الذي نشر ظله على العالم القديم. وبهذه الصفة أصبحت ديانة مملكة يهودا حلقة الصلة بين

Freud, S., Moses and Monotheism, The Complete Psychological (١)
Works of Sigmund Freud, London, 1964, Vol.XXIII.

الديانات البدائية والأديان التوحيدية المتطورة. وقدّر لهذا التناقض الذي يمكننا أن نلمسه في أجزاء مختلفة من الأدبيات الدينية اليهودية أن يصبح عنصراً مهماً في نشوء ما يسمى بالمسألة اليهودية، كما سنتناوله بالبحث بعد قليل.

وفي المنافسة التجارية الحادة بين المملكة اليهودية والمراكز التجارية المجاورة، عبر الناطقون بلسان الطبقة اليهودية التجارية عن مطامح هذه الطبقة التوسعية باللعنات الطويلة الواردة في العهد القديم على ثروات صور وصيدا وبالنبوءات في نزول غضب الرب عليها. وهكذا أشار سفر حزقيال إلى هذه المنافسة بين أورشليم وصور وكيف شمت صور بإنكسار أورشليم فتكلم الرب إلى حزقيال، «قل لصور أيتها الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة، هكذا قال الرب». ثم يمضي النبي فيعطي قائمة مفصلة بتجارة صور وعملائها ووكلائها وزبائنها وفضتها وحديدتها وقصديرها ورصاصها وحنطتها وعسلها وزيتها وقوافلها وسفنها ثم يصور سقوطها وغرق سفنها وملاحيتها وتجارها، «وحين إنكسارك من البحار في أعماق المياه سقط متجرك وكل جمعك. وكل سكان الجزائر يتحIRON عليك وملوكها يقشعرون إقشعراراً ويضطربون في الوجوه. التجار بين الشعوب يصفرون عليك فتكونين أهوالاً ولا تكونين بعد إلى الأبد»^(١) ومن الجدير بالالتفات في هذا المضمار أن نتذكر ما قاله الباحث الاجتماعي الألماني ماكس فيبر في وصفه لكهنة العهد القديم بأنهم كانوا يمثلون طبقة العامة Plebians ولا شأن لهم بالطبقة الأرستقراطية Patricians ولا بطبقة الفلاحين. .^(٢) وستجلى أهمية هذه الملاحظة بعد قليل عندما نتبين كيف عبرت اليهودية عن ضمير وأخلاقية الطبقة المتوسطة للتجار بكل نزوعها النفسي والمادي.

ولكن مملكة يهودا عانت لسوء حظها في هذه المنافسة القاتلة من حراجة

(١) العهد القديم، حزقيال؛ الإصحاح ٢٦ - ٢٩.

(٢) Weber, M, Ancient Judaism, London, 1953, pp.116-117.

(٢)

موقعها وقلة رجالها وشحة مواردها ومن الاستنزاف المستمر الذي فرضه عليها الفاتحون العتاة، الذين إنتزعوا منها بالقتل أو الأسر، الشريحة العليا من قوتها العاملة الماهرة كلما توغلوا في أراضيها وإستولوا على مدنها. وبذلك تعرضت دولة بني إسرائيل التجارية إلى الهول الذي يهز قلب أي رجل أعمال وأي شعب معتمد على مهنة التجارة القلقة. وتحت هذه الظروف إزدادت النفسية الجماعية لليهود حساسية وإرهافاً وقلقاً، وأصبحت أكثر تعرضاً لأثر الصدمات القومية. وتدفق هذا التوتر النفسي الجماعي في سيل من النبوءات الغيبية والإشرافات العصائية والأعمال التي ترتبط في أذهاننا في الواقع بحالات الاختلال العقلي لا أكثر ولا أقل. ونجد مثل هذه المظاهر كجزء من حياة كثير من كهان الديانة الذين نصبوا أنفسهم حرساً على التراث القديم والنظام القديم ضد الأرستقراطية «التي تختلق الشر وتعطي المشورة الخبيثة في المدينة». كما قال العهد القديم. ورغم أن هؤلاء الكهنوت لم يفوتوا فرصة دون أن يهاجوا الأغنياء والقصور ويدافعوا عن الفقراء والمحرومين فإنهم في الواقع، وكما ذهب فيبر، لم يكونوا الناطقين بإسم الجماهير الواسعة وبقوا في حدود الطبقة المتوسطة^(١). كان دورهم دور معظم المصلحين والوعاظ الاجتماعيين الداعين إلى صيانة الوضع القائم ووقايته من الانهيار بترميمه وإصلاحه، وعند الضرورة بدفع ما يلزم من الثمن في الرضوخ إلى الأجنبي.

لقد وجد الكهنوت أن المقاومة العسكرية للدول المجاورة القوية شيء عقيم - وبإنعدام القدرات الموضوعية على المستوى العملي لمثل هذه المقاومة، راحوا يفتشون عن وسائل لخلاص الأمة وإستمرار نشاطاتها الاقتصادية، في عالم السحر، في عالم الإيمان، وبإلتئب المطلق بإرادة يهوا والخضوع لوصاياه. ومن هذا المنطلق، ولدت سلسلة من الأوامر والنواهي والممنوعات والأساليب المرتبطة بالسلوك والعيش ما فتئت تنمو وتشعب حتى تطورت وتحولت إلى ضمير متضخم من الأنا الأعلى، الجاثم على كل شيء. ومنذ ذلك الحين، أصبحت كل مصيبة تحل ببني إسرائيل أو نصر يصيبونه تعتبر عقاباً

(١) المصدر نفسه.

من الرب على ما إقترفته أيديهم أو ثواباً منه على حسن ما فعلوا. وأدى هذا التوجه الأخلاقي الجديد إلى إعطاء بني إسرائيل دافعاً إضافياً إلى الشعور القومي بالتميز والتفوق. لقد كانت آلهة العالم القديم في الشرق الأوسط تتصرف في أكثر الأحيان تصرفاً جزافياً وتلهو باللعب بمصائر الكون والإنسان والجري وراء أهوائها. هنا جاء إله جديد ينظر للأمور من زاوية الخير والشر. وأخذ هذا الاطار الديني للقومية شكل العهد (برث) بين يهوا وإبراهيم بأن الرب قد إختار هذه الشعب بمثابة شعب الله المختار، شعب مقدس وعده الرب بالحصول على أرض مقدسة لأبد الأبدن. وتكرر هذا الوعد في أكثر من مكان من سفر التكوين، «ولما كان إبراهيم ابن تسع وتسعين ظهر الرب لإبراهيم وقال له... أقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً. لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً. وأكون إلههم»^(١). وكان أن أصبحت هذه المكانة الممتازة لبني إسرائيل حجر الزاوية للفكر القومي اليهودي وغدت قدسية الشعب وخلوده الأبدي وإرتباطه الدائم بهذه الأرض المقدسة أفكاراً ظلت تتردد حتى على السنة الملحدن من الصهاينة من أمثال سمولنسكين وليلنبلوم.

وأدى هذا الاختيار لشعب إسرائيل إلى إرتباط الشعب بالإله، وبالتالي إلى إضفاء الخلود على الشعب كما نص عليه العهد وسلف ذكره. وكان لهذا المفهوم أثر كبير على قصة الصهيونية مما سيلي شرحه. ويكفي هنا أن نلم ولو قليلاً بفكرة الخلود التي إستحوذت بخيال شعوب الشرق الأوسط على وجه خاص لنرى فيها بعد كيف صبغ هذا الاعتقاد جل ما جاء في التاريخ اليهودي.

توصل البشر أول ما توصلوا إلى المدنية الزراعية ووضعوا أسسها على ضفاف النيل في مصر وضفاف الرافدين في العراق. وكان من شأن المناخ

(١) سفر التكوين، الإصحاح ١٧، وكذلك الإصحاح ١٥.

المتطرف لهذه المنطقة وخاصة العراق، أن لمس الإنسان بصورة مجسمة أمام عينيه، ظاهرة الموت والحياة وهما يتعاقبان بسرعة مخيفة كما تتجلى في كثير من الأحيان بولادة النبتة وتبرعمها وازهارها في الصباح ثم إحتراقها وموتها بمرور الظهيرة. وأعطت الفيضانات الموسمية للأنهر بما تحلفه من هلاك مفاجيء شامل إستعراضاً دورياً لهذا المصير المرعب. وسرعان ما وجد الإنسان ملاذه في حياة عالم آخر رسمه الإنسان القديم بكل تفاصيل الحالم على ضفاف الرافدين والنيل. ومضى الفراعنة فأمعنوا في ذلك وتوصلوا إلى التحنيط كآخر وسيلة لتفادي الزوال والفناء وراح ملوك مصر ينسون قصورهم لينفقوا كل ما عندهم على قبورهم ويخلفوا كل ذلك التراث الفذ في محاولتهم التهرب من مصير الفناء.

وبنفسه السوداوية المتشائمة وجنوحه إلى الواقعية القاسية، نظر ابن الرافدين إلى المنية كأبشع حقيقة في وجود الإنسان ودنيا المخلوقات. وراح شعراء بابل يصورون حياة الموت بأبشع الصور في عالمهم الأسفل، «حيث يكون التراب طعامهم والطين زادهم. حيث لا يرون النور ويعيشون في الظلمة». وقد وصفت مناحات تموز موت الحياة وهلاك المزروعات في موت آلهة الزرع ثم بعثها السنوي وتحولت الأسطورة إلى جزء من التراث البابلي الذي ظل يلعب دوره في حياة وتفكير أهل العراق حتى اليوم. وأصبح الصراع من أجل الحياة الخالدة والبعث شاغل الإنسان والآلهة معاً في وادي الرافدين. وقدر لما تمخض عن ذلك من أفكار أن يأخذ مكانه المهم في التراث الديني للكنعانيين وأصبح جزء من نصوص الأوغاريت التي لعبت دوراً كبيراً في التأثير على الفكر الديني اليهودي، كما يستدل من تشابه النصوص وتوازيها^(١) وتحولت ملحمة غلغامش البابلية إلى مصدر إشتقت منه كثير من القصص الميثولوجية التي تروي قصة محاولة الإنسان الانتصار

(١) أنظر: Patton, J.H., Canaanite Parallels in the Book of Psalms, Baltimor, 1944.

على الموت. وفي كل من قصتي غلغامش والاسكندر الأكبر، نلتقي بذلك البطل الجبار الأقرب إلى الآلهة منه إلى البشر، ينتصر على كل شيء في طريقه حتى يلتقي بالموت، فتشح الحيلة في يده ويعجز في آخر لحظة عن نيل الخلود. غلغامش يفقد نبتة الحياة أثناء سفرته في الماء والاسكندر يفقد ماء الخلود أثناء سفرته على الأرض.

لقد كان كتاب أسفار موسى الخمسة ملمين إماماً كافياً بتراث بابل وإقتبسوا الكثير من أفكارهم مما وجدوه وسمعوه على حوض الفرات، بيد أنهم تحاشوا موضوع الخلود. والحقيقة أن أولئك الكتاب الذين عالجوا قصة نوح أكدوا تأكيداً خاصاً على وفاته، ولو أنهم أعطوه عمراً طويلاً بسخاء عندما قالوا، «وكانت أيام نوح جميعاً تسعمائة وخمسين سنة. وكان أن مات»^(١) وعلى نقيض ذلك تروى الأسطورة البابلية أن أوتنابشتيم، نظير نوح، توفى في الحصول على الخلود بعد الطوفان، مثلما توفى أوزيريس في مصر في نيل ذلك بعد الأهوال التي مر بها. وبإستثناء الاشارات القليلة العابرة في الأسفار الخمسة الأولى إلى احتمالات البعث والخلود مثل، «وقال الرب لموسى، أنظر، فإنك سوف ترقد مع آبائك، ثم تنهض»، فليس هناك أي إهتمام يذكر بموضوع البعث والنشور وخلود الروح.

ما الذي جعل العبريين يتذكرون لفكرة خلود الشخص التي كانت شائعة في المنطقة ولا يحلمون وراء حياة ثانية في عالم الأموات؟ ربما يعود ذلك إلى نفس التمرد على عالم الوثنية الذي إمتلأت به دنيا عبوديتهم ولا سيما في مصر، التي أعطت المكانة المقدسة الأولى لآلهة الخلود وعالم الأموات وإحتل فيه أوزيريس، إله الموت والبعث والخلود، المكانة الرئيسية. وقد إلتفت فرويد لهذه المعضلة ووجد لها مخرجاً في الإشارة إلى الإصلاحات التي جاء بها اخناتون الذي وحد الآلهة وفي مسعاه التوحيدى هذا الذي ترك أثره العميق في العبريين، عمد أيضاً إلى إلغاء عالم الآخرة.

(١) سفر التكوين ٩/٢٩.

بيد أن هناك أيضاً عاملاً آخر في هذه المعادلة يسترعي التفكير فيه وأخذه
 بنظر الاعتبار. عند خروج موسى من مصر، واجه تلك المهمة الشاقة في
 عبور صحراء سيناء، والأعداء حوله من كل جانب. وكأي قائد ناجح،
 حصر فكره في الدرجة الأولى في سلامة المجموعة وبقائها. وهو الواجب
 الذي اقتضى بالضرورة التهاون في حق الفرد وإخضاعه لصالح المجموع،
 مثله في ذلك مثل أي زعيم كلياني أو دكتاتوري أو سلطوي يتحمل مسؤولية
 الوصول بسفينة الدولة إلى شاطئ السلامة عبر بحر من العواصف. في كل
 هذه الأوضاع الكليانية يصبح الفرد سلعة زهيدة يرمى بها للذئب من أجل
 الكيان الجماعي، من أجل خلاص الدولة أو سؤدها. ومن هذا المنطلق،
 تجاهلت اليهودية مآلات الفرد فخلت من طقوس الدفن والعزاء والتكفير.
 ليس لوفاة الفرد الأهمية التي تبرر كل هذه الضجة. وإستمر حال المجتمع
 العبري بهذا الشكل وبين المخاطر المستمرة حتى بعد إخفاء موسى عن
 المسرح. في هذا الإطار أصبح من الطبيعي لمثل هذا المجتمع أن ينظر إلى
 الخلود في مفهوم المجموعة وليس الفرد. وعلى عكس ما ورد في القرآن من
 تركيز على روح الفرد وخلودها وبقاء الفرد ونجاحه، دأب العهد القديم على
 التأكيد على سلامة بني إسرائيل كمجموعة. وهكذا راح صاحب المزمور
 الثالث والثمانين يروي، «فهو ذا أعداؤك يعجون ومبغضوك قد رفعوا
 الرأس. على شعبك مكروا ومآمرة وتشاوروا على أحيائك. قالوا هلم نبيدهم
 من بين الشعوب ولا يذكر اسم إسرائيل بعد»^(١). وغالباً ما ورد ذكر - المنية
 في العهد القديم كما في سفر حزقيال وسفر أرميا في مفهوم موت الأمة
 وإنقراضها^(٢). وقد أصبح هذا الاعتقاد والتفكير الأساس الأولي لجميع
 الأدب القومي اليهودي. هكذا أصبحنا نجد أن الرد الأول الذي يعطيه
 الصهاينة لكل الأفكار الاندماجية والتحررية والبرالية والإصلاحية والزواج
 المختلط هو أنها تؤدي إلى زوال الأمة اليهودية. وإلى حد كبير جاء نمو الحركة

(١) سفر المزامير، ٤/٨٣.

(٢) أنظر مثلاً حزقيال، ١٤/٣٣ - ١٥ وأرميا ٣١/٣٦.

الصهيونية في العصر الحديث نتيجة لهذا الاحتمال الذي أخذ يتجسم منذ الثورة الفرنسية. وفي مناقشته للحلول المختلفة لمشكلة اليهود كما بدت في أواخر القرن التاسع عشر، كتب أحاد هاعام، الرائد الروحي للحركة الصهيونية فقال، «... الانقراض بديل لا يمكن في أي ظرف من الظروف التفكير فيه»^(١). وعبر القاضي برانديز، رائد الصهيونية الأمريكية، عن موقف مشابه في خطابه الذي ألقاه في حزيران ١٩١٥ تحت عنوان، «المشكلة اليهودية وكيف تحل؟» فقال، «ونظراً لأن الموت ليس بحل لمشكلة الحياة، فإن حل المشكلة اليهودية يتضمن بالضرورة إستمرار وجود اليهود كيهود»^(٢). وتتردد مثل هذه الأقوال في شتى الأدبيات الصهيونية واليهودية إلى حد يجعلنا نشعر بوجود هلع غير طبيعي في نفوس كتابها إزاء أي تفكير في إنقراض الشعب اليهودي كشعب. إنه شعب الله المختار الذي أصبح جزء من ملكوت الذات الإلهية وزواله ينطوي على زوال هذا الملكوت وثلث في تلك الذات.

بيد أن فكرة الخلود عادت فخرجت إلى السطح في عصور لاحقة من التاريخ اليهودي بالنسبة للفرد وجاء هذا التوسع في آفاقها بعد سقوط المملكة اليهودية وحصول الشتات. إلتفت عندئذ كتاب التلموذ إلى مقاطع مختلفة من التوراة ليدللوا بها على إيمان الديانة اليهودية بالبعث والنشور وخلود الروح ونفوا أن تكون قد أنكرت ذلك^(٣). وقد ذهب تفكير الباحثين إلى أن أصحاب التلموذ تأثروا بالفكر الأغريقي الذي شاع وأصبح موضة في عصرهم. وبكل ما يتميز به ذلك الفكر من معتقدات تتعلق بعالم الأموات جاءت هي بدورها من معتقدات بابل وحوض النيل. بيد أننا نعرف أن اليهود كانوا أقرب إلى بابل ومصر من الأغريق وكان الأحرى بهم أن يتأثروا

(١) The Zionist Idea, an anthology edited by Hertzberg, New York, 1960, p.271.

(٢) Brandies on Zionism, Washington, 1942.

(٣) أنظر النسخة الانكليزية من التلموذ في فصل براكوث ٩١ ومنح 90b-92b.

بها مباشرة قبل الأغريق بأجيال. ما الذي حدى بمفكري ومفكري اليهودية أن يلتفتوا في الشتات إلى موضوع خلود الفرد؟ الأرجح في رأينا أن ذلك وقع بعد فشل خلود المملكة وإخراج اليهود منها وتشتيتهم. إذا كان لا بد للخلود من مكان في تفكير الإنسان فليكن إذن الآن في إطار الفرد. وشاع هذا الاجتهاد بصورة خاصة بين أبناء الطائفة اليهودية في بابل، أتباع أرميا ومذهبه الأممي الذي دعي إلى تقبل الشتات والاندماج بالأمم الأخرى، وهذا أمر جدير بالانتباه. وجاء كل ذلك في زمن إنتشرت فيه بين اليهود الاعتقادات بالأشباح والعاريت والأرواح والأحلام والاهتمام بتفسير الأحلام والظواهر الميتافيزيقية.

الموت يطرق على الباب

بقدر ما أعطت فكرة خلود الروح من عزاء وسلوى لليهود، أعطتهم فكرة خلود الشعب محنة بعد محنة وعذاباً فوق عذاب. الاعتقاد بخلود الفرد إعتقاد لا يتصادم بالوقائع الموضوعية العملية، وعمد كثير من الناس إلى العيش بموجبه والسعي إليه بالانسحاب من الوقائع العملية واللجوء إلى الأديرة، ولكن الإيمان بخلود الشعب يصطدم فوراً وعلى المستوى السياسي والعسكري بكل ما في عالمنا من وقائع مرة. على النطاق الفردي، لم يستطع الإنسان أن يغمض عينيه، من الناحية الأخرى، عن واقع الولادة والنشوء والشيخوخة الموت، بيد أنه لم يستطع أن يرى نفس الواقع منطبقاً على حياة الشعوب. وسهل له - أن يتصور شعبه في منجى من المصير المشابه ومن هذا المنطق الكوني الأبدي. وفي موقفه هذا، أحاط البشر أنفسهم بسلاسل من المتناقضات والمصاعب. وقد ساهمت الستاتيكية البدوية السامية التي إشتك فيها العبريون على تدعيم وتعميق مثل هذا الاجتهاد وتجاهل النتائج المترتبة على سنة التطور الكونية.

لقد آمن إذن بنو إسرائيل بخلود شعبهم، شعب الله، ولكن سخرية القدر شئت أن تجعل دولة هذا الشعب بالذات من أقصر الدول عمراً وبقاء

في التاريخ القديم . وما كادت إمبراطورية سليمان تطل على التاريخ حتى آلت إلى الأفول سريعاً بعد أن بدأ السوريون من الشمال بإبتلاع الجزء تلو الجزء . وموت سليمان ، إنقسم اليهود على أنفسهم فإنسلخ الشماليون منهم وأسسوا لأنفسهم مملكة إسرائيل الخاصة بهم في عام ٩٣١ ق.م . وإشتبك الجميع في سلسلة من المنازعات والمؤامرات الدامية ، حتى تقدم الآشوريون فكالوا الضربة القاضية لمملكة إسرائيل في عام ٧٢١ ق.م . وإستمرت مملكة يهودا في الجنوب في وجودها القلق تتعثر من حصار وعدو على الأبواب إلى خضوع سافر للأجنبي ولاقت في الأخير مصيرها الأسود في سنة ٥٨٦ على يد نبوخذ نصر .

وفي كلتا الحالتين كانت النهاية مريعة جرّت في ذيلها دماراً ماحقاً للدولة والأمة وسلب ثروتها وسبي شعبها وأسر أبنائها من الطبقتين العليا والمتوسطة وتدمير معابدها وقصورها . وتعليقاً على ذلك المصير ، كتب العزيز بن يهودا (١٨٥٨ - ١٩٢٣) في رسالة إلى صحيفة «هاشأشار» فقال : «حقاً أن الأمة اليهودية ولغة اليهود قد ماتتا سوية معاً . ولكنها لم تكن ميتة نتيجة أسباب طبيعية . لم تكن ميتة ناتجة عن الأعياء والتعب كما كانت ميتة الأمة الرومانية التي ماتت لهذا السبب ميتة أبدية . لقد إغيتلت الأمة اليهودية مرتين عندما كانت في أوج إزدهارها ونشاطها الفتي» (١) .

ومن المعتاد للذهن البشري أن يجد في المقتل المريع للشباب في عز تألقه صدمة فظيعة كثيراً ما عبر عنها بشتى الأشكال الأسطورية المرتبطة بالأشباح والأرواح والأحلام . . . الخ . ووجد سلواه من المأساة في سحرها النفسي . ومن أبلغ من فطن إلى هذه الظاهرة ووعى أبعاد مدلولاتها كان الرائد الصهيوني الشهير ، الدكتور ليوبنسكير ، صاحب الكراسة التاريخية الكلاسيكية «التحرر الذاتي» عندما كتب قائلاً :

لقد أصبح اليهود يحتلون بين أمم العالم الحية وضع أمة ماتت منذ بعيد. وبعد أن فقدوا أرض آبائهم، فقدوا إستقلالهم وتحولوا إلى حالة من حالات المادة المتفخخة، مما لا ينسجم مع وجود كائن عضوي حيوي ومتكامل. لقد سحق الفاتحون الرومان الدولة اليهودية وإختفت بذلك من أنظار العالم. بيد أنه بعد أن تخلّى اليهود عن وجودهم كدولة حقيقية وككيان سياسي فعلي، لم يستطيعوا رغم ذلك أن يستسلموا للهلاك التام. وعليه، فقد رأى العالم في هذا الشعب الهیئة المخيفة لمیت یمشي بين الأحياء. ولم يكن بوسع خيال الأمم الأخرى غير أن يشعر بإنطباع غريب وشاذ إزاء هذا الشيء الشبيه بالشبح المجرد من الوحدة والتنظيم، المجرد من الأرض ومن أية رابطة توحد، الفاقد للحياة ومع ذلك يتحرك بين الأحياء، هذا المخلوق الأسطوري الشبحي الذي قلما عرف التاريخ مثيلاً له من قبل. وإذا كان الخوف من الأشباح شيئاً فطر عليه الإنسان، وله مبرراته الأكيدة في الحياة النفسية للبشر، أيمكن أن نستغرب عندما نرى الناس يتمسكون بعنف وقوة بشخصيتهم عندما يواجهون هذا الكائن المیت العائش رغم ذلك بين الأحياء» (١).

والواقع أن الأشباح أصبحت شغلاً شاغلاً لليهود في القرون الوسطى في أوروبا وإحتلت مركزاً رئيسياً في الخرافات الفولكلورية السائدة عندئذ، ومن الأفكار التي إرتبطت بهذا الفولكلور أن رش رماد الجثة المیت على مساحة واسعة هو الأسلوب الوحيد للتخلص من شبح صاحبها. ويبدو أن القوميين اليهود رفضوا على المستوى العملي مثل هذه المعالجة ورفضوا تلك النهاية المفجعة والخضوع إلى سنة أساسية من سنن الطبيعة. وحدثهم إلى ذلك الموقف مجموعة من الظروف نأتى إلى شرحها فيما بعد. عندما إستولى نبوخذ نصر على القدس، أخذ معه في عودته إلى بابل الشرائع العليا من المجتمع بشكل أسرى بلغ عددهم نحو ٨٠٠٠ شخص، وترك وراءه في يهودا

الفلاحين والفقراء ونصب عليهم أحد صنائعه كملك. ومن بين أولئك الأسرى الذين عاد بهم، وجلهم من المتعلمين، نشأ الفكر اليهودي الذي أصبح أساساً لليهودية بشكلها الحالي. وعلى خلاف أخوانهم الذين وقعوا في أسر الآشوريين قبل ذلك بنحو قرنين وذابوا في قرى كردستان وجبالها. وجد أسرى نبوخذ نصر أنفسهم في بابل الزاهية، باريس العالم القديم وإحدى معجزاته السبع، بكل ما تدفق فيها من التيارات الحضارية والنشاطات الاقتصادية. وفي هذا المحيط استطاعوا أن يواصلوا حياة الطبقة المتوسطة التي اعتادوا عليها من قبل بشكل أو آخر، ولكن بشكل البدن المشوه الذي قطعت عنه أطرافه، أو بعبارة أوضح بدون الفئات المنتجة من فلاحين وعمالة، وكذلك بدون البنية السياسية العليا التي تعطيهم السند والدفع والحماية لنشاطهم. وفي هذا الوضع نطق شاعرهم بهذا الوصف البليغ:

«على أنهار بابل هناك جلسنا. بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون. . . على الصفصاف في وسطها علقنا أعودنا، لأنه هناك سألنا الذين سبونا أن نعطيهم أغنية. . . سألنا معذبونا بفرح قائلين، رغبوا لنا ترنيمة من ترنيمات صهيون. كيف نرسم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟ أن نسيك يا أورشليم، فلتنس يميني مهارتها. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك ولم أفضلك يا أورشليم على أعظم أفراحي» (١).

بعد أكثر من ألفي سنة، إنتهى الصهاينة الاشتراكيون إلى الموضوع فقالوا أن مشكلة اليهود ترجع إلى إفتقارهم إلى قاعدة عمالية، وعليه فإن حلها يتوقف على نقل الطبقة المتوسطة اليهودية من أماكنها المعاصرة إلى مكان تلتقي فيه ثانية وتلتحم بطبقة عاملة يهودية، وهي الفرضية التي سيرد لها ذكر في مكان آخر من هذا البحث. ولربما يمكن عقد مقارنة بين مصير يهود السبي عند الآشوريين ويهود السبي في بابل فيقال بأنه كان من المحتمل

(١) مزامير ١/١٣٧ - ٥.

للمجموعة الثانية أن تذوب أيضاً في محيطها الجديد كما ذابت المجموعة الأولى لولا مجيء الفرس بعد سنوات قليلة وقبل إنقراض جيل السبي وتحريرهم اليهود من عقابهم، مما لم يقع بالنسبة لأسرى آشور. غير أن هناك شيئاً من التجني في مثل هذا القول. لا بد أن يتذكر الباحث أن السبي البابلي وقع بعد السبي الآشوري بقرنين، أي بعد أن إكتسب اليهود مزيداً من التاريخ القومي والتثيت النفسي لهويتهم وشخصيتهم. وفوق كل شيء إنطوى الأسر البابلي على تلك الصدمة الهائلة التي نتجت عن سقوط أورشليم وتدمير الهيكل ووضع الخاتمة النهائية لكيان مملكة الله على أرضه. وفي بابل وجد بنو إسرائيل لأول مرة أن عليهم أن يعيشوا بدنأً بدون أطراف، أو رأساً بدون بدن، كفتة مجردة من القوى الإنتاجية المعتادة، ومع ذلك إقتضى عليها أن تعيش كمجموعة مطرودة ومرفوضة، أو باريا Pariah. أصبح الانطواء على النفس والتفوق والتأمل في الماضي سبيلاً طبيعياً لا مفر منه.

الطريق نحو عقدة الاثم

كما كان إيزيريس إله الموت عند المصريين، أصبح يهوا إله الحرب عند بني إسرائيل (الكلمة التي تعني «شعب الإله المحارب») وغدت حروبه حروباً مقدسة يأخذ فيها هذا الإله موضع القيادة. وكان من الطبيعي لليهود أن يطرحوا هذا السؤال، كيف قدر لهذا الإله المحارب الجبار أن يخفق في حماية أبنائه في ذلك الشعب الخالد الذي إصطفاه وأسبغ عليه القدسية الأبدية؟ أكان إذن مجرد واحد من هذه المئات من الآلهة التي ظهرت على مسرح التاريخ القديم ولعبت دورها الصغير ثم غشيها النسيان؟ بحيرة وألم، تأمل أسرى نبوخذ نصر هذه الأسئلة وتوصلوا إلى الجواب الذي إعتدنا عليه في عالم السياسة الوطنية، لقد حلت النكبة لا لعب في الإله ولا لتفوق في من العدو أو ظروف موضوعية لا سبيل إلى التغلب عليها، وإنما بسبب شيء واحد: الخيانة. لقد خسر بنو إسرائيل المعركة لأنهم خانوا ربهم، كفروا بدينه وعصوا تعاليمه. وفي إطار الوحدة القومية لشعب إسرائيل التي بنتها

الضغوط الخارجية والأخطار المستمرة عبر القرون والأجيال، واتخذت تعبيراً لها في إطار العهد الرباني للشعب ككل، واكتسب كل أحفاد إبراهيم هالة القدسية واستبعد من مجال البحث إمكانية إلقاء اللوم على فرد واحد، الملك مثلاً، أو فئة معينة كالجيش. لقد إلزم كهنوت الكتاب المقدس بمجموعة الإثم وشموله وأعطوه إطاراً قومياً في كل مقولاتهم. ومن أمثلة ما نقول تلك القطعة المعذبة الماسوشية التي نطق بها حزقيال ممعناً في تصوير أبعاد هذا الإثم الجماعي:

«وتكلم الرب إلي قائلاً: يا ابن آدم كانت هناك إمرأتان لأم واحدة. وزنتا في مصر وزنتا في صباهما. هناك دغدغوا ندييهما وهناك زغزغوا ترائب بكارتهما. وكان إسم الكبيرة أهولة وإسم أختها أهولية. وكانتالي وولدتا بنين وبنات وهذا كان أسماهما: السامرة أهولة وأورشليم أهولية. وزنت أهولة من تحتي وعشقت محبيها آشور الأبطال، اللابسين الأسمانجونى، ولاة ورؤساء، وكلهم شبان يشتهون وفرسان على خيولهم. هكذا إقترفت البغاء معهم، مع كلهم من خيرة الأشوريين، وبكل من عشقتم نجست نفسها لكل أصنامهم. . ولم تترك زناها من مصر أيضاً لأنهم ضاجعوها في صباها وزغزغوا ترائب بكارتها وسكبوا عليها زناهم. لذلك سلمتها ليد عشاقها، ليد بني آشور الذين عشقتهم. هم كشفوا عورتها. أخذوا بنيتها وبناتها وذبحوها بالسيف فصارت عبرة للنساء وأجروا عليها حكماً. فلما رأت أختها أهولية ذلك أفسدت في عشقها أكثر منها وفي زناها أكثر من زنا أختها. عشقت بني آشور الولاة والرؤساء الأبطال اللابسين أفخر لباس، فرساناً على خيولهم، كلهم شبان يشتهون. فرأيت أنها قد تنجست ولكلتيهما طريق واحدة. وزادت زناها ولما نظرت إلى رجال مصورين على الحائط بصور الكلدانيين المصورة بمغرة، ومنطقين بمناطق حول أحفائهم وبعمائم مسدولة على رؤوسهم، كلهم بمظهر الأمراء وبهيئة بني بابل في بلاد الكلدان، أرض ميلادهم، عشقتهم حالما رأتهم عيناها، وأرسلت إليهم رسلاً إلى أرض الكلدانيين، فأتاها بنو بابل في مضجع الحب ونجسوها بزناهم فتنجست بهم

وجفتهم نفسها. وكشفت زناها وكشفت عورتها فجفتها نفسي كما جفت نفسي أختها. وأكثرت زناها بذكر أيام صباها التي فيها زنت بأرض مصر. وعشقت معشوقيهم الذين لحمهم الحمير ومنهم كمني الخيل. ورحت تستعدين ذكرى رذيلتك، رذيلة صباك بزغزغة المصريين ترائبك لأجل ثدي صباك. لأجل ذلك يا أهليبة هكذا قال السيد الرب، ها أنذا أهج عليك عشاقك الذين جفتهم نفسك وآتي بهم عليك من كل جهة... فيعاملونك بالسخط. يقطعون أنفك وأذنيك وبقيتك تسقط بالسيف. يأخذون بنيك وبناتك وتوكل بقيتك بالنار. وينزعون عنك ثيابك ويأخذون أدوات زينتك...» (١).

دمار بني إسرائيل جاء بسبب فسقهم وكفرانهم منذ أول تاريخهم. وعبر عن هذا الاعتقاد والشعور كهنتهم وأنبيأؤهم عبر العصور، حتى أصبح الشعور بالإثم من المميزات الأساسية التي إرتبطت بالفكر الموسوي والنتاج الفكري لليهود. وفي المقارنة التي عقدها ماكس فيبر بين الخطايا الأخلاقية كما وردت في كتاب الأموات عند المصريين وفي تعاليم العهد الجديد، وجد الباحث الألماني الفرق الأساسي بين أخلاقية مصر القديمة والأخلاقية اليهودية يكمن في الإثم الذي يسري في بطون الثانية وتمتد جذوره إلى الوصايا العشر (٢) وقد حار الباحثون والمراقبون في كنه هذا الشعور بالإثم وتفسيره وذهبوا شتى المذاهب فإنصرف المعادون للسامية مثلاً إلى القول بأن ذلك يرجع إلى شعور اليهود بجرائمهم وشروهم ضد الإنسانية. وإعتقد المسيحيون فيما سبق إلى إسناد هذه الظاهرة إلى جريمة اليهود في صلب السيد المسيح. وعلى الطرف الآخر رأى بعض اليهود أنفسهم أن حساسية مفرطة متأصلة في النفس اليهودية ضخمت ما وقع به اليهود من خطايا وحولتها إلى عقدة أثم ضاربة. وفي دراسته الشهيرة لنفس الظاهرة توصل سيغموند فرويد

(١) حزقيال، ٢٣/١ - ٢٧.

(٢) فيبر، ص ٢٤٠.

من زاوية مدرسة التحليل النفسي إلى أن بني قومه وقعوا ضحية لعقدة الإثم نتيجة إغتيالهم لنبيهم موسى في حالة تمرد وهيجان أثناء المحاولة الشاقة لعبور صحراء سيناء. ورأى فرويد أن موسى لم يكن شخصاً عادياً من الدهماء وإنما كان أميراً عالي الجاه نظر العبريون إليه كقائد وأب راع. وبهذه الصفة يكونون قد إغتالوا من كان بمنزلة الأب، ومن ثم وقعوا في جريمة إغتيال الأب Patricide، الجريمة الشنيعة في عرف التحليل النفسي التي لعبت أدواراً خطيرة على مسرح البشر^(١).

ورغم أن فرويد بنى نظريته على إستنتاجات سلين في كتابه عن موسى^(٢)، فإنه وقع في شكوك ملحوظة في إستنتاجاته وأظهر شيئاً من الأمانة العلمية في إشارته إلى «نقاط الضعف» في أطروحته. وبغض النظر عن كل الجوانب الشائكة الأخرى، فليس ثمة سبيل إلى تفادي الشكوك التي تعترى قصة حياة موسى ومماته. كما أن معالجته الضيقة بإرجاع كل شيء في حياة بني إسرائيل إلى نتاج إنسان واحد مهما كان عظيماً والنظر إلى الموضوع من زاوية عقدة أو ديب تضعنا رغم كل شيء في إطار من الرومانسية العلمية - إذا صح مثل هذا التعبير. الأجدر بالباحث في الأحداث التاريخية الواسعة والمسيرة الكلية لمجموعة بشرية أن يفتش عن الحقائق في العناصر الكلية التي ترتبط بحياة المجموعة الشاملة.

بقدر ما أصبح ميلاد المسيح وهجرة الرسول محمد الحداث الرئيسيين اللذين صاغاً تاريخ المسيحية والإسلام، جاء تدمير هيكل سليمان في القدس بمثابة الحدث الذي طبع بطابعه كل شيء تقريباً في تفكير ونزوع المجتمع اليهودي منذ ذلك التاريخ. أصبح تدمير الهيكل وإنهيار مملكة الرب الأبدية الخالدة العبء الذي حتى ظهور أبنائها المشردين ولون نفستهم بالسوداوية عبر

(١) فرويد، س، موسى والتوحيد.

(٢) Sellin, E, Mose und Seine Bedeutung Für die israelitische Religions geschichte, Leipzig, 1922.

العصور. ومع ذلك، وبله كل الأهمية التي أعطاها بنو إسرائيل للقدس، فيبدو أن تلك الفاجعة القومية كانت مجرد صدمة لاحقة أطلقت من القمم سيلاً من المشاعر المعذبة التي حبستها حتى ذلك الحين ميكانيكية الدفاع الذاتي المتمركزة في كل الأحداث واليوميات السياسية التي عاشتها الأمة عبر سني النسيان والكبت، ولكن عروقها إمتدت إلى الوراء نحو مصاب أعمق أثراً حدث في الأعوام الأولى من ترعرع الأمة ونشئها. ويدفعنا إلى مثل هذه النظرة البعيدة وإلى التفتيش في مجاهل أعمق ما نجده من آثار الشعور بالإثم والعذاب النفسي في ما خلفه لنا العبريون قبل القرن السادس ق.م.، أي قبل سقوط القدس في ٥٨٦ ق.م. ما الذي جرى يا ترى في تلك الأيام الأولى من تاريخ الشعب لترك هذا الأثر البالغ؟

عندما يواجه أي شعب أخطاراً من أعداء أشداء يهددون كيانه وحياته القومية، تصبح التفرقة والتشردم، من أكبر الخطايا التي يمكن لأبناء هذا الشعب أن يقعوا فيها. وعندما نفكر في عبادة الآلهة المتعددة الوثنية وصرخات السخط التي دوى بها أنبياء العهد القديم، ضدها في شتى المناسبات، وننظر إلى ذلك في إطار الأيديولوجية السياسية، نجد أن العبريين إعتبروا تمزيق الوحدة الوطنية شر جرمية في حق الرب. وأعطى أنبياء العهد القديم هذا الاعتقاد أبعاداً وأطراً متعددة ركزت كلها على كلية المجموعة وتضاؤل شأن الفرد أمامها. والواقع أن نظرة الاغيار إلى اليهودي كشخص مفعم بالفردية نظرة مخطوءة تماماً، اللهم إلا إذا نظرنا إليه بالنسبة لعلاقته مع الاغيار. أما في داخل المجموعة اليهودية، فنلتقي بظواهر تذكرنا كثيراً بالتركيب الاشتراكي من حيث علاقة الفرد بالمجموعة. وهل أدل على ذلك من إستحالة أداء الصلاة بصورة فردية وإشتراط وجود النصاب (المنيان) القائم على ١٠ أشخاص كحد أدنى لصحة الصلاة؟. وعلى عكس ما نجده في الديانات الأخرى التي تتحدث عادة إلى الشخص وتعضه فيما يجب أو لا يجب على المؤمن أن يفعله، تخاطب الديانة اليهودية باستمرار المجموعة ككل وتعضهم بما يجب عليهم أن يفعلوه أو يتحاشوه ككل. وعلى خلاف الديانات

الأخرى أيضاً، لا نجد في تاريخ اليهودية مثل تلك الأساء اللامعة من القديسين والأئمة التي تعز بها الديانات الأخرى (١). وبينما أوصت بقية الأديان بالصدقة ومساعدة الفقراء وترك الموضوع لتدبير الشخص وضميره، وضع اليهود نظاماً صارماً للصدقة وأصبحت المساهمة الاجتماعية واجباً على الجميع، وغدت معاونة اليهودي لأخيه اليهودي من أسباب معاداة السامية. ومن نفس المنطلق الجماعي إنبتقت فكرة التحريم (الحاريم)، تلك العقوبة القاسية التي تكسر ظهر أي فرد يخرج عن حكم الجماعة فتلفظه وتضعه خارجها.

أفيمكن إذن، ونحن نجد في مسعانا في تقصي هذا التاريخ القديم، أن نجد شيئاً من هذا الشعور بالوحدة والعزة القومية في تلك السنين الأولى من طفولة الأمة، وأطلق نيران المعاناة النفسية التي إرتبطت بهذا الموضوع؟

نلتقي في سفر صموئيل الأول بتفاصيل واقعة تاريخية تستوقفنا بوصفها وتسلسلها (٢). لقد كانت القبائل العبرية المتحالفة في حرب متواصلة ضد الفلسطينيين الذين كانوا من شعوب البحر الأبيض المتوسط التي وصلت مرحلة العصر الحديدي، وهي المرحلة المتطورة التي لم يصل إليها العبريون بعد. ومن صفحات هذه الحروب معركة حجر المعونة التي هزم فيها الفلسطينيون العبريين هزيمة منكرة فقدوا فيها أربعة آلاف رجل. وتحت وقع الكارثة، إجتمع شيوخ القوم للتشاور في الأمر وتساءلوا في سر الهزيمة. «لماذا كسرنا الرب اليوم أمام الفلسطينيين؟» وقرروا أن يعيدوا الكرة وحلوا معهم تابوت الرب ويضعوه في وسطهم ليخلصهم من يد أعدائهم. وقدر لهذه المشورة أن تؤدي بهم إلى كارثة أدهى وأقسى على يد الفلسطينيين، فقتل منهم في هذه المعركة الثانية ثلاثون ألف مقاتل كان بينهم إثنان من أولاد عالي، رئيس القوم. وأهم من كل ذلك، حدث أن إستطاع أعداء بني

(١) انظر. Orr, A., The Un. Jewish State, London, 1983.

(٢) صموئيل الأول، الاصحاح ٤ - ١٠.

إسرائيل أن يأسروا تابوت الرب ويأخذوه غنيمة. ويصف سفر صموئيل الوقع المأساوي للكارثة بشكل لا يترك مجالاً للشك، تمزيق الثياب وتعفير الرأس بالتراب والصراخ والعيويل. وراح الرسول العائد من الجبهة يروي لعالي نتيجة القتال وكيف إنكسرت إسرائيل وقتل ولداه، ولكن ما إن وصل الراوي إلى تقرير وقوع تابوت الرب بيد الفلسطينيين حتى إنهار عالي وسقط وراء الباب فإنكسرت رقبته ومات. وبنفس الوقت كانت زوجة ابنه فنحاس حبلى فلما سمعت خبر أخذ التابوت إنقلب مخاضها عليها وماتت وعند احتضارها أخبروها بأنها ولدت صبياً «فدعت الصبي إيجابود قائلة قد زال المجد عن إسرائيل لأن تابوت الله قد أخذ ولأجل حميها ورجلها، فقالت زال المجد عن إسرائيل لأن تابوت الله قد أخذ» (١).

وبزوال تابوت الرب، انصرف العبريون إلى عبادة الآلهة الوثنية الأخرى. وساد بينهم شعور عام بمسؤوليتهم عن النكسة، ولكنهم بدلاً من التفكير في الهوة التكنولوجية التي فصلت بينهم وبين الفلسطينيين والتي تمثلت بقدرة هؤلاء على صهر الحديد وطرقه وتحويله إلى سيوف وحراب، إعتبروا تفرقهم وإفتقارهم إلى وحدة من النوع الذي كان شائعاً بين الدول تحت صولة الحاكم المنفرد القوي هو سبب النكبة. وعليه فقد طلبوا من القاضي صموئيل أن يرشح لهم ملكاً يقودهم في الحرب ويجعل منهم «أمة كبقية الأمم». وكان ذلك المناسبة الأولى التي سمعنا فيها هذا الشعار الذي طالما تداول بين أوساط الصهيونية المعاصرة، وأوضح بنفس الوقت شعور بني إسرائيل بظاهرة الشذوذ التي صاحبت تاريخهم، وحدث بفريق منهم إلى التطلع إلى «التطبيع». وقدر لهذا الشعار «كبقية الأمم» أن يصبح عنوان الكراس الذي كتبه الدكتور ماغنز في ١٩٣٠ وأصبح نبزاً للقطاعات السلامية من الحركة الصهيونية.

(١) صموئيل الأول، إصحاح ٤/٢١ - ٢٣.

وقد حذر صموئيل قومه من فكرة تنصيب ملك عليهم وغضب الرب عليهم فقال :

«هذا يكون قضاء الملك الذي يملك عليكم . يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه . ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حرثه ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربته وأدوات مراكبه . ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات . ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده . ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريتكم وشبانكم الحسان وحيركم ويستعملهم لشغله^(١) . ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً . فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم . . . » .

ولا شك أن هذه الكلمات ظريفة من نوعها وتشير إلى الروح الجديدة التي جاءت بها اليهودية في دنيا سياسة العالم القديم . وبعين الوقت تؤكد مرة أخرى على الروح الجماعية التي تستنكر الفرد . وعلى كل فإن العهد القديم يروى أن الجمهور رفضوا نصيحة صموئيل وأصروا على تنصيب ملك يخرج أمامهم ويجعلهم «مثل سائر الشعوب» . ووقع إختيار صموئيل على شاول ليصبح ملكاً . وكان شاول ممن عرفوا بالحكمة والأمانة ولكنه كان في نفس الوقت ، ومما له فحواه أيضاً ، كان يعاني من نوبات متكررة من الكآبة والسوداوية والبرانويا .

ولتفهم الوقع العميق الذي أحدثته معركة حجر المعونة (معركة ابن غزير) تمام الفهم لا بد أولاً من معرفة الدور الذي لعبه تابوت الرب في معتقدات العبريين القدماء . تطورت ديانة العبريين من عبادة السلف التي كانت سائدة في الشرق الأوسط خلال الألف الثاني قبل الميلاد . وحسب إجتهد إدوارد ماير ، كان تابوت الرب مجرد صندوق لفيتش fetish وكانت

(١) صموئيل الاول ، إصحاح ٨ / ١١ - ١٨ .

العبادة العبرية في الواقع ضرباً من الفيتيشية^(١). وفي نطاق هذه الفيتيشية، إكتسبت شخصية السلف الأول، إبرام، تلك المكانة المهيمنة في أسفار موسى الأربعة، حتى تحولت إلى ما يشبه العبادة. المعروف أن الطوطم والفيتش يتضمنان البقية الباقية ذات الأثر السحري العجيب للسلف البطل. والواقع أن النصوص الأولى تتحدث عن التابوت كما لو كان هو الإله نفسه. فبالعودة إلى الإصحاح الرابع من سفر صموئيل الأول نسمع الراوي يروي كيف هتف جميع الاسرائيليين هتافاً عظيماً إرتجت منه الأرض عندما جيء بتابوت الرب وحل بينهم و «خاف الفلسطينيون لأنهم قالوا قد جاء الله إلى المحلة»^(٢).

وبالنظر إلى الموضوع من هذه الزاوية، يكون لسقوط الفيتش بيد العدو إنتهاء لحكمه، أو بعبارة أخرى موته. ولعل في هذا ما يفسر لنا إنصراف العبريين عن التفكير فيه والشروع بعبادة الآلهة المحلية الأخرى لنحو عشرين سنة دأبوا خلالها على نعي التابوت وعبادة بعل وعشتار، دون أن يفكروا حتى بإفقدائه من الفلسطينيين. وبعد أن أعاده هؤلاء طوعاً إلى العبريين، ترك التابوت مهملاً منسياً في زاوية من بيت أبيناداب لردح من الزمن.

ولا بد أن نلاحظ المدلولات الحدادية للنكبة التي أحاقت بالعبريين وتعبيرهم عنها بتمزيق الثياب والتعفر بالتراب والعويل مما إرتبط وما زال يرتبط في الشرق الأوسط بالآتم والموت. منذ تلك الحقبة أخذ إسم الرب «يهوه» يتلاشى من النصوص ويستبدل بكلمة «أدوناي» (السيد) الشكلية الرسمية. وأصبح من المكروهات الدينية ذكر الاسم الصريح «يهوه». وكما نعلم، أن من التقاليد المعتادة في هذه المنطقة من العالم تحاشي ذكر إسم المتوفي، ونكتفي عادة في محادثتنا بذكر «المرحوم».

ورغم أن صموئيل قد لمح إلى التأخر التكنولوجي للعبريين بقوله أن بني

(١). نوث، ص ١٢١. أنظر أيضاً كاوتسكي نفس المصدر.

(٢) صموئيل الأول، ٥/٧.

إسرائيل لم يستطيعوا العثور على حداد واحد بينهم لشحذ سيوفهم وأسلحتهم وإضطروا فعلاً إلى أخذها إلى الفلسطينيين الأعداء ليقوموا لهم بذلك، فإنه لم يستطع أن يحيط حق الإحاطة بالمدلول العملي والعسكري لذلك في تفسير الهزيمة على مستوى موضوعي، وذهب إلى أن النكبة حلت بإسرائيل والهزيمة حاقت بيهوه، الإله المقاتل الجبار، لسبب روحي، «لقد أخطأنا بحق الرب». وكان قرار عالي بإرسال التابوت مع الجيش في المعركة مؤشراً بليغاً على مدى إيمان إسرائيل المطلق بمناعة يهوه، وهو الإيمان الذي ظل طوال التاريخ يغذي الحماس القومي للشعب وإصرارهم على الثبات. وقد وصل هذا الإيمان حداً أن المجتهدين اليهود أكدوا على أن التمسك بالتوراة يجعلها «منبعة ضد هجمات الشعوب الأخرى»، كما قال التلموذ^(١). ومن أطرف الفصول في هذا الباب المذبحة الفضيعة التي فرضها اليهود على أنفسهم في عصر مئائس عندما هاجمهم السوريون ورفضوا إمتشاق السيف للدفاع عن أنفسهم لأن اليوم كان يوم سبت. وحيال مثل هذا الإيمان اللامتناهي بقوة يهوه وإحتضانه لبني إسرائيل، لم يعد بإمكانهم تفسير هزيمته ووقوعه في يد الأعداء بغير إسناد ذلك إلى موجة الكفر والخطيئة التي سبغ بها القوم وتقصيرهم بحق ربهم.

بيد أن سقوط التابوت في يد الفلسطينيين لم يكن فقط بمثابة قتل للمعبود deicide وإنما قتل لشخصية الأب patricide أيضاً. لقد نظر العبريون إلى الرب في إطار علاقة الأب والأبناء. والإشارة إلى يهوه بصفاته البشرية المجسمة anthropomorphic التي أخذت شكل علاقة أبوية من الاشارات المتكررة في العهد القديم. ومن ذلك ما جاء في سفر التكوين من ذكر لأبناء الله (بني الوهيم)^(٢). وفي موضع آخر تساءل ملاخي، «أليس لدينا أب واحد؟ ألم نخلقنا رب واحد؟». وتحدث هوشع عن تكاثر بني إسرائيل ببركة

(١) التلموذ، عبوده زاره، لندن، ١٩٣٥، ص ٢١.

(٢) سفر التكوين، إصحاح ٦.

الله فقال: لكن يكون عدد بني إسرائيل كرمل البحر الذي لا يكال ولا يعد ويكون عوضاً عن أن يقال لهم لستم شعبي يقال لهم أبناء الله الحي»^(١). أما أشعيا الذي أغرق في وصف هو أن الوجود اليهودي في مرحلة ما بعد السبي وتخلي الرب عنهم وإنقطاع المشجعات النارسية، فقد عبر عن تصورات مشابهة: «وقالت صهيون قد تركني الرب ونسني سيدي. هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها. حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك»^(٢) ومن الجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن القرآن الكريم قد تحاشى بصورة قطعية أية إشارة تنم عن علاقة أبوية بين الخالق والمخلوق رغم التداخل الواضح بين الإسلام والدينين السماويين الآخرين. ومن العبارات الشائعة في العهد القديم ما يشير إلى ميراث الله فيما يتحدث التلموذ في المناسبات المختلفة عن بني إسرائيل بصفته «أولاد الرب الأعلى».

ولربما ينصرف الذهن إلى أن مثل هذه الأفكار والتعبير جاءت من باب المجاز والوصف الشعري. وهذا إعتراض لا غبار عليه، بيد أن شيئاً آخر يستوقفنا في هذا الصدد، وهو أن مثل هذه العلاقة بين المعبود والعبد، كانت من ضمن المعتقدات الشائعة في المنطقة بالفعل. ففي بلاد الرافدين، إعتقد السومريون أن الإله مردوخ خلق الإنسان من دم كنفو، ابن الإله تيامات^(٣). وقد لاحظ سميث في كتابه عن المعتقدات الدينية للساميين أن الوحدة الفيزيائية ورابطة الدم كانت من أعرق المعتقدات التي آمنت بها شعوب المنطقة وعبرت عنها بفكرة تقديم القرابين^(٤). وهكذا كان من المعروف في منطقة جبل سيناء أن تذبح الضحية أمام الهيكل ثم يضمخ

(١) ملاخي، ١٠٦/٢، هوشع، ١٠/١.

(٢) أشعيا، ١٤/٩٤ - ١٥.

Roux, G. Ancient Iraq, London, 1964, pp.87-88.

(٣)

Smith, W.R., The Religion of the Semites, London, 1907, pp. 312- 321.

(٤)

الهيكل بدمها وبعد ذلك يضمخ الجمهور الحاضر بنفس الدم . وأصبح من المعتقدات الشائعة في اليهودية أن الدم هو موطن الروح (نفس).

ولم تفتقر هذه المعتقدات عن أصداء لها في أوساط الحركة الصهيونية، وكان من ذلك ما كتبه الرائد الصهيوني لوزاتو في النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما دافع عن أهمية خلود الشعب اليهودي فقال أن خلود الرب يعتمد على خلود هذا الشعب. وبعد أن وافق على أن لجميع الشعوب دورتها الحياتية المتكونة من الولادة والنشوء ثم الموت، مضى فأكد أن ذلك لا يسري على الشعب اليهودي لأن هذا الشعب هو «التجسيم الكامل للواحد المطلق»^(١).

وإذا أخذنا بإجتهادات مدرسة التحليل النفسي التي تعتبر القتل الحقيقي أو المجازي أو التصوري للآب من أعنف الأحداث التي تهز النفسية البشرية، نكون قد وجدنا في نتائج معركة حجر المعونة للآل الثاني قبل الميلاد، الصدمة الأولية primal trauma التي مزقت الضمير الجماعي للشعب. ولكنها كمعظم الصدمات سرعان ما توارت بفعل التعليل والمداواة والإغراق في تطوير قومية شوفينية حتى أخذت قالباً دينياً إلهياً. وكان المفروض فيها أن تتوارى تدريجياً في عالم النسيان كمعظم الأحداث التي مثلت على مسرح العالم القديم، لولا أن تطورات أخرى لا تقل هولاً قاطعت هذا السير وعرقلت العملية، بل وأعادت الحياة إلى الصدمة الأولية.

في عام ٩٣١ ق.م. أصيبت الأمة بهزة جديدة بانقسام الدولة إلى مملكة إسرائيل في الشمال تحت قيادة المتمرد جروبوم ومملكة يهودا في الجنوب. وفي سنة ٨٤٥ ق.م. ظهر زعيم آخر، جيهو، تمرد على الأسرة الحاكمة وتبوأ العرش بعد أن أبادها. وإستمرت كلتا المملكتين في نزاع مستمر تفجر من حين لآخر بحرب شاملة. وكان من فصول ذلك، أن قام الملك يهواش،

(١) هوشت، ٢/١.

حفيد جيهو، بالإستيلاء على القدس وتهديم أسوارها ونهب معبدها. وسرعان ما وقعت إسرائيل نفسها ضحية للغزو الآشوري الذي إنتهى بتدمير معبدها وإلحاقها بالامبراطورية الآشورية. وأدى سقوط المملكة الشمالية إلى سخط الكهنوت على أهلها وحكامها الذين نقلوا المعبد وتابوت الرب إليها والسماح بذلك لسقوط بيت الرب بيد أعدائه. إنها معركة حجر المعونة مرة أخرى بكل نكدها.

لقد بقي رجال الدين ساخطين سخطاً مريباً على تقسيم إمبراطورية الملك شليمان وعبروا عن ذلك السخط بشتى الصور وفي مختلف المناسبات. وكان من بين هؤلاء النبي هوشع الذي إعتبر تقسيم الدولة عملاً لا شرعياً ظل تائراً عليه وهدد بنقمة الله وثأره من آل جيهو. وقد أعطى هذا النبي إطاراً مزيئاً لهذا الشعور بزواجه العجيب بعاهرة ومضى ليسجل الحكمة من وراء ذلك فقال أن الله أمره بالزواج «من زوجة من العاهرات من بنات العهر لأن البلاد إرتكبت عهراً عظيماً» (١). وغدت قصة النبي هوشع وخيانات زوجته ودعارتها وما ترتب عليها من شقاء ومعاناة شخصية لهوشع، رمزاً للمصير الشقي لإسرائيل.

وقد لحقت هذه الصدمة الثانية صدمة أبلغ خطراً وعمقاً في عام ٥٨٦ ق.م عندما سقطت القدس بيد الكلدانيين. وفي هذه الصدمة لم يتم تدمير بيت الرب فقط بل ووضع حد لحياة الكرامة والسيادة لشعب الرب. ولم يبخل الكلدانيون في إعطاء هذه الكارثة ما تستحقه من هول وتدمير وتقتيل وحريق. وتحت وطأة هذه المصيبة الجديدة، شعر بنو إسرائيل بالضياع والتخلي والصدود والإثم. بكفرائهم ومهاتراتهم ومنازعاتهم الداخلية، قتلوا الروح التي أعطتهم القوة والبقاء. وكما كرس كتاب العهد القديم مقاطع طويلة من فصوله على جرائم إسرائيل وآثامها ومسؤوليتها، أوغل مجتهدو التلموذ في معالجة سقوطها وزوال النعمة عنها وتقصيرها بحق الرب

(١) أنظر التلموذ، عبوده زاره، ص ٢٠ وبعده.

وبينما إتخذ هوشع زوجة عاهرة ليعبر عن إثم إسرائيل وخطاياها، عمد حزقيال إلى خلق شعره ليعبر عن حالة الحداد لبني إسرائيل. (الشعر من رموز القوة، وقصه من رموز الحداد التي كانت شائعة بين الشعوب السامية) (١).

في المنفى

من المؤكد أن كثيراً من الشعوب الأخرى كانت كوارث مشابهة، بيد أن الملابس النفسية والظروف التي أحاطت بالأحداث التاريخية التي أتينا على ذكرها، وما نتج عن ذلك من تضخم في الأنا الأعلى وتصور لمكانة الإله وإندماج به، أخرجت الموضوع عن أطره الاعتيادية المتوقعة وأعطت قصة اليهود تلك المكانة الفريدة الغير طبيعية. كان من نتائج تلك الظروف، وربما أيضاً بفعل إستعدادات قبلية موروثه، أن إكتسب اليهود مقاومة عجيبة لقبول الشغف الإنساني بصورة عامة أو الرضوخ لمنطقه. وكان من آثار ذلك رفض قبول ضعف المملكة التي أقاموها بين كل تلك الدول القوية المحيطة، ورفض قبول التشرد وما يترتب عليه من ضرورات التكيف والذوبان في المجتمعات الجديدة بكل ما تقتضيه من تعديلات للتغلب على وقع الصدمة وإجتيازها. أن من أشقى الفصول السوداء في حياة البشر، تحدي جوانب الضعف الحتمية في وجود الإنسان، الأمر الذي يسبب في كثير من الأحيان تلك المعاناة المريرة في حياة الفنانين والأدباء والمصلحين والمفكرين... الخ. وقد كتب الدكتور هاري غنترب في هذا الخصوص فقال، «إنني أعتبر تلك الظاهرة الأخلاقية القديمة التي تكمن وراء معاناة البشر، نتيجة من نتائج الحاجة الملحة لعدم الاعتراف بالضعف، حتى ولو كان ذلك الهروب على حساب الاعتراف بالسوء والطلاق» (٢).

بيد أن شخصاً واحداً حاد عن هذه الطريقة القاسية وآثر أن يدعو أمته

(١). سمث، ص ص ٣٢٣ - ٣٢٥.

Guntrip, H., Healing of the Sick Mind, London, 1964, p.49.

(٢)

إلى مواجهة الواقع والتكيف لمتطلباته وحقائقه وكان ذلك الشخص النبي أرميا، الذي إنتهى به الأمر إلى إيداعه في السجن لدعوته إلى نزع السلاح والتخلي عن الشوفينية. وعلى عكس من أسرف في التركيز على الإثم، نطق أرميا ببراءة إسرائيل ونهوضها ثانية وندد بفكرة إنتقال الخطيئة وتوارث الإثم: «في تلك الأيام لا يقولون أكل الآباء حصراً فضرست أسنان الأبناء بل كل واحد يموت بذنبه، كل إنسان يأكل حصراً تضرس أسنانه». وفي مفاهيم في بابل، دعى بني قومه إلى التزوج بالأجنبيات من غير اليهود والامتزاج بالشعوب التي يعيشون بينها. وكان من آرائه التقدمية المثيرة قوله لأتباعه بأن ختان الأذن غير الصاغية والقلب القاسي خير من ختان الذكر، وإن الصلاة لله تأتي قبل الصلاة في الكنيس. ورغم أن أرميا قد تبنى أيضاً فكرة إتحاد الذات الإلهية ببني إسرائيل «أول ثمار تكاثره»، كما قال، وشغل نفسه كذلك بمفهوم خلود هذا الشعب كما فعل سلفه من رجال الدين، فإنه لم يستبعد إمكانية إنقراض الشعب اليهودي «قال الرب إذا عصيت هذه التعاليم أمامي فإن نسل إسرائيل سيزول كأمة قبالي إلى الأبد». ومن الطريف أن قارن بين روح الفتح العسكري والقتل والبطش التي هيمنت على الأسفار الأولى من العهد القديم بالروحانية الجديدة لمدرسة أرميا التي تحدثت عن إستعادة إسرائيل لأرضها بشرائها من الكنعانيين بالفضة وبموجب صكوك شرعية (١). وأن كان الأمر فإن أرميا تعرض بفعل فلسفته وسلوكه، إلى إحتقار بني قومه وإستخفافهم به وإضطهاد ذات أهله وبيته له.

بيد أن أنبياء آخرين وقعوا في آتون الصدمات التاريخية الأولية وعقدة سقوط تابوت الرب ودمار الهيكل وما لحق ذلك من عذاب ومعاناة وصاغوا حول مشاعرهم وتصوراتهم مدرسة أخرى مغايرة. وبالنسبة لهؤلاء أخذت عقدة الإثم ومصرع الفيتش الأب، شكلاً ملموساً بسقوط أورشليم الذي جرى وصفه بشكل تفصيلي تصويري في سفر الملوك الثاني إصحاح ٢٤

(١) سفرارميا، إصحاح ٣١.

و ٢٥ : سقوط العائلة المالكة في الأسر، نهب كنوز الملك سليمان، شيوع المجاعة، ذبح أولاد الملك أمام نظره ثم فقط عينيه وإقتياده بسلاسل من الصفر إلى بابل، حرق بيت الرب، هدم قصور الأمراء والأغنياء وحرقتها، ذبح قادة الجيش والدولة، تدمير أسوار المدينة... الخ.

ومن حين هذه الكارثة، دأب كتاب العهد القديم والتلموذ والأدب اليهودي على النظر إلى كل الأحداث في ضوء ما وقع في العام ٥٨٦ قبل الميلاد. وهكذا صورت كتب موسى الأربعة الأولى من العهد القديم الأحداث التي جرت ومرت قبل مئات السنين كسلسلة من أعمال عصيان الرب، وانتقام الرب من الشعب العاصي ووعدته وتهديده بما خبأ لهم من عقاب. وصورت المآسي المختلفة كمقدمات للنكبة الكبرى. ومضى شعراء وأدباء اليهودية والحركة الصهيونية في العودة إلى نفس الرواية وإعادة سردها ورسمها مرة تلو المرة ومن زاوية أو أخرى. وهكذا كتب حاييم نخمان باياليك، الرائد الصهيوني والشاعر العبري الحديث في وصف تلك الكارثة في قصيدته المطولة، «لقيقة النار» فقال في وصف تدمير الهيكل:

«وإمتلأ قلب الملاك بالرعب وإضطرب متألماً أن تحمد آخر جهرة للرب وتحتفي النار المقدسة من الأرض، ويهلك مصباح شعب الله ومعبدته إلى الأبد. فخلق الملاك مسرعاً من العلى وفوق كوكب الصبح حاملاً في يده جذوة من النار. وبعد أن وصل ذلك الحطام على جبل المعبد، أسرع إلى موضع الهيكل فأوقد لهيب الرب من الموقد ثم نشر جناحيه وحلق بعيداً».

لقد أصبحت آثار الصدمة القومية وتغلغلها في ضمير الشعب، أمراً لا مفر منه بعد أن استنفذ الشعب جل قدرته على التكيف والتعقل، واستهلك كل الطاقة الكامنة للضمير على معالجة الصدمات بنتيجة النكبات القومية المتكررة والصراعات الداخلية، والحرمان والمجاعات التي خلفتها الحروب المتواصلة التي شنها الأمراء بعضهم ضد البعض الآخر أو جروا أنفسهم إليها ضد الأعداء الخارجيين. وازدادت الأزمة النفسية القومية سوءاً بسبب التضخم غير الطبيعي

للأنا الأعلى وتعاضل شأن الطبقة المتوسطة وانقطاعها عن قاعدتها، وأخيراً الشعور البدوي للساميين بالعزة والكرامة. ويبدو أن تضخم الطبقة المتوسطة من التجار والحرفيين ونزاعها مع الطبقة الأرستقراطية قد أعطى فصلاً مبكراً في التاريخ لهذا الصراع الذي شغل أوروبا غداة القرون الوسطى وكان من شأنه في مملكة يهودا أن زاد التوتر الفكري والنفسي عنفاً وحدة.

وقد عبر الكهنوت، الألسن الناطقة بصوت الطبقة المتوسطة، عن علل الكيان القومي وجسموا أعراضها في ضروب شتى من السلوك الشاذ. وهكذا أصبح الهذيان والتفوق والانسحاب والعدمية والاستئصال والشلل الوقي وسماع الأصوات الوهمية ورؤية الأشياء غير الموجودة من الصفات والممارسات اليومية هؤلاء الزعماء الروحيين. ومن أعمال أرميا أنه وضع نير حمار حول عنقه وراح يطوف الأسواق به. ومن تصورات أنه أحس بأن الإله يهوه قد إغتصبه كما تغتصب البنت البكر. أما زكريا فقد أوقع جروحاً مؤذية على جسمه. وكان من شأن حزقيال أن أكل غائطه. وقد تميزت كتاباتهم وتصرفاتهم بانتقالات مفاجئة سريعة من الشعور بالعظمة والمجد إلى الشعور بالتفاهة والضعف. ووراء كل ذلك، كانوا يجدون أنفسهم مدفوعين بقوة خارقة للسعي إلى المثل وإنقاذ الآخرين وقيادتهم. وفي تعليقه على هذه الجوانب العجيبة من السلوك الديني الذي يميز بصورة خاصة التاريخ اليهودي ويعطيه تباينه المحسوس عن تاريخ الأمم الأخرى، كتب ماكس فيبر فقال: «يظهر أن الزعيم الديني النمطي كان يجد نفسه باستمرار في توتر وتأمل كثيب مرهق تصبح فيه حتى أتفه وأبسط الأشياء من الحياة اليومية ألغازاً مخفية»^(١). وقدر لمثل هذه الظواهر الذهانية أن تعود للظهور مرة وأخرى عبر العصور في الشخصيات المختلفة للدعوات والحركات الصهيونية التي يخطر منها في الذهن أول ما يخطر في شخصية النبي الكاذب شبتاي زفي في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر. وبعد السنوات

(١) فيبر، ص ٢٩١.

الطويلة من السرية التي أحاطت الحياة النفسية للمجرم مناجيم بيغن، إنشق الستار في الأخير ليكشف عن أتون من الاضطرابات النفسية المتفجرة من ذهان كآبة عميقة ومزمنة.

إعتبر كثير من الباحثين حزقيال أباً للديانة اليهودية كما نعرفها. وقد عبر حزقيال بالفعل عن ويلات العذاب النفسي الذي عاشه يهود المنفى وكان غارقاً في النشوات الصوفية الغيبية والرمزيات الوجدانية التي أطلت عليها في كل مناسبة من كوة المعبد وهيكل سليمان. وقد عبر عن هواجسه وأفكاره في سلسلة من الأحلام والتحمل والكوابيس المخيفة المرتبطة عادة بحالات الكآبة والقلق النفسي وفيها قدم لنا رواه في شريط مصور لفظي يعطينا صوراً فضيعة من الخراب والبوار والفقر، العرى الجسدي المشين، الجنسيات المرضية المرعبة، الأطفال الأبرياء يمرون عبر ألسنة النيران، قمم الصخور المتوجة بالدم، لحم الإنسان وعظامه وهي تغلي في قدور تطفح بالغشاء ثم تطيب بالتوابل وتحترق حتى يتحول كل شيء إلى هريسة من القذارة الكريهة (١).

يبدأ سفر حزقيال بالمشهد المخيف لخلاّق من الغول بأربعة أوجه لكل منها وتمشي على عجالات وتطير بأجنحة وتغطي بدنها عيون متعددة. ويظهر بعد ذلك الرب وألسنة النيران تنطلق من بين فخذه إلى الأعلى ونحو الأسفل. ثم ينطق الرب فيقول لحزقيال أنه يعيش بين العقارب ويسلمه كتاباً من النوائح والأناشيد الأليمة ويجعله يأكله وابتلعه. ويأمر الرب حزقيال ألا يشرب أو يأكل إلا بمقادير بعد أن يخلط طعامه بغائط البشر. بيد أن حزقيال يعترض ويشهد أنه لم يتناول في حياته قط أي لحم محرم. ويقبل الرب منه هذا الاعتراض ويعدل أمره من غائط الإنسان إلى روث البقر كتنازل خاص (٢). وتظل الصور تتوارد وتتوالى، صور الابتلاعية incorporation

(١) أنظر حزقيال، إصحاح ٢٤.

(٢) حزقيال، إصحاح ٤.

والتشرية introjection والشفهية orality والشرجية anality في مشاهد من الدماء والأشلاء والجزارة والمجاعة ومن ورائها جميعاً يقف الرب مزجراً غاضباً منتقماً.

وتجد هذه الحالة النفسية صوتاً ناطقاً آخر لها في أشعيا «وقد صرنا كلنا كنجس وكل أعمال برنا كثوب عدة وقد ذبلنا كورقة وآثامنا تحملنا كالريح». وتتكرر عند أشعيا أيضاً صور النجاسة والدم الجاري. وكما في حزقيال، تعود صور الأفاعي في أقواله جنباً إلى جنب مع صور الموت واليباب والعدم. ويصل اليأس أوجه عندما يشير الناطق إلى الاندماج بالإثم incorporation of guilt فيقول: «نتظر نوراً فإذا ظلام، ضياء ففسير في ظلام دامس. نتلمس الحائط كالأعمى وكالذي بلا أعين نتجسس. قد عثرنا في الظهر كما في العتمة، وفي الضباب كالموق. نزار كلنا كدبة وحام، هدرأ نهدر. نتظر عدلاً وليس هو وخلاصاً فيتعد عنا، لأن معاصينا كسرت أمامك وخطايانا تشهد علينا لأن معاصينا معنا وآثامنا نعرفها. تعدينا وكذبنا على الرب وحدنا من وراء الهنا. تكلمنا بالظلم والمعصية حبلاً...»^(١) وبين هذه الصور الكالحة المنخولية، تنقش الغيوم فإذا بأشعيا يرى حلماً من أحلام اليقظة ينطلق فيه الرب ليشق السماء ويزلزل الجبال ليظهر للناس أنه ما زال حياً.

لقد أثار سفر أشعيا كثيراً من النقاش من حيث شخصية كاتبه أو كتابه. وكما هو الحال بالنسبة للأجزاء الأخرى من العهد القديم. بيد أن هذه الخلافات تعطي أطروحتنا مزيداً من الدعم بتحويل السفر بكامله إلى تراث فولكلوري متعدد التأليف يعبر عن الضمير الجماعي للشعب وليس مجرد فرد واحد.

وبعد مرور العاصفة وإستقرار آثارها، برزت إلى الظهور مجموعة من الأنماط السلوكية البليغة الدلالة من الناحية النفسية. لقد ظهر مثلاً هوس

(١) أشعيا، ٦٤/٦.

بالنظافة والطهر إلى حد غير طبيعي ولا معقول. تحول بموجبه كل شيء في العالم، من الحيوانات إلى الآلات الموسيقية، إلى ما هو نظيف وغير نظيف. على اليهود ألا يعزفوا على آلات موسيقية غير نظيفة ولا يسمحوا لمن هو غير نظيف وغير مختون القلفة بالاقتراب منهم^(١). وينطبق مثل ذلك على المرأة الحائض. وجرى تأكيد كبير على عادة الختان (برت ميله) التي كانت معروفة بشكل شخصي فأعطوها أهمية خاصة^(٢). وأصبحت رموز الإبادة الذاتية والاستئصال والإخصاء من الطقوس الشائعة. وكان مما لاحظته هربرت سينسر أن القبائل القديمة كثيراً ما فرضت قطع القلفة على أعضائها كبديل عن إبادتهم أو إخصائهم. ولكن العادة تحولت الآن من عقوبة إلى ضرورة دينية. ومن التعليمات الجديدة أيضاً الفروض التي قضت على الخاخامين عدم الاقتراب من الموق (الميت من الأشياء غير النظيفة) أو الزواج بأرملة (غير نظيفة إلى حد معين) أو لبس ملابس تسبب العرق.

وفرضت تعاليم طويلة من حيث الطعام والطبخ، بشكل ينطوي على ذهانيات نيفة finicky neurosis واضحة كان من مدلولاتها البليغة من الناحية الكتابية كره ملحوظ للحوم وميل نحو النباتات، مما يعتبر عادة من الأعراض المتصلة بالملانخوليا والكتابة. ويروي العهد القديم في هذا الصدد كيف أمر الملك فنز رئيس خصيانه أن يطعم دانيال وأصحابه من أطايب طعامه وشرابه، ولكن الله أعطى دانيال حكمة وعقلاً فرفض أكل اللحم وتحايل مع رئيس الخصيان على تفادي ذلك واستبدال طعامه بالحبوب والغلة. لقد كان الساميون يعتبرون اللحم رمزاً للموت والفناء والنبات رمزاً للحياة والخلود. وليس من الغريب أن نجد بطل الخلود في الإسلام يحمل اسم «الخضر»، من الخضرة. وبالإضافة إلى الطعام النباتي، أصبح أكل البيض، وهو الرمز الآخر للخلود وتجدد الحياة، من الأكلات المفضلة بين اليهود، ولا سيما بعد الجنازة. ومن الرموز الجنائزية الأخرى التي

(١) أشعيا، ١/٥٢ و ١١.

(٢) نوث، ص ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

شاعت الماء المالح (رمز الدموع) والبيض المحروق (انطفاء الحياة) وعظم القصة وأعشاب المارور (نبات مر) وتناول ذلك في ليالي الصدر. وحرم أكل اللحم في الأيام التسعة الأولى من شهر آب كما قضت التعاليم باستبعاد عضلات مختلفة من الفخذ من الطعام الصالح. واشترط لأكل السمك أن يكون له زعانف وأصداف وإلا فلا يجوز أكله. وبالنسبة للحيوانات فلا يؤكل منها ما يعيش على اللحم ولا يحل من الماشية إلا ما كان له ظلف مشقوق ومعدة مجترة. ومن الطير لا يحق أكل ما يعيش منها على الطير. وعند طبخ اللحم يتعين عدم مزجه باللبن وكذلك لا يحل مزج القطن بالصوف لنسج الملابس.

وحصل أيضاً إنخفاض ملحوظ في النواحي الجنسية libido مما يمكن أن يلقي ضوءاً مفيداً على الاتجاه الأخلاقي الذي جاء به اليهود. لقد نمت وتفرعت حول الوصايا العشر تعاليم عديدة بعد السبي تميزت بصرامة لم يعرفها العبريون من قبل وأعطيت أهمية إحتلت المرتبة الأولى (١). كانت القواعد الأخلاقية المرتبطة بالسرقة وخيانة الأمانة والقتل والشهادة الزور، وإساءة معاملة الوالدين من القواعد التي عرفها في الواقع الإنسان القديم وإحتلت جزءاً من الكيان القانوني والروحي للدول المجاورة. التطور المهم الذي جاء به الديانة اليهودية ودخل كعنصر جديد في الاعتبار العائلية والاجتماعية اليومية، بالإضافة إلى عنصر الإنثم، تناول تنظيم الحياة الجنسية بالتأكيد تأكيداً كبيراً على العفة والطهر والبكارة وعدم الخيانة الزوجية ونحو ذلك. ومن الجدير بالملاحظة أن كلمة العفة ذاتها لم تدخل اللغة العبرية حتى ابتداء عصر السبي، واستعملت عندئذ لأول مرة في بلاد بابل. وحتى ذلك الحين كان المجتمع ينظر إلى جسم الإنسان والتمتع به جنسياً وجمالاً من المنح العظيمة للآلهة، يقتضي التأمل فيه والتوله به والتعبد إليه. ونظر الناس إلى

(١) فيبر، ص ٢٣٧.

البغاء كمهنة محترمة بل ومقدسة وأعطيت العاهرات مكانة مرموقة في المعبد إرتقت إلى مرتبة القديسات. ودأب الفنانون والشعراء على التعبير عن مثل هذا الموقف وتأليه جسم المرأة وجمالها في أعمالهم الخالدة التي وصلنا الكثير منها (١). وقد ذهب رأى الكثيرين من الباحثين إلى أن الهجوم العنيف الذي شنّه العبريون في مرحلة السبي ضد كل ذلك جاء بمثابة جزء من الحملة القديمة ضد الوثنية ومعابدها. ولكننا نجد هذا التفسير مقصراً في الإحاطة بالمشكلة بكامل أبعادها ومؤثراتها. فقد زاول كهنوت المجتمع كثيراً من الانتقاء في رفضهم وقبولهم، في تساهلهم وتركيزهم، بالنسبة للأفكار التي وجدوها شائعة حولهم. ولعل باحثاً آخر يعترض جملة وتخصيصاً على مثل ذلك التعليل بأساسه لما ينطوي عليه من إطلاق وحتمية وأبدية في مسألة من المسائل الأخلاقية التي تخضع دائماً للتغير والظروف أي تبرير أخلاقي يمكن أن نعطي مثلاً إلى الاعتقاد بأن الأخت الغير متزوجة أنظف من الأخت المتزوجة، وأن المرأة العانس أنظف من الأرملة؟ أن من رأينا أن مثل هذه المؤشرات الجديدة على كره الجنس والجسد والخوف منها يرجع في الواقع إلى حالة الكآبة التي طبعت المجتمع والكهنوت بصورة خاصة بطابعها. ويتطور الأخلاقية الجديدة وتعاضمها في القرون الأولى بعد المسيح، نمت فكرة العزوبة والامتناع كلياً عن الجنس والزواج كقربى إلى الله وشرط للكهنوتية. وأصبح العهر مرادفاً في العهد القديم للظلم وسوء الحكم والتفسخ وظل هذا المفهوم حياً وما زال. وسرى مثل ذلك على العربي والكشف عن العورة والتباهي بالجمال ومفاتن الجسم.

وأخذ العداء القومي ضد الكنعانيين والأغيار شكل القصة الصغيرة المتعلقة بنوح وتعريه. يروي سفر التكوين أن نوحاً شرب حتى ثمل، وفي حالة سكره كشف عن عورته. ورأى ذلك ابنه حام، الجد السلف

(١) سفر التكوين، إصحاح ٩.

للكنعانيين، فهرع إلى أخويه سام ويافت ليخبرهما بما رأى ولكن سام ويافت «أخذوا الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما إستيقظ نوح من خمره علم بما فعل ابنه الصغير، فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لأخوته. وقال مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبداً لهم». وفي سفر اللاويين، نجد العهد القديم يستعمل الكشف عن عرى الجسد بمعنى الجماع فيما إستعمله حزقيال كمرادف للزنى والبغاء والإثم والتفسخ والفساد^(١). وحدث في نفس الوقت تدهور كبير في وضع المرأة مما يمكن أن يعزى من ناحية إلى تعاظم الطبقة المتوسطة التي دأبت في كل العصور والأمكنة على اعتبار المرأة سلعة ذات سعر معين في خدمة العمليات التجارية. بيد أن هذا التفسير قد يصح من ناحية واحدة كما قلنا وإلى حد معين، فما لا يصح التغاضي عنه هو أن الخوف من الجنس والأعضاء الجنسية للمرأة وشخصية المرأة بصورة عامة والعزوف عن كل ذلك من الظواهر المرتبطة بإنخفاض الليبدو (libido) (الطاقة الجنسية) والتركيبية الكآبية والمولونخولية.

تروي كتب التاريخ أن الامبراطور تايئس عرض بعد تدمير الهيكل عرضاً للحاخام يوهانان بن زكي بإعادة إسكان اليهود وإعطائهم إستقلالهم الذاتي السياسي مع إعادة بناء الهيكل، بيد أن الحاخام رفض العرض وإلتمس من الامبراطور أن يسمح لهم بدلاً من ذلك أن يقيموا لأنفسهم زاوية أشبه ما تكون بالدير ينزرون إليها من جنية ويحولونها إلى مركز للدراسة والتأمل. ومن هذا المركز، إنبثق كثير من التراث اليهودي الغني. وسواء أكانت الرواية حقيقية أو لا، فإن وجودها يعكس حالة جديدة بالملاحظة. لم يعد لليهود رغبة لإعادة بناء كيانهم والتعامل مع الغير والسهر على أمور الدنيا. إنها حالة الانزواء والانطواء على النفس التي بدأت تلون مجتمعهم

(١)، سفر اللاويين، إصحاح ١٨٦ وسفر حزقيال ١٦/٣٦ - ٣٨ و ٢٣/١٠، ١٨، ٢٩.

وتفكيرهم منذ الأيام الأولى من السبي . ورغم النبوات والتطلعات المتعلقة بإعادة بناء الهيكل وإحياء مجد إسرائيل ، فإن القيادة الروحية ظلت تؤثر العزلة وعدم الاكتراث حتى بالدولة الجديدة للمعبد الثاني التي أنشأها لهم الفرس . وراحوا في تأملاتهم الصوفية يعدون الأيام توقعاً لسقوط الهيكل الجديد ، وحكومته التي إعتبروها فاسدة وغير جديرة . وإنهمك رجال الدين أثناء ذلك في محاربة الزواج المختلط الذي بدأ بالشيوع ، وإستعمال اللغات الأجنبية وإقتباس عادات الغير^(١) ، كما فعل الصهاينة في العصر الحديث . وإنقطع الاتصال والحوار مع العالم الخارجي وراحت الديانة اليهودية تحيط نفسها بستار من السرية أو ما يشبه السرية وأصبح هذا المنحى من الصفات المميزة للقبلانية الصوفية التي تبرعت بصورة كبيرة خلال القرون الوسطى ، أصبحت الأمور اليهودية ، كما قال سيغموند فرويد ، أموراً «تحدث عنها فيما بيننا فقط» . وبعبارة أخرى أصبحت هذه الأمور أسراراً عزيزة من النوع الذي يحيطه الإنسان بالكتمان والكبت في حتى بين جدران العيادة النفسية^(٢) .

لقد فقد بنو إسرائيل الرغبة في إجراء أي حوار مع الشعوب الأخرى والديانات الأخرى وعندما واجه أحدهم الظروف الداعية لمثل هذا الحوار ، أبدى المقاومة النمطية في التعبير عن هواجسه وإحداث قصته وإكتفى بالمجاملة والأدب . وفي هذا الوضع صرف جل أفكاره على المستوى اليومي العملي إلى كسب المال وتوفيره (الذي يعطينا في الواقع تعبيراً آخر عن ظاهرة الشفهية orality والإبتلاعية ، وعلى المستوى الفكري إلى الانغماس بالنفس والذاتية مما أخذ صور الغيبية والصوفية ولغزيات القبلة والنبوءات الحاملة والمحاججات التلمودية اللامتناهية .

(١) نحemia ، ٢٣/١٣ - ٢٤ وملاخي ١١/٢ - ١٢ .

Bakan, D., Freud and the Jewish Mytical Tradition, New York, 1958, (٢) p.311.

وبعد إنسداد الأنا ego أمام شتى المؤثرات والمحركات الخارجية، غير المرتبطة بموضوع الصدمة، (وهو أسلوب وقائي معروف يرمي إلى حماية الذات من أي مهيجات جديدة إضافية)، تحول العالم الموضوعي الخارجي وراء أسوار الغيتو ghetto إلى عالم ميت أو عالم شيطاني مخيف، أدار اليهود ظهورهم إليه وإلى كل فلسفاته وفنونه وآدابه وحضارته، بقدر ما كان ذلك ممكناً. أما اليهود الذين توجهوا إلى العالم الخارجي وساهموا في نشاطه الفكري مثل سبنوزا ومندلسن وغيرهم من أعلام الفكر الحديث، فكانوا بوجه عام ممن آثروا الاندماج ونسف تقاليد الغيتو وإستطاعوا في طريق هذا الاتجاه أن يفتحوا أبواب الأنا المغلق. ومن البين أن الانطوائية المغلقة التي أشرنا إليها أصبحت عنصراً من العناصر التي ساهمت في مد معاداة السامية وإثارة الشكوك والمخاوف في نفوس الأغيار من ناحية وغدت من ناحية أخرى أسس الازدواجية والمخاتلة التي تميزت بها الدبلوماسية الصهيونية في هذا العصر. وبينما راح الساسة والمعلقون الغربيون يتساءلون في حيرة عما قصده الصهاينة في هذا التصريح أو ذاك وفي براجمهم المختلفة والمتناقضة أحياناً، راح الناطقون الصهاينة فيما بعد وبشيء من إبتسامة ساخرة يلوحون قائلين، «نحن...» كنا نعرف ما نقصده في قولنا «الوطن القومي اليهودي» و«جزء من فلسطين...» وإسرائيل التاريخية والحكم الذاتي ونحو ذلك...»

وسوية مع ظاهرة الانزواء والانسحاب، أصبحت السلفية والمحافظة من الأعراض التي عبرت عن الميل الملائخولي للعودة إلى الرحم والطفولة. وبينما أقيمت إمبراطوريات وإنمحت إمبراطوريات، وإكتشفت قارات ونزحت قوميات، ظل الحاخامون وفقهاء التلموذ يدرسون ويكتبون كما لو لم يحدث أي شيء في العالم منذ إنبهار المملكة اليهودية. عندما أشرف الحاخام يهودا الأول، المسؤول عن جمع شرائع المشنا، على الموت، أوصى عائلته بأن تترك مائدة الأكل كما كانت مجهزة وتحافظ على الفراش مفروشاً كما كان وتبقى

المصباح منيراً كعهده به (١). وتقييد التفكير، وإنحصر بالتأمل في الماضي ودراسته مرة بعد مرة، وإطالة النظر في نصوص الأقدمين وما خلفوه لهم من معضلات وألغاز ذهنية. وكان من الأفكار الرئيسية التي ردها توينبي في دراسته للتاريخ أن التحجر أصبح الميزة الاعتيادية لحياة يهود الشتات.

في عام ١٨٩٥، تعرض أحاد هاعام في «شريعة القلب» إلى الحياة «الغير إعتيادية» التي عاشها اليهود عجزهم عن الاستجابة لما يجري حولهم وإستسلامهم المطلق العبودي إلى أوامر حاخاميههم، وخضوع الحاخامين بدورهم إلى كل ما جاء في التلموذ. وفي مناقشته هذه، دعى أبناء قومه إلى «التخلص من السبات وإستعادة الاتصال بوقائع الحياة»، والسعي لتطبيع وجودهم. وما له فحواه ويجدر الانتباه له أن أحاد هاعام كان بحد ذاته غير مدرك لوقائع العصر الحديث وما توصلت إليه جموع الإنسانية عبر القرون الخوالي. وبدلاً من الرجوع الحاخامي إلى أيام التلموذ وعصر ما بعد السبي، تطلع أحاد هاعام إلى الرجوع باليهود إلى أيام القبائل العبرية القديمة وعصور سفر التكوين. «الهروب من الواقع escapism أصبح ميزة من مميزات القومية اليهودية التي أشارت إليها اللجنة الملكية البريطانية في تقريرها المعروف بتقرير بيل (١٩٣٧) (٢).

وكما يمكن إعتبار هذه السلفية صورة من صور النزعة للرجوع إلى الرحم التي إعتبرها الدكتور يونغ من مظاهر الملائخوليا، يمكن النظر إلى روح المحافظة كتعبير من تعابير عقدة أوديب من حيث الرغبة في محاكاة الأب الفقيد.

بالطبع ليست المحافظة ولا السلفية صفتين محصورتين باليهودية، فكافة الأديان تتمسك بمثل هذا الاتجاه، بيد أن اليهودية تمسكت بهما بشكل عجيب فطوال ما يزيد على الألفين والنصف من السنين، لم تظهر فيها حركة

(١) أنظر التلموذ، كتوبات.

(٢)، ورقة أمر رقم ٥٤٧٩ لعام ١٩٣٧.

إصلاحية أو تتفرع منها مذاهب مختلفة أو تتطور بشكل جذري . وطوال هذه الأجيال العديدة، ظلت شخصية الأب في شخصية الحاخام تتحكم في كل صغيرة وكبيرة بينما ركع الجمهور أمامها في خشوع وإستسلام مطلق .

وقد سلك يهود ما بعد السبي سلوك الاستسلام والقنوط ليس نحو زعمائهم الدينيين وحسب، بل كذلك نحو الحكام الأغيار والعالم الخارجي بصورة عامة . وقد عكسوا بهذا أعراض الشعور بالضعف والاعتماد على الغير مما ظهر في كثير من الأحيان بصورة الحب المفرط والتوله بمن أظهر الحنان والشفقة نحوهم . ولم يلبث هذا الحب أن تحول إلى نقمة عارمة عند أول لحظة شعروا فيها بأقل تحول أو صددود عنهم . وعانى الحكام البريطانيون في فلسطين في عهد الانتداب الويل من كلا الموقفين ورووا ذلك في مناسبات وقصص عديدة (١) . ويعطي موقف المنظمة الصهيونية تجاه بريطانيا بالذات مثلاً بارزاً لهذا التحول المتطرف السريع بين إعجاب متحمس لديمقراطيتها وإنسانيتها وحبها لليهود في العشرينات وسخط كامل على نازيتها وفاشيتها وتمييزها العنصري ومعاداتها للسامية في الثلاثينات والأربعينات . وبأقل جزر في الحب والعطف، عادت صورة الكآبة للتجسم حتى اضطرت غولدا مثير إلى مناشدة الاسرائيليين بعد فتوحات ١٩٦٧ إلى ضبط أعصابهم أمام موجة النقد العالمي .

وأثارت روح الاستسلام والخضوع القديمة، روح الذلة والمسكنة، إشمئزاز القوميين اليهود في العصر الحديث ولا سيما تجاه المجازر والاعتداءات التي مثلت ضد اليهود في روسيا القيصرية وألمانيا النازية . وسوية مع هذه الروح الاستسلامية، سارت روح الكفاءة العالية والنشاط الألماني manic الذي نتج عنه ذلك النجاح التجاري في كل العصور والتفوق الذي أبدته إسرائيل في هذا العصر . ولإدراك فحوى ذلك نورد ما كتبه الدكتور فنيشيل : «يبدو الشخص الكتيب في حالة إستسلام مطبق كلياً ومع ذلك كثيراً ما نراه في

(١) أنظر Sykes, C., Cross Roads to Israel, London, 1965

الواقع ينجح تماماً في التحكم بمحيطه برمته»^(١). ومع إقرارنا بدور الاضطهاد المستمر الذي تعرض إليه اليهود، في خلق عقدة الاضطهاد persecution mania فيهم، فمن المرجح أن لهذه العقدة أيضاً جذورها في التوجه الاضطهادي الذي يرتبط بالخوف من العقاب الناتج بدوره من عقدة الإثم. وفي مسعاهم العسير لتحديد ما يعطي الشعب اليهودي كيانه كشعب، قبل الصهانية بفكرة الخوف من كره العالم الخارجي وعدائه لهم بمثابة القوة الرابطة للشعب. وبهذا المعنى أفاد هرتزل أمام اللجنة الملكية البريطانية في وصفه للشعب اليهودي. وبقيت معاداة السامية من القوى السياسية التي عول عليها الصهانية في حركتهم وإعترفوا بفائدتها لهم.

بصيص الأمل

من الظواهر الشائعة في أحوال الكآبة الانشغال بالمصير الإنساني الذي يتناقض ظاهرياً مع الميل إلى الانزواء والانسحاب. ويأخذ في الأخير صفة الرسالة التبشيرية missianism هذا هو ما أعطى كثيراً من الكآبيين تلك المكانة البارزة في تاريخ تقدم الإنسان وتحمره ولهم ندين جميعاً بالكثير من المنجزات التي وصلتنا في شتى الميادين. ويرجع الفضل إلى بني إسرائيل في إعطاء الدين الأفق الواسع المتطلع إلى العالم أجمع. وطبعت الرسالة التبشيرية قطاعات كبيرة من المدرسة اليهودية بطابعها وأخرجت شخصيات لامعة في تاريخ نضال الإنسان من أجل عالم أفضل. وقد ذهب موني كيرل إلى أن الخوف من العقاب يعطي وضعاً من الشعور بالاضطهاد يؤدي بصاحبه إلى معالجته بالسلطوية بينما يؤدي الخوف من إحداث الأذى وضعاً كآبياً يعالج بالتعويض عن طريق الخدمة الإنسانية، ويتوالى كلا الوضعين بصورة متناوبة في دائرة مغلقة مستمرة.

وهكذا تطورت فكرة خلاص العالم عن طريق خلاص إسرائيل

Fenichel, O., The Psychoanalytic Theory of Neurosis, London, 1955, (١) p.392.

وأصبحت الحجر الأساسي للنبوءات. ورغم أن هذا الاتجاه قد إستقطب بصورة خاصة في العصر الحديث المدرسة الإصلاحية اليهودية، فإن الصهاينة أنفسهم لم يشقوا كلياً عن هذا الجانب من التقاليد اليهودية. بيد أنه بينما تصور الإصلاحيون الخلاص في إطار شتات اليهود وإنتشارهم بين الأمم كحملة لنبراس الخير والصلاح، تصور القوميون اليهود هذا الخلاص العالمي بالاتجاه المعاكس، بتجمع اليهود في نقطة واحدة يتألق منها النور إلى بقية زوايا العالم. هكذا على الأقل ادعى موسى هس في كتابه «روما وأورشليم» بأن خروج اليهود من أوروبا سيحررها من عوائقهم الأخلاقي، ولكن إعادة تجميعهم في فلسطين سيخلق القاعدة التي تعلم الغرب دروساً في الحياة. وكثمن لهذه المهمة أو الرسالة الإنسانية نصح مارتن بوير أبناء دينه بإحتضان العذاب والمعاناة كجزء مهم من عملية رجوعهم إلى فلسطين^(١). ولربما يمكن في إطار ذلك تفسير الاستعداد الذي أبداه رواد الاستيطان الصهيوني، في فلسطين وتحملهم كل المصاعب والأمراض والتضحيات في سبيل برنامجهم.

ومن الناحية الأخرى، إنغمز الكهنوت الأول في هذا النوع من الأحلام وأحلام اليقظة التي تتميز بها هذه الحالة. وفي أحد هذه الأحلام، ظهر الرب وإقتاد حزقيال إلى واد مليء بعظام يابسة كلياً، وإذ نظر إليها تحركت العظام وراحت تتجمع مع بعضها البعض بأمر الرب، عظماً إلى عظم، ثم إكتست العظام باللحم وإكتسى اللحم بالبشرة، وهبت الريح فنفخت فيها الحياة وتحول كل شيء إلى جيش عارم حي. «وستعرف بأنني أنا السيد، عندما أفتح قبوركم، أنتم يا أمتي، وأخرجكم من لحكمكم»^(٢). وينتهي سفر حزقيال بحلم طويل مسهب يصور المعبد الجديد بشتى مقاييسه وعرض أبوابه وطول وإرتفاع جدرانه ومساحة قاعاته وبكل التفاصيل التي لا نجدها إلا في

Buber, M., Israel and Palestine, London, 1952.

(١)

(٢) حزقيال، إصحاح ٣٧.

خرائط المهندسين النهائية. في رواق المدخل توجد طاولتان على كل جانب مصنوعتان من الحجر المنحوت. بطول ذراع ونصف وعرض ذراع ونصف وإرتفاع ذراع واحد. وفي المعبد يلبس الكهان قبعات قطنية على رؤوسهم ولباس قطني حول وسطهم، وهلمجراً... .

ولم تكن هذه الأخيذة الفتنازية fantasia المدونة بمثل هذه التفاصيل المسترسلة محصورة بالغيبين من رجال التوراة فقط بل وجدنا هرتزل يغرف بقسط أكبر من هذا العالم الخيالي. كتب قائلاً، «ستكون عاصمتنا، كنزنا الثمين، في موقع تحيط به الجبال (وعليها قلاع فوق قممها) وعلى شاطئ نهر جميل مع قلاع أخرى على الجوانب»^(١). وفي اليوم التالي من مذكراته عالج موضوع الجارى: «أود أن تبلط المدن ببلاطات من الخشب. وسنبني شوارعنا بنحو مختلف... . سنجعلها محوفة في البداية ثم غد فيها المواسير والأسلاك وكل شيء في القعر. وبهذه الطريقة سنوفر على أنفسنا مشقة حفرها ثانية لهذا الغرض»^(٢) ومما يلفت النظر أن عملية الانتحار قد أرعبته، ولمعاقبة كل من يقدم على الانتحار قرر الحكم عليه بعقوبة عدم نشر رسائله وكتابات بعد موته! وبالإضافة إلى هرتزل، كتب كثير من المفكرين والأدباء الصهاينة القصص والقصائد والمقالات الحاملة لوصف دولة اليهود المستقبلية حتى أصبح وصف «الحالمون» من الأوصاف الرائجة في وصف القوميين اليهود.

ومرة أخرى نجد فكرة الخلود تغطي في هذه الكتابات وأضغاث الأحلام حتى أصبحت موضوعاً لوعد جديد من الرب يسبغ فيه الحياة الأبدية على الشعب اليهودي فوق أرض وطنهم الأبدي. ونلاحظ الرمزيات المقفمة بنسمات الخلود تسبح في هذه الأحلام. ومن ذلك وحسب كلمات حزقيال، سيقوم الرب في يوم رجوع بني إسرائيل إلى أرض ميراثهم بصب ماء نقي عليهم وينظفهم من كل قذارتهم. وبينما راح حزقيال يقيس أبعاد المعبد

(١) اليوميات الكاملة لتيودور هرتزل، ج ١، ٢٣ حزيران ١٨٩٥.

(٢) نفس المصدر، ٢٤ حزيران ١٨٩٥.

الجديد، إقتضى عليه أن يخوض سيلاً من الماء المتدفق من كافة جوانب الهيكل حتى وصل الماء الكعبيين ثم الركبتين، فالخوض وظل يرتفع حتى إضطر حزقيال إلى السباحة. «تدفق المياه نحو البلاد الشرقية ثم تنحدر في الصحراء وتصل إلى البحر... وهناك ستملأ البحر أعداد ضخمة جداً من الأسماك... وستنمو أشجار للأكل لا تذبل أوراقها ولا تنقطع أثمارها» (١) والمعروف أن السمك والأشجار من الرموز الشائعة للخلود (٢). وفي أسطورة غلغلمش البابلية، نلتقي بشخص أتناشستيم، الإنسان المخلد، يعيش على مصب النهر وشاطئ البحر. وأعطت الأساطير الكنعانية ظروفاً مشابهة لبطل الخلود الكنعاني آدون. وكذلك نجد القرآن الكريم يضع الخضر في موضع إلتقاء البحرين، مجمع البحرين، الذي إعتقد الطبري أنه في مكان إلتقاء المحيط الفارسي ببحر الروم (٣).

وترددت أصدااء تلك التطلعات في الأدب اليهودي ومن ذلك ما كتبه الشاعر الصهيوني بياليك في ١٨٩٨ :

حزمات قليلة من القش، أشباح، من الكثير الضائع،
بعض اليهود الذابليين بوجوه متييسة ذاوية،
يهود المنفى ممن نأوا بعبئهم،
وتناسوا المهم في صفحات التلموذ المتهرية،
وشقائهم في أقاصيص المدراس عن الأيام الغابرة،
وغنوا أساهم في مزامير الحمد.
(أواه يا نفسي، كم يبدو كل شيء تافهاً وعقياً
في نظر الغريب، الغافل عن التمييز)
وعندئذ سينبتك القلب كيف ستقف قدماك،



- (١) حزقيال، إصحاح ٤٧.
(٢) أنظر يونغ، أصل البطل، الأعمال الكاملة، ج ٥، ص ١٩٨.
(٣) سورة الكهف، ٥٩ - ٨١، وتفسير الطبري، ج ١٥، ص ١٦٣.

من الأعراض والنتائج الغربية لميكانيكية الصدمة النفسية، ظهور الرغبة الجامحة لإعادة التجربة والمروء عبر كل تشنجاتها وملابساتها. وبفعل هذا النزوع وكل تلك الأحلام والتأملات وفتنات الأمل، تملك المجموعة نزوعاً عجيباً للعودة إلى فلسطين. وكثيراً ما تعذر على الأغيار تصور القوة التي تكمن وراء هذا الزخم، كما هو الحال بالنسبة لكافة القوى الذهانية التي يجيرنا شأنها. والواقع أن الأغيار لم يكونوا وحيدين في هذا بل شاركهم فيه أيضاً كثير من اليهود أنفسهم. وفي العصر الحديث عرّضت على اليهود مناطق مختلفة في الأرجنتين وأفريقيا الشرقية وقبرص وبسربيا (في الاتحاد السوفياتي)، وفشلت جميعاً في إستشارة اليهود للهجرة إليها. وعندما قبل هرتزل بالمشروع البريطاني لإقامة وطن قومي يهودي في أوغندا، كاد قبوله يمزق الحركة الصهيونية برمته. ويصف المؤرخون مشاهد الأسى والهلع بل والبكاء بين يهود أوروبا الشرقية عندما قرر المؤتمر الصهيوني قبول الاقتراح في ١٩٠٣ بإيعاز من هرتزل. وسرعان ما نقض القرار في المؤتمر التالي في ١٩٠٥ عندما تقرر تكريس الجهود كلياً نحو فلسطين.

وعلى مر الأجيال عبر اليهود عن هذا التعلق بحصيد من الأقوال والأمثال والسنن والتقاليد. ومن ذلك الكلمة التي طالما إستشهد بها الصهاينة «في أورشليم في العام القادم». كدعاء ونخب يقال في إحتفالات عيد الفصح ونهاية عيد الكفارة. ويقدم اليهود صلوات خاصة حيثما كانوا في العالم يدعون فيها لسقوط المطر وكثرة الحاصل الموسمي في فلسطين، «التي يجعل هواؤها الإنسان حكيماً»، كما يقول أحد الأمثال الدينية. ومن الأقوال الحاخامية الأخرى «أن الخبز في أرض إسرائيل له من جودة الطعم ما يجمع كل النكهات الطيبة لكل ما على الأرض من طعام». وعبر القرون الطويلة، ظلت الحسابات الفلكية للسنة القمرية المعمول بها في عموم الشتات تحسب من زاوية فلسطين. ويلعب كل ذلك دوره في تفاصيل الحياة اليومية لليهود

بما في ذلك الزواج والأحكام الشرعية... الخ. ويختتم الوعاظ أوالخاخامون خطبهم بالكلمة التقليدية الأخرى، «اللهم إبعث بالمخلص إلى صهيون». ومن المعتاد لهذه الخطب والمواظ أن تتضمن إستطرادات مختلفة عن فضل فلسطين وحسن ما فيها وسابق مجدها اليهودي... الخ.

عبر تاريخ الشتات، بلغ حماس بعض اليهود في تعلقهم بالأرض المقدسة وتأثرهم بالضغوط النفسية المرتبطة بها إن شددوا أمتعتهم وجمعوا عوائلهم ورحلوا إلى القدس للعيش قرب مخلفات الماضي والمسرح الذي مثلت عليه تراجيديات المصير القومي والإلهي. وهناك إنصرفوا كلياً إلى إمعان التأمل في تلك الفصول بدراسة العهد القديم والتلموذ، والموت أخيراً والدفن في نفس التربة، لتحقيق تلك الأمنية التي باركت فيها التعاليم الدينية: قبر في الأرض المقدسة. ومن قبور هذه الأرض، قال الخاخامون، سينهض الأموات في يوم الحشر، كالعشب عندما ينحصب، بينما يضطر الأموات المدفونون خارج فلسطين إلى الزحف على بطونهم عبر فجوات الأرض ليصلوا إلى الديار المقدسة. ومن بين أولئك الذين إستجابوا لهذا الدافع كان الشاعر الأندلسي يهودا حلو الذي ظل ذلك الحلم يراود عينيه حتى حزم متاعه وركب البحر إلى ثغور فلسطين ليعيش ويموت فيها:

آه، من يعطيني أجنحة،
عسى أن أحلق بها بعيداً،
وهناك مستريحاً من كل تشردي
أضع حطام قلبي بين حطامك (١).

وحتى يتم تحقيق هذا الحلم، قضى على اليهود أن يعيشوا عيشة التشرد، أو الحياة التي أعطيت القالب المعادي للسامية في قصة «اليهودي التائه» الذي قضى عليه أن يُعيا حياة متشردة حتى يظهر المسيح ثانية على

(١) النص مترجم من الانكليزية.

الأرض لإساءته إلى السيد المسيح في طريقه إلى الصלב. ومن القصص المشابهة الأخرى ما روى من أن أسقف مدينة شلزيغ إلتقى بالفعل في ١٥٤٢ برجل إسمه أهاسورس إعترف له بأنه هو ذلك اليهودي التائه. وسرعان ما أصبح أهاسورس رمز يهود الشتات يحملون رحالهم من بلد إلى بلد. وما يستدعى النظر أن التشرد، كما لاحظ الدكتور يونغ، من الصفات المرتبطة إرتباطاً وثيقاً بالخلود^(١). كذلك كان مصير جميع الرجال الذين سعوا إلى تحقيق الخلود على الأرض كالاسكندر والخضر وغلغامش. وفي الأسطورة اليونانية، يتعذر على البطل يوليسيس أن يموت طالما إستمر في تشرده الأليم.

ومن هذه الزاوية ستكون من مفارقات الحركة الصهيونية العديدة، أن هذه الحركة ربما ستحقق في فلسطين - في حالة تحقيق كامل برنامجها - لا إستمرارية الوجود اليهودي كما إدعت، بل زوال هذا الوجود بإنهاء حالة التشرد. وبالفعل كتب كثير من اليهود المناهضين للصهيونية أن إسرائيل لا تمثل اليهودية روحياً ولا عملياً وأن الديانة الموسوية والحياة اليهودية أكثر تطبيقاً ووجوداً خارج إسرائيل منها داخل إسرائيل. وربما كان ما حققته الصهيونية هو خلق شعب جديد وليس إدامة شعب عريق. وكان مما ورد في هذا السياق التنظير الذي قدمه أكيفا أور في كتابه «الدولة غير اليهودية»^(٢).

من المتصور أن توجه إعتراضات عديدة ضد الأطروحة المطروحة أعلاه، ولا سيما بالنسبة لموضوع الانتقال من جيل إلى جيل. ويتعذر على علماء البايولوجيا أن يتقبلوا فكرة فرويد بالانتقال الوراثي للصفات الذهنية المكتسبة على النحو الذي أورده في بحثه الطوطم والتابو. وبدون أن يكلف نفسه مشقة معالجة مثل هذه العقبات العسيرة، مضى إلى الرد على الاعتراض بمجرد القول أن للبايولوجيين علمهم الخاص بهم وللمحللين النفسيين

(١) يونغ ص ١٩٣.

(٢) أنظر Orr, A., The Un-Jewish State, London, 1983

علمهم. وعند معالجته للمسألة اليهودية والديانة اليهودية بعد إرتقاء هتلر الحكم في ألمانيا، عاد إلى نظريته القديمة بشأن إنتقال الشعور بالإثم في بحثه «موسى والتوحيد». فطابق بين التطور الفردي الشخصي للذهان والتطور الاجتماعي للمجموعة. وقد توسع يونغ بهذه الفكرة ومضى فطورها إلى نظرية «اللاشعور الجماعي» التي أصبحت حجر الزاوية في تنظيره في ميادين التاريخ والاجتماع. وعلى كل فقد أصبح أكثر العلماء اليوم يأخذون بفكرة سلوك المجموعة سلوكاً مشابهاً لسلوك الفرد. وليس من الصعب لنا أن نفهم جريان الانتقال، وعلى الأخص في حدود هذا الموضوع الذي لا يتجاوز تاريخه نحو ثلاثة آلاف سنة، ضمن عملية التطور الفكري والنفسي العام للمجموعة. ما يهمنا الآن بالنسبة لهذا التحليل للصهيونية هو أن نسجل الوقائع والظواهر التاريخية كما رأيناها أمامنا. قد نختلف بشأن فكرة الصدمة النفسية الأولية أو نرفض كلياً مفعولها، بيد أن رفض التحليل والسببية لا يغير كثيراً من الموقف أو يزيل الظواهر القائمة من الوجود.

إن عقدة الإثم الكامنة وراء ظواهر هذا التاريخ تعبر عن نفسها تعبيراً مباشراً لا فقط على السنة كهان وقادة الديانة اليهودية القريبين من وقت الأزمة الأولية، بل أيضاً على السنة أحفادهم (بالمفهوم الفكري) عبر الأجيال وعلى جانبي النزاع المستمر حول الاندماج والذوبان. وهكذا أصبح كره الذات وإحتقار الذات من مظاهر الحياة اليهودية. هكذا قال الشاعر اليهودي الألماني أن اليهودية كانت نكبة وليس ديانة. ودأب زملاؤه من دعاة الاندماج على بذل كل شيء من أجل التخلص من كل شيء ينم عن يهوديتهم. وهكذا غيروا أسماءهم وانتقلوا إلى الأحياء المسيحية وقلدوا الأغيار في هواياتهم ومهنهم، بل وعمد بعضهم أولاده. وقد شعر هؤلاء بالخزي والخجل عند أية إشارة إلى معتقداتهم وأصلهم.

وعلى الجانب الآخر، نجد حتى الصهاينة الذين تمسكوا بالذهنية التقليدية النمطية عموماً قد كشفوا في كثير من الأحيان وبصورة فصيحة عن

شعورهم بالخزي كلما إجتاحتهم الموجة الكآبية. وقبلوا في أكثر المواقف التهم التي وجهها المعادون للسامية ضد اليهود وضد الشرور الاجتماعية التي ينشرونها في البلاد. والفرق الوحيد هو أن الصهاينة ظلوا يعدون بإختفاء هذه الشرور ومعالجتها بعد عودة اليهود إلى فلسطين. وهكذا كتب الاشتراكي نحمان سكرين فقال «كان اليهود تاريخياً الشعب الذي تسبب بالانشقاقات والخلافات»، ولكنهم سيصبحون في فلسطين، «أعظم الشعوب ثورية»، كما قال^(١). أما بر بروخوف، مؤسس حركة بولي صهيون الاشتراكية، فقال موافقاً على أن اليهود كانوا بصورة أساسية «عناصر متفسخة» من صغار التجار. ومضى قائلاً، «إنهم إجتماعياً ونفسياً غير منتظمين ويشكلون مجموعة من الغوغاء ذات نشاط يتميز أساساً بالفوضى والرجعية. وكلما سنحت لهم الفرصة ليقوموا بصورة مستقلة بحل مشكلة إجتماعية إنتهوا في الأخير، وبصورة حتمية، إلى نتائج فوضوية وغير مرغوب فيها». وعلى القوى التقدمية في أي دولة ديمقراطية أن تراقبهم بصورة دائمة خشية أن تقوم هذه العناصر بأذى لا يمكن إصلاحه»^(٢) وقد كتب نبي الحركة الصهيونية ثيودور هرتزل فانها بالشتائم على رؤوس اليهود^(٣) :

«نحن جنود سيؤون لأنه لا شرف لنا...»

«إننا لا نتمتع بالفضيلة الكاملة الكافية التي تؤهلنا للحكم الجمهوري»

«بكل تأكيد أننا نشقى بالشقاء الذي نسيبه بأنفسنا. إنه لذع العقارب، العقارب الحية التي لا يلومها أحد في أنها لم تصبح أسوداً أو غوراً أو غنماً. وبعد كل شيء فالعقارب تعاني من لذعها أكثر من غيرها».

وقد تمنع الكاتب الصهيوني ج. هـ. برينر في هذه المسألة ففحصها تحت

المجهر:

(١) الفكرة الصهيونية، ص ٧٨.

(٢) بر بروخوف، منصتنا، القومية والصراع الطبقي، نيويورك، ١٩٣٧، ص ١٨٩.

(٣) مذكرات هرتزل، ج ١، ص ص ٦٢، ٧١، ٧٢.

«حقاً أن أدبنا يعاني من الصحة المعلقة لرجل عجوز. إنها مسألة مرضية جداً. لقد تمزقت أعصابه. وأصبح محيطه في مهب الرياح. وأصبحت حياتنا بذاتها حياة مرضية. أيمن لإحتقارنا لذاتنا أن يخرج عن كونه هو أيضاً من الحالة المرضية؟» وكما فعل برينر، بحث بر بروخوف أيضاً مشكلة اليهود في مضمون المرض عندما كتب عنها في عام ١٩١٦ في صحيفة دير يديشر كامفر. وقد لاحظ أن الطبيعة المستمرة لهذا المرض قد أعيت كافة الشخصين في محاولاتهم التشخيصية العقلانية.

وإنطلاقاً من هذا الموقف، تطور مفهوم مجموعة الإثم المشترك، ما الذي يجعل اليهود يلتصقون معاً بغض النظر عن معتقداتهم وجنسياتهم ومشاعرهم وأفكارهم ولغتهم وثقافتهم وأصلهم؟ وقد باءت المحاولات للجواب على هذا السؤال بالفشل وأصبح الجواب الوحيد الممكن قبوله عموماً والسهل التناول يقوم على كلمتي «الشعور المشترك» الذي يعيدنا من حيث أتينا. وناقش سولنسكين هذه النقطة فرفض جميع الأسس الدينية والتقليدية لوحدة اليهود بما في ذلك إحترام يوم السبت والختان وسائر الطقوس الأخرى، فكتب قائلاً، «لقد قامت وحدتنا بأسلوب مختلف وبصيغ مختلفة مما ألفته بقية الشعوب الأخرى...» الشيء الوحيد الذي يربط اليهود معاً هو الشعور وليس الأرض ولا التوراة ولا اللغة العبرية. قال «أنا شعب روحي» (١).

بيد أننا نجد أن سولنسكين وزميله الاشتراكي الآخر موشي للبلوم - الذي أيد نفس الفكرة - لم يستطيعا تقصي جذور هذا الشعور. ومع ذلك فإن الشعور المشترك هذا يتجسم أمامنا بصورة جلية عندما نربطه بفكرة الذهان النفسي الذي يشكل تلك القوة الجبارة في النفسية البشرية.

وفي عام ١٩١٠، عالج أحاد هاعام موضوع الشعور المشترك المتسلط والذي لا مفك منه وربطه بعناصر الشعور بالوحدة والاضطهاد فقال،

(١) حان الوقت لنزرع، الفكرة الصهيونية، ص ص ١٤٤ - ١٤٧.

«بإمكان اليهودي أن يكون لبرالياً ممعناً في لبراليته ولكن بدون أن ينسى أن اليهودية قد ولدت في زاوية منعزلة عن العالم الكبير، الذي لم يفهمها ومن ثم كرهها»^(١). وأكد معظم المفكرين الصهاينة على رفضهم إعطاء اليهودي الحق في التخلي عن يهوديته. ورغم أن مثل هذا الموقف يعتبر موقفاً إعتيادياً، مألوفاً في عالم العنصرية التي سادت القرن التاسع عشر، فإن موسى هس، وهو المعروف بدراساته في الأنثروبولوجيا، أعطى التفسير التالي للظاهرة.

بعد أن إعترف بأنه ليس من حق اليهودي أن يقف خارج الدائرة اليهودية سواء شاء ذلك أو لم يشأ، قال: «لا يمكن التخلص من عبء اليهودية وفكه من كاهل اليهود التقدميين هؤلاء حتى يتحرر الشعب اليهودي من ذلك الحمل الذي ناء به ببطولة لآلاف السنين،... علينا جميعاً واجب حمل عبء مملكة السماء حتى النهاية»^(٢). أما سمولنسكين فقد عالج نفس المسألة بطريقة أخرى في مقالته التي سبق وأشرنا إليها. طالما بقي اليهودي ملتزماً بأمل خلاصه، فليس بإمكانه أن يعتق نفسه من إنتمائه إلى الشعب اليهودي، فإن من القواعد الأولية الأخلاقية بين جميع الخارجين عن القانون أنه لا يجوز لأي منهم بعد إقتراف العمل أن يتملص من المسؤولية نحو شركائه وتجاه الجريمة المشتركة الأصلية. وكتب حايم وايزمان إلى زوجته قائلاً: «جميع اليهود مسؤولون عن بعضهم البعض. وكلانا، أنا وأنت يا حبيبي وعزيزتي، علينا أن ندفع الثمن من أعصابنا عن خطايا الآخرين»^(٣) وكل ذلك كلام ينم عن الشعور بخطيئة أولى جماعية ومسؤولية عامة لا خلاص منها نحو ما حدث. وما أشار وايزمان إليه هو في الواقع القاعدة التلمودية التي تؤكد على المسؤولية الجماعية في عهد ما بعد الصدمة.

(١) الفكرة الصهيونية، ص ٧١.

(٢)، روما وأورشليم.

(٣) رسائل وأوراق حايم وايزمان، لندن، ١٩٦٨، السلسلة أ، ج ١، ص ٢٣٢، الرسالة بتاريخ ٩ أغسطس ١٩٠٢.

حركة الصهيونية

هذا هو المكان الذي تتجسم فيه أهمية وجدوى التنظير النفساني السالف الذكر بالنسبة لتصاعد المد الصهيوني. لقد إستغرق كثير من الكتاب الكثير من التأمل في موضوع الهيام اليهودي بفلسطين. ما الذي يجعل هذه الأرض المقدسة تعني كل ذلك بالنسبة لأناس ملحددين ولا محل للقدسية في تفكيرهم، وبالنسبة لأقوام غرباء لم يروا الشرق الأوسط في أعينهم أو تعاملوا بأي صورة مع أهله؟ ما الذي يجعل مثل هؤلاء الناس يتفانون في سعيهم وببذلون كل شيء من أجل إعادة إحياء ذلك الوطن؟ نستطيع أن نجد أجوبتنا على هذه الأسئلة من منطلق العقدة النفسية الجماعية. وعندئذ ينجلي كل ذلك الغموض المحير والمظلل وتتساقط ستائر المقولات الحماسية القومية التي كثيراً ما تشوش الرؤية أمام المراقب. ويسقطها تلوح للناظر مشكلة الصدمة الأولية التي تعرض لها الشعب. عندئذ يصبح النزوع العاطفي للرجوع إلى فلسطين مفهوماً في إطار النزعة الذهانية لإعادة تجربة الصدمة، وإطار نزوع مرتكب الجريمة للعودة إلى مسرح الجريمة، ونزوع الشبح لإرتياد موطن حياته السالفة.

وتعطينا الصهيونية الاشتراكية لبر بروخوف مثلاً جيداً لشرح النقطة التي نحن في صدددها. لقد إنضم مؤسس بولي صهيون إلى صفوف الثوريين والاشتراكيين الديمقراطيين في روسيا وإعتنق بحماس الفلسفة الماركسية، ولكنه طوال ذلك لم يغمض عينيه عن فلسطين كنهاية المطاف للخلاص اليهودي. لم ير بروخوف فلسطين قط وكانت معلوماته عنها محدودة جداً. ومن بين جميع الصهاينة، تميز بعدم الاهتمام بالنسبة للتاريخ والدين ونبوءات الأنبياء والوعد المقدس الذي أعطي لبني إسرائيل. وقاوم حتى الأيام الأخيرة من حياته إستعمال إصطلاح «أرض إسرائيل» كإسم للأرض المقدسة بدلاً من «فلسطين»، الاسم الشائع. ومع ذلك فإن ذلك القطر ظل مركزاً لإهتمامه ونضاله طيلة حياته السياسية القصيرة. وفي تفسيره لهذا الموقف

الغبيي والروحاني المناقض للروح الثورية الماركسية، توصل إلى صياغة نظرية التعميل (التحويل إلى عمال) والظروف الإنتاجية لإعطاء تفسير دايكتيكي لضرورة رجوع اليهود إلى فلسطين بدلاً من أي مكان آخر. «فلسطيننا ليست مسألة مبدأ، إذ لا علاقة لها بموضوع التقاليد القديمة. كما أن فلسطيننا ليست مجرد فكرة عملية. فنحن لا نعترف بوجود أي أقاليم أخرى نختر منها». وأطلق بروخوف على فلسفته إصطلاح «الفلسطينية النبئية» (predictive)، أو ما يعني شيئاً سبق تقريره، أو ما نسميه بالعامية «مكتوب»^(١).

أما الحقيقة فهي أن بروخوف سبق له بسنين عديدة قبل إعتناقه الماركسية وأي نظرية سياسية قد ترك بيته وأهله في العاشرة من عمره وتوجه مع رفيق له من مدينة بولتافا حالماً بالوصول إلى فلسطين. وحدث أن شاهد بعض المسافرين الصبيين في الطريق فأعادوهما إلى ذويهما. وبعد سنوات قليلة قرر إعادة الكرة بشكل أكثر نضوجاً فوفر شيئاً من النقود لهذا الغرض ولكن دون جدوى أيضاً. واستمر بروخوف حتى نهاية حياته يحاول إعطاء هذا النزوع النفسي الداخلي تفسيرات ومبررات عقلانية لمفكر ناضج.

ووجد نفس النزوع القدري العارم صوتاً آخر في ملحد آخر هو ف. جابوتنسكي، زعيم المراجعين Rivisionists وأستاذ مناحيم بيغن السياسي عندما كتب إلى أخته في ١٩٣٨ فقال لها أنه بعد سنوات «من العواصف والأهوال، ربما ضمن حياتي وحياتك، ستظهر فلسطين يهودية مكتظ بالسكان على كلتا الضفتين (من نهر الأردن). أما هل سيكون ذلك البلد مكاناً مريحاً أم لا فهو موضوع آخر»^(٢). وكان حايم وايزمان أكثر إصابة للحقيقة المباشرة عندما شرح للجنة بيل البريطانية العوامل التي دفعتهم إلى الرجوع إلى أرض الميعاد:

(١) بر بروخوف، منصتا، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٢) شختمان، ج ب، قصة جابوتنسكي، نيويورك، ١٩٦١، ص ٣٦٤.

«أعتقد أن السبب الرئيسي الذي أدى إلى ظهور هذه الحالة من الطائفة اليهودية في العالم يعود إلى تعلقها بفلسطين. إننا شعب نعتز بأنفسنا ولنا ذاكرة طويلة. إننا لا ننسى مطلقاً. وسواء أكان من سوء حظنا أو حسن حظنا، فإننا لم ننس فلسطين. ويعود هذا الارتباط القوي الذي أدام اليهود عبر العصور وعلى إمتداد تاريخ يكاد يكون سلسلة متواصلة من الشقاء البشري ويرجع بصورة أولية إلى ترابط فيزيولوجي أو سايكولوجي بفلسطين»^(١).

وقد حقق الملك الفارسي كورش في ٥٥٨ ق.م. رغبة اليهود بالرجوع إلى الأرض المقدسة، فعمد العائدون إلى إعادة بناء الهيكل ولكن عدداً قليلاً فقط من يهود بابل إستجاب للنداء. وفي ظل المملكة الجديدة، كشف الحكام والمحكومين معاً عن نزوع عجيب لإعادة الكارثة وتعريض الدولة الفتية إلى دمار مشابه. وخلال ذلك جلس رجال الدين ينتظرون موتها. وجاء بالفعل الدمار النهائي على يد الامبراطور الروماني تايئس. وبذلك تلقت الزعة النفسية لتكرار الصدمة ما يروي غليلها إلى حين من الدهر. ومع ذلك، فإن ميكانيكية عقدة الصدمة تخلق المزيد من التعطش لتكرار الصدمة بشكل إضطراب متصاعد. وفي أثناء هذه المسيرة، يتعاظم تثبيت المركب النفسي. وقد جرت في القرون الوسطى بعض المحاولات لإعادة بعث المملكة، ومن أشهر هذه المحاولات، كما ذكرنا، ما قام به الدجال شباطي زفاي الذي إدعى لنفسه النبوة وراح يجمع اليهود في أوروبا والشرق للعودة إلى فلسطين، وجمع أموالاً بليغة وأثار توقعات غزيرة بين الموسويين حتى إكتشف زيفه وزج به في السجن، ثم تحلى عن اليهودية ودخل الإسلام... الخ وكانت قصته صدمة أخرى للطائفة اليهودية.

وأصبحت الحركة الصهيونية الحديثة أقوى حركة يهودية جسمت ذلك النزوع وانتقلت إلى المستوى العملي، نتيجة تظافر عدة عوامل سنأتي على

(١)، بيان حاييم وايزمان للجنة الملكية لفلسطين، تشرين الثاني، ١٩٣٦.

معالجتها في الفصول التالية. ويبدو لنا من سلوك الحركة وتعاملها مع العرب والمجموعة الدولية وأسلوب إقامتها لإسرائيل وتوسعاتها وإستفزازاتها، أن وراء حماسها المحموم العزم النفسي والمشدود بعقدة الصدمة التاريخية والمرتبطة بتدمير النفس، أو بعبارة أخرى النزعة الانتحارية. أما الأحلام الروحية لإقامة دولة يهودية عادلة تعطي القدوة للدول والأمم الأخرى في إقامة صرح العدالة الربانية والخير لجميع الإنسانية، فقد تبخرت وأثبتت أنها مجرد خيالات. بينما يدهش يهود الشتات العالم بمنجزاتهم العلمية والفنية والأدبية، لم يبرز يهود إسرائيل بغير شأفتهم العسكرية وبطشهم الحربي. وهكذا يصاب اليهود الزائرون لإسرائيل بصدمة مرة عندما يفتشون عن القيم الروحية اليهودية فيها. وعبر كثير من المفكرين والمراقبين عن إنطباعهم بأن اليهودية الحقيقية توجد في الشتات وليس في إسرائيل.

والمعروف تاريخياً أن أخطار الدمار المحيطة بإقامة الوطن القومي اليهودي كانت وظلت متجسمة أمام اليهود والصهاينة والأغيار جميعاً منذ بداية الحركة. وكم حذر زعماء الطائفة من هذا الاحتمال، ولكن قادة الحركة ظلوا يؤكدون بأن كل شيء سيصبح سهلاً ومضموناً بمجرد الحصول على وعد من السلطان. وبعد فشلهم في الحصول على هذا الوعد إنصرفت إجتهداتهم إلى أن كل شيء سيصبح رائعاً ورائعاً بمجرد طرد السلطان من فلسطين وحلول دولة أوروبية صديقة محله. وبعد أن تم ذلك وأصبحت بريطانيا مسؤولة عن البلاد، توجهت أفكارهم إلى أن بريطانيا هي العقبة أمام إقامة صرح الوطن القومي، وإنفجر الصراع بين الطرفين. ولم تنجل الأخطار والعقبات بعد حصولهم على الاستقلال فراحوا يطمثون أتباعهم بأن الأمور ستستقر ويصفو مسيل الماء بالتغلب على المقاومة العربية. بيد أن المشاكل إستمرت وظل المصير الاسرائيلي موضع سؤال. وبدلاً من أن تحقق لها إنتصاراتها على العرب ضماناً لمستقبلها فإنها ضاعفت مشاكلها.

وكما هو المعتاد في مثل هذه المواقف، لا يشعر صاحب العلة بعلته وإنما

يلقي بتبعات مشكلته على من حوله . وهكذا وجهت التهمة إلى الأتراك أولاً ثم الفرنسيين والانكليز، وأخيراً العرب والدول الشيوعية . وكلما وجدوا معارضة لهم أو مشكلة تحقيق بهم تعالت صرختهم بمعاداة السامية . أما هم بذاتهم فلا مجال للعب فيهم . وهكذا قال بن غوريون عند إندلاع فضيحة لافون فأكد على أن دولة إسرائيل لا تقترب خطأ . وإذا كان هناك خطأ فالآخرون هم المسؤولون عنه . ومن أبلغ الكلمات في هذا الصدد ما قاله هرتزل في كلمته إلى المؤتمر الصهيوني الأول، «لقد أخفق العالم دائماً في فهمنا فهماً صحيحاً...» .

قد أصبح من الشائع الآن أن كل مشكلة إسرائيل والحركة الصهيونية ترجع إلى مقاومة العرب ومعارضتهم، بل ومعاداتهم لليهود، كما يحاول الصهاينة أن يؤكدوا . بيد أن إستعراض العلاقات العربية مع اليهود والصهيونية نفسها تنفي كثيراً من هذه المقولة . فعندما بدأت الحركة الصهيونية بالتوغل في المنطقة، لم تكن هناك مشاكل تذكر بين العرب واليهود، وما كان لم يزد في شيء على المشاكل الطائفية الموجودة بين كل الطوائف في مجتمعها المتأخر الخارج من القرون الوسطى . بيد أن مؤرخ هذه الفترة، ن . مانديل، تحدى ذلك وأكد على أن العرب قاوموا المستوطنين اليهود الجدد ودعوا إلى الوقوف ضدهم، وظهرت مشاكل بين الطرفين نتيجة ذلك في السنين السابقة للحرب العظمى (١) . ولدى التمهيد في وثائق هذه الفترة يتبين أن تحريض العرب ضد الهجرة اليهودية كما جرى مثلاً في المناقشة البرلمانية في البرلمان التركي في ١٩١١ حدث بعد البيان الصهيوني لهرتزل (١٨٩٧) وبزوغ ما سمي بحركة الصهيونية العملية (١٩٠٨) التي أخذت على عاتقها إستعمار فلسطين تدريجياً وعبر مراحل عملية . وينبغي النظر إلى الهجمات الفردية من العرب ضمن حياة الفوضى الأمنية التي طغت

(١) ن ، مانويل، الأتراك والعرب والهجرة اليهودية إلى فلسطين، أوراق سان أنطوني، رقم ١٧، أكسفورد، ١٩٦٥ .

في كل مكان وبين كل المجموعات الخاضعة للحكم العثماني الفوضوي . ومن المؤكد أن البدو هاجموا قرى عربية، مسلمة ومسيحية، أكثر مما هاجموا المستوطنات اليهودية . ومن المحتمل أيضاً أن الناطقين العرب تحدثوا في صالح الاستيطان اليهودي بقدر ما تحدثوا ضده . وحتى أواسط العقد الرابع من القرن العشرين، سمحت الحكومتان العراقية والمصرية بالنشاط الصهيوني في بلديهما . وهناك من الوثائق ما يشير إلى تعاون القوى الوطنية في مصر - بما في ذلك حزب الوفد - مع العناصر الصهيونية . ولعل أشهر وثيقة في هذا الميدان الاتفاقية التي تمت بين فيصل بن الحسين وحاييم وايزمان التي أعطت اليهود في الواقع أكثر مما أعطاهم وعد بلفور^(١) .

وعلى مستوى الحياة العملية اليومية، عمل كثير من الفلسطينيين في خدمة اليهود وباع آخرون أراضيهم لهم، بل وقام نفر منهم بتهريب الأسلحة للصهاينة . بالطبع لم يكن العرب مستعدين لتقبل حكومة يهودية فوقهم، ولكن إستعدادهم لمقاومة ذلك كان في الواقع دون المستوى المطلوب في المراحل الأولى من الصراع . والواقع أن الصهاينة أنفسهم كانوا يرددون في عدة مناسبات القول بأن الاعتراض على الوطن القومي اليهودي كان محصوراً بفترة قليلة من الأفندية . وعليه فيمكننا أن نقول أن تصاعد المقاومة العربية ضد البرنامج الصهيوني لم يكن في الواقع مجرد إمتداد للحركة القومية أو العربية أو الوطنية الفلسطينية، وإنما لعب في تأجيج هذه الروح ما قام به الصهاينة من إستفزازات وتصرفات . ~~لن~~ نرجو ألا نبالغ إذا قلنا أن نغو الوطنية الفلسطينية هو من المنجزات الجانبية للصهيونية .

وبعد تمحيص أكوام الوثائق المتعلقة بشكاوى العرب وأجوبة الصهاينة عليها وتعليقات إدارة الانتداب البريطانية ومنظمات الأمم المتحدة، لا يسع المرء غير أن يتوصل إلى إستنتاج بأن المهاجرين اليهود والوكالة اليهودية كانوا مسؤولين إلى حد كبير عن مشاعر الفلسطينيين تجاههم . وبالطبع لم يدرك

(١) أنظر النص في جورج أنطونيوس، إستفاقة العرب، لندن، ١٩٥٥ .

الصهاينة أنهم كانوا يفعلون مثل ذلك وتصوروا أنهم إنما يزاولون حقوقهم المشروعة. بيد أن كل خطوة من خطواتهم كانت دبوساً يخز مشاعر السكان العرب. وكثيراً ما أشار موظفو الانتداب البريطاني والأمم المتحدة إلى إنطباعاتهم وتجاربهم التي تؤيدنا فيما نقول. ولعل بعض الأمثلة القليلة يجسم ما نذهب إليه.

ونجد أول مثال في الطريقة التي كان اليهود يخرجون بها المزارعين العرب ويحلون محلهم. وكان السكان الفلسطينيون يعتبرون الأرض بعد الحصاد أرض رعي شائعة للجميع بإعتبارها «أرض الله». ولكل راع أو مزارع أن يطلق حيواناته فيها. بيد أن المستوطنين اليهود قرروا قطع هذا العرف القديم وأصروا على حقهم كمالكين للأرض على منع الرعاة العرب من الرعي فيها. وبالإضافة لذلك، إعتاد المستوطنون الأول على إستخدام الشركس في حراسة ممتلكاتهم مما ضمن لهؤلاء باباً من أبواب الرزق. ولكن المستوطنين الصهاينة من فصيلة بن غوريون، وكما يروي هو بالذات، إستكثروا ذلك وفاوضوا السلطات على إستبدال الشركس باليهود وإقتتلوا بعض الحوادث ليتبتوا عدم كفاءة الشركس ومن ثم طردهم وإحلال يهود في محلهم. وأدى هذا الاجراء إلى وقوع كثير من الحوادث الدامية^(١).

ولا شك أن حوادث ١٩٢٨/١٩٢٩ الدامية قد وقعت بنتيجة إستفزاز أقل شأناً من ذلك بكثير. بينما كان فريقان من اليهود يلعبان كرة القدم قرب مزرعة عربية، سقطت الكرة على نباتات طماطم وإستثارت صاحبها الفقير الذي راح يربد ويعربد على الصبي اليهودي الذي جاء لإستعادة الكرة. ولكن الصبي رد على عربدته بالمثل وإستثار الفلاح إلى حد دفعه إلى طعنه بمدية. هذه حادثة مألوفة في البلدان التي تكون فيها بضعة نباتات من الطماطم أو البطاطس هي كل ما يعيش عليه الفلاح. أما الصهاينة فلم يروا

(١) بن غوريون، مصير إسرائيل وإعادة ولادتها.

ذلك، وهاجوا بحملات عدوانية على شتى المحلات العربية، ورد العرب عليهم بالمثل. ولم يعد الأمن للمنطقة حتى كان ٢٩ عربياً ويهودياً قد قضى نحبه في المجزرة. وكل ذلك واليهود ما زالوا أقلية صغيرة في البلاد^(١).

(وبعد قيام إسرائيل، أصبحت التصرفات الاستفزازية جزءاً من السيادة والهوية الوطنية) كما عانى وشهد بذلك مراقبو الأمم المتحدة. ومن أمثلة ذلك ما رواه الجنرال برنز، كبير المراقبين لمنظمة الأمم المتحدة. كانت الحدود الأردنية الاسرائيلية تعاني من توتر عظيم في أوائل الخمسينات. وحدث أن قررت إسرائيل إجراء مناورات عسكرية بالعتاد الحي قرب هذه الحدود، وما كان من المراقب الدولي غير أن طلب من تل أبيب أن تتفادى المزيد من التوتر وإطلاق القنابل فوق القرى الأردنية بنقل المناورات بعيداً عن الحدود. وهنا رفضت القيادة الاسرائيلية الطلب وأشارت إلى حقها بذلك، الجواب المتكرر لأي طلب يرجح الحكمة والكياسة على المزاوالت الاستفزازية للحقوق^(٢)

وربما وجدنا أكثر/التصرفات إستشارة للنفوس العربية، ما عمدت عليه النقابات العمالية اليهودية من سياسات قائمة على شراء الممتلكات العربية وإشتراط عدم إستخدام أي عرب فيها^{بهم} وكثيراً ما أدت هذه السياسة إلى مشاهد قبيحة ولا سيما أمام المزارع والمحلات اليهودية التي إستخدمت عمالة عربية بالنظر لرخص أجورها. . ومن التصرفات الأخرى التي إستشارت الجماهير العربية، المناوشات المستمرة بين الوكالة اليهودية والسلطات البريطانية بشأن حق اليهود من ميزانية الحكومة. أصرت الوكالة اليهودية على أن تستخدم الإدارة عدداً من اليهود يتناسب مع نسبة نفوسهم. ولما كانت هذه النسبة تتغير من سنة وأخرى بسبب الهجرة اليهودية، فقد دأبت الوكالة

(١) تقرير اللجنة البريطانية عن الاضطرابات الفلسطينية لأغسطس ١٩٢٩، ٣٥٣٠ سي.م.د/١٩٣٠.

(٢) الجنرال ثي. ل. م. برنز، بين العربي والاسرائيلي، لندن، ١٩٦٢.

على إثارة مشكلة سنوية بطلبها بطرد مستخدمين عرب وإستبدالهم بيهود حسب تغير النسبة! وهكذا كان على لجنة بيل الملكية أن تستأجر ثلاث سيارات، واحدة من مسلم وأخرى من مسيحي وثالثة من يهودي لترضي الوكالة اليهودية. وأثارت هذه الوكالة ضجة هائلة عندما سمحت الإدارة البريطانية للبدو برعي إبلهم في حوض الأردن في الموسم المعتاد وبناء على العرف الجاري منذ قرون. إعتبر الصهاينة هذا السماح بمثابة مؤامرة ضد اليهود!

ونجد مثلاً رائعاً آخر، في المناوشات السنوية المتكررة بين الصهاينة والإدارة البريطانية بشأن ميزانية التعليم. إعتاد اليهود على تعليم أولادهم في مدارسهم الخاصة، ولم يذهب منهم إلى المدارس الحكومية غير أقلية صغيرة جداً لم تتجاوز ١٪ في عام ١٩٤١/١٩٤٢. وطالبوا بناء على ذلك أن تدفع لهم الحكومة ما يساوي حصتهم ليصرفوها على مدارسهم حسب هواهم. بيد أن الإدارة طالبت بأن يكون لها الإشراف على هذه المدارس إذا استلمت نفقاتها من السلطة. وردت الوكالة اليهودية على ذلك بأن رفعت الموضوع إلى لجنة الانتداب التابعة لعصبة الأمم. وأوضحت الحكومة أن تقديم مثل هذه المنحة للمدارس الصهيونية يؤدي إلى نقص في ميزانية التعليم بما يتطلب غلق نسبة مشابهة من المدارس الحكومية، وهي المدارس الوحيدة التي يستطيع العرب دخولها. أشارت الإدارة إلى أن هذه المدارس مفتوحة للجميع ولكن الصهاينة إستنكفوا من إرسال أولادهم إليها، وبالطبع لغرض تثقيفهم بالثقافة الصهيونية المعادية للعرب عنصرياً. ووافقت الإدارة في الأخير على منح اليهود سدس ميزانية التعليم. ولكن الجمعية اليهودية (فعد ليومي) إعتزضت على هذا التخصيص لأن الحكومة أدخلت ضمن السكان العرب البدو الرحل! ومضت الوكالة اليهودية فطالبت بأن تأخذ الحكومة بعين الاعتبار لا نسبة السكان وإنما نسبة الأولاد في المدارس حيث أن جميع أولاد اليهود يذهبون إلى المدارس في حين لا يذهب من العرب غير عدد محدود! وطالبت الوكالة على هذا الأساس منح كل تلميذ يهودي ٢٠٠ مليون زيادة

على تخصيصات التلميذ العربي. وإستمر النقاش وإنتهى الانتداب ولم تحل المشكلة^(١).

ومن الضروري بالطبع أن ننظر إلى هذه القصة في إطار الوعود الصهيونية في أنهم سيجلبون للسكان الأصليين المدنية والتعليم والتقدم، وكذلك في إطار الملايين التي كانت الوكالة اليهودية تستلمها بسخاء من يهود العالم وتصرفها بنفس السخاء. وهكذا كتب م. كلفرسكي، أحد الصهاينة المعتدلين والمسؤول عن المكتب العربي للوكالة فقال في ١٩٣٩، «لو أننا إستثمرنا عشر أو واحد من عشرين فقط مما صرفناه وخصصنا ذلك لكسب تعاطف الشعب (العربي) لأصبح وضعنا هنا في فلسطين وفي أوروبا وضعاً مختلفاً كلياً...».

وقد إتهم كلفرسكي القيادة الصهيونية بإدارة ظهرها للمعارضة العربية المحتملة. وقد إنضم إليه في صرخته كثير من المفكرين والاشتراكيين في الحركة الصهيونية مثل هانس كاهن والدكتور ماغنز ومارتن بوير ونورمان بنتويتش، ممن حذروا بأنه لن يكون هناك مستقبل للوطن القومي اليهودي ما لم يعتمد اليهود إلى إصطحاب العرب معهم في هذه المسيرة.

ومنذ الأيام الأولى للحركة الصهيونية، عقدت القيادة العزم على تجاهل حتى الوجود البشري للفلسطينيين وعلى تحاشي أي ذكر لهم^(٢). وتوالت أفواج من المندوبين وأعضاء اللجان والمراقبين ممن صدمتهم حقيقة واحدة هي إصرار القيادات الصهيونية على تجاهل الفلسطينيين ومشاعر الفلسطينيين. وحتى في عام مبكر كعام ١٩٢١، نجد لجنة التحقيق البريطانية تعلق على موضوع إمكانات التعاون مع السكان الأصليين فتقول:

«نشعر أن من واجبنا أن نعبر عن رأينا الذي توصلنا إليه أثناء قيامنا

(١) ن. ناردى، التعليم في فلسطين، لندن، ١٩٤٥، كذلك وثيقة الامر البريطانية ٣٤٧٩ سي.م.د، ١٩٣٧.

(٢) خالد القشطيني، الحكم غياباً، مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٦٩.

بالتحقيق وهو أن اللجنة الصهيونية التي تمثل المنظمة الصهيونية في فلسطين قد أخفقت في إقناع العرب بالنسبة لهذا الموضوع^(١).

وفي عام ١٩٣٠، تابعت هذا الموضوع لجنة ملكية أخرى فقالت:

لو جرى بعض التعديل في البرنامج الصهيوني الكامل حتى يتبين العرب بشكل ما أن هذه الحركة الجديدة ستدر عليهم بعض الفوائد التي تعوضهم إلى حد ما عن مساوئها الواضحة، لكان من المحتمل ألا تستعر معارضة العرب كامل إستعارها، أو أنها إذا إستعرت لكان بالإمكان السيطرة عليها. وبدلاً من ذلك إستمرت الحركة الصهيونية بكامل برنامجها لا شيء يقيده غير العوامل الواقعة خارج إرادة الحركة^(٢).

وكررت نفس الاعتقاد لجنة التحريات الأنكلوأمريكية. في عام ١٩٤٦ فأعربت عن أسفها من حيث أن المجموعة اليهودية «لم تعالج مشكلة التعاون مع العرب»^(٣).

والسؤال الآن هو كيف ولماذا أخفقت القيادة الصهيونية في معالجة هذه المسألة والتوصل إلى أسلوب من التعامل مع العرب يكفل مستقبلاً أقل عداء؟ لماذا إمتنعت المنظمة الصهيونية من تخصيص واحد من عشرة أو واحد من عشرين مما صرفته على التسليح والأمن والدعاية والمشاريع العقيمة لتحسين العلاقات مع السكان الأصليين الذين لم يتجاوزوا نصف المليون نسمة؟ كيف أخفقت الدبلوماسية الصهيونية الشهيرة البراعة والتي أنجبت رجلاً مثل حاييم وايزمان ونجحت في تجميع بريطانيا وأمريكا وفرنسا والاتحاد السوفيتي في تأييدها وعجزت عن مناورة الساسة العرب القليلي الخبرة والحيلة الكثيري الرغبة في الكسب والارتزاق؟ لأكثر من نصف قرن، ظل الصهاينة يستلمون شتى التقارير والدراسات من المنطقة حتى أصبح رجالهم في طليعة

(١) الوثيقة رقم ١٥٤٠ سي.م. د. ١٩٢١، ص ٥٥.

(٢) الوثيقة رقم ٣٥٣٠ سي.م. د. ١٩٣٠.

(٣) تقرير لجنة التحريات الأنكلوأمريكية.

الخبراء في شؤون الشرق الأوسط لمعظم الحكومات، بما فيها الحكومة السوفيتية. وعليه فليس بإمكان أحد أن يفترض فيهم البراءة أو الجهل أو قلة الموارد المالية كسب للوقوع في ذلك الاخفاق.

ربما يكون الجواب الأقرب إلى الذهن هو أن الصراع العربي الصهيوني كان شيئاً محتملاً بالنظر إلى عدم إستعداد العرب لقبول حكومة يهودية فوقهم. ولكننا نجد مثل هذا الجواب غير شاف. أولاً أن اليهود لم يكونوا متفقين منذ البداية على إقامة دولة يهودية صرفة، وثانياً أنه ليس بشيء جديد أن يجد العرب أنفسهم تحت حكم أجنبي ولا سيما في السنين الأولى من الصراع. لقد قبل عرب عربستان بحكم طهران وقبل عرب الاسكندرونه بحكم أنقرة. ولم تجد الجماهير في تلك المناطق ولا الحكومات البقية القائمة ضيراً في ذلك. وكما رأينا من إتفاقية وايزمان فيصل والعديد من التصريحات العربية، كان هناك إستعداد من جانب القيادات العربية لتمرير المخطط الصهيوني بصورة أو أخرى. فما الذي حدث؟

يبدو لنا أن دوافع شعورية ولا شعورية حركت الصهاينة في إتجاهات مناقضة لأي تعاون أو تصالح مع الفلسطينيين ولشحذ همم العرب للنهوض إلى مستوى التحديات الصهيونية بحيث أصبح كل شاغل الشعوب العربية أن تنسى جل مشاكلها الذاتية وتنميتها المستقبلية ومشاريعها وبرامجها الاجتماعية وتوجه لمقارعة الكيان الصهيوني. ويعود هذا التحول في النفسية العربية لا إلى أي شعور خاص بالوطنية أو القومية أو الدين وإنما هو رد فعل (كمعظم التصرفات العربية) أو هو فعل إنعكاسي لتصرفات الصهاينة. كيف ولماذا عمد الصهاينة إلى غرس هذه الروح في النفوس العربية من المحيط إلى الخليج على اختلاف الدرجات؟ الجواب الوحيد الذي أستطيع أن ألمسه في حل هذا السؤال هو ما يترتب على الاستعراض التاريخي للخدمات اليهودية الأولية وما نشأ منها من عقدة إثم ترتب عليها نزوع انتحاري لا قبل للمجموعة أن تقاومه أو تفهمه.

الفكرة الصهيونية مليئة بالتناقضات ومن أول هذه التناقضات القول بأن الوجود الطبيعي الوحيد لليهود هو في أرض إسرائيل، وأن عيشهم في الشتات سيبقى عيشاً شاذاً وغير مرض. ومع ذلك، نجد جل الصهاينة واليهود عاشوا وما زالوا يعيشون خارج أرض إسرائيل. وقدمت شتى التفسيرات للحماس المتفاني الذي يبديه يهود الشتات لإسرائيل وتبرعهم السخي لها، ومع ذلك بقائهم خارج حدودها. وفي هذا صفحة مكررة لصفحات قديمة. فعندما سمح كورث لليهود بابل بالرجوع إلى فلسطين وإحياء دولتهم القديمة لم يذهب منهم غير قلة إليها. وسلك هؤلاء نفس السلوك المتعطر المجرى من المرونة والقائم على التوسع والاستفزاز ولا سيما في عهد الامبراطور هيركوبس (١٣٥ - ١٠٤ ق.م) حتى إضطر الرومان إلى السير إليهم وتدمير مملكتهم وهيكلمهم للمرة الثانية. واكتشف اليهود بعد ذلك أن التشرد هو ديدن الخلود للبشر وطالما بقوا في هذه الحالة فقد ضمنوا استمرار وجودهم. القصة تعيد نفسها. وتحولت القصة في العصر الحديث إلى مسرحية المشاهدون فيها هم يهود الشتات الذين يتعاون البطاقات الغالية ويسندون الفرقة بمعوناتهم ويشجعونها بحماسهم وتصفيقهم، في الوقت الذي تعيد فيه الفرقة تمثيل التراجيديا القديمة.

فحوى ضياع فرص السلام

إنضح عدم رغبة إسرائيل في السلام والتعايش مع جاراتها بصورة أجلى بعد حرب حزيران ١٩٦٧. ففي هذه الحرب إنهارت الصفوف العربية إلى درجة لم تترك مجالاً للعرب غير قبول الوجود الاسرائيلي. وإنعكس هذا الموقف بقبول قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الذي نص على الاعتراف بحق إسرائيل في البقاء وإستعمالها لقناة السويس وخليج العقبة وإنهاء حالة الحرب معها. كانت هذه هي الفرصة الحقيقية لتطبيع العلاقات تدريجياً. ورغم النداءات التي وجهها حتى بعض الصهاينة والساسة الاسرائيليين للإنسحاب

من الأراضي المحتلة واحتضان طريق السلام مع العرب، فإن المسؤولين في تل أبيب أصروا على مواصلة نفس السلوك القديم بالتشبث بالغنائم الجديدة وتعميق النزاع مع العرب. ولأول مرة إحتل العمل الفدائي أبعاده العالمية ونقل الصراع إلى مستوى جديد.

وأثار سلوكها هذا مخاوف الكثير داخل إسرائيل وكان منهم لافون وزير الدفاع السابق الذي حذر على التلفزيون الاسرائيلي من مغبة البقاء في الأراضي العربية المحتلة.

حتى حرب عام ١٩٦٧، إعتاد الجمهور في الغرب على تصديق الصورة الإعلامية الصهيونية المزيفة بكون العرب عازمين على إبادة الاسرائيليين، ورفض أي مشروع للسلام أو التفاهم، وأن إسرائيل هي الوحيدة المتعطشة للسلام والساعية له. ويظهر أن كثيراً من المسؤولين العرب قد ساعدوا في خلق هذه الصورة الزائفة ليغطوا بها أمام جماهيرهم حقيقة توانيهم في الموضوع. ومنذ ذلك الحين توالى الوثائق والاكتشافات التي قلبت الصورة تماماً وأظهرت أن العكس كان هو الصحيح. ومن الفصول التي ظهرت في السنين الأخيرة قصة شتاء ١٩٥٤/١٩٥٥ عندما وردت فرصة لإسرائيل في التصالح مع العرب وفتح صفحة جديدة من العلاقات. كان النظام المصري حديث عهد بالحكم وكان قد بنى مصيره على وعود بتحسين أحوال الشعب، وإعادة بناء الاقتصاد من كل الوجوه. وإنهمك النظام فعلاً في برامج بعيدة المدى نحو تلك الأهداف كما نعلم. وعلى هذا الأساس حظت مصر بتعاطف القوى التقدمية والاشتراكية بين شتى الأوساط الدولية. وفي هذا الجو الجديد، توجه موريس أورباخ، النائب البريطاني العمالي اليهودي إلى القاهرة لمقابلة جمال عبد الناصر في سلسلة من الوساطات السرية بين ناصر وشاريت، رئيس الوزارة الاسرائيلية، كما ذكر لي أورباخ برسالة شخصية. وأحاط كل من الطرفين، أو الثلاثة أطراف، المفاوضات بجدار من الكتمان، كل لأسبابه الخاصة. وقال أورباخ، «لقد قبل الكولونيل ناصر دعوتي وبينما

كنا نتباحث فيها، حثني بأن أحمل رسالة حسن نية «لاخي شاريت» كما قال، وأن أذكر لشاريت بأنه يريد السلام. ويبدو أن كلا الطرفين قد تنوصلا، حسب رأي أورباخ، إلى إتفاق أولي بشأن جميع القضايا المتعلقة بما في ذلك تقديم المساعدة الفنية من إسرائيل لمصر^(١).

لقد كان موسى شاريت من المستعربين وعاش بين الفلسطينيين وتطلع إلى مستقبل لإسرائيل في إطار الحياة في الشرق الأوسط. وكان غير مطمئن إلى المغامرات العسكرية ورجال الجيش. وبناء على ذلك فقد نظر إليه الصقور كسياسي ضعيف يعرض مستقبل إسرائيل للهوان.

وما إن سمعت غولدا مثير بالحكاية حتى أسرع إلى بن غوريون الذي كان منزوياً في بيته الصحراوي في سيد بوقر، وما فتئت حتى عادت به ليشغل منصب وزير الدفاع في ٢٠ شباط ١٩٥٥. وقيل للإسرائيليين عندئذ أنهم جاؤوا به ليضع حداً لهجمات الفدائيين التي لم يكن لها في الواقع وجود يذكر. وفي بحر أسبوع واحد من تعيينه قام فوجان من القوات الاسرائيلية بمساندة الدروع بالتوغل إلى مسافة ثلاثة كيلومترات داخل الخطوط المصرية والوصول إلى مدينة غزة بعد قتل ٣٧ مصرياً وفلسطينياً بينهم ضابط برتبة نقيب، وتدمير مراكزهم العسكرية. وبنتيجة الهجوم الغادر، تم تدمير معدات الضخ ومعسكر مصري كامل. وبهذا الهجوم المفاجيء تغيرت العلاقات بين الطرفين تغيراً جذرياً.

وحدث أن زار الجنرال برنز، كبير المراقبين الدوليين، الرئيس ناصر قبل ذلك الهجوم بفترة قصيرة. وروى أن ناصر عبر له عن رغبته بدعم حالة الهدوء والسلام وتحاشي المصادمات الحدودية. وحدث أيضاً أن ناصر فتش الجبهة وطمأن الضباط والجنود بعدم احتمال الحرب أو وقوع مصادمات بين الجبهتين. ولا شك أنه كان متأثراً أثناء ذلك بالاتصالات الجارية سراً. ويمضي الجنرال برنز ليروي أنه وجد عبد الناصر بعد الهجوم الاسرائيلي على

(١) الجويش كرونكل ٣٠ تموز ١٩٦٥.

غزة في حالة نفسية مختلفة كلياً. وقال للمراقب الدولي بأنه وعد جنوده خيراً وطمأنهم باستتباب السلام ثم تعرضوا لهذا الهجوم الغادر^(١).

وسروي موريس أورباخ أنه ذهب للإجتماع بناصر مرة أخرى لمهمته السلمية في شهر نيسان وبعد أيام قليلة من التوقيع على حلف بغداد الذي عارضته مصر. وفي هذه المرة لم يسمحوا له بمقابلة عبد الناصر وسرعان ما اكتشف أن مسعاه قد وصل نهاية مسدودة. وعزى النائب العمالي هذا التحول إلى إبرام بريطانيا حلف بغداد. ولكن الظاهر أن أورباخ قد ساير نفس الاتجاه المألوف من أعضاء حزب العمال اليهود في إلقاء التبعة عن كل مصاعب إسرائيل الدبلوماسية على وزارة الخارجية البريطانية. فالمعروف أن إسرائيل وحزب العمال البريطاني قد عارضا معاً حلف بغداد ولا مبرر هناك لناصر في أن يعتقد بأن لأورباخ ضلع في إبرام حلف بغداد. الحقيقة هي أن ناصر قد إستشاط غيظاً من الهجوم الاسرائيلية على غزة وظهر أمام ضباطه بمظهر الكاذب أو المغفل. ويؤيد مثل هذا الرأي الجنرال برنز الذي كان من أقرب الغربيين إلى تفهم ناصر في هذه المرحلة.

لقد تلت هجمة بن غوريون فترة امتدت لعدة أسابيع ساد السلام فيها الحدود الاسرائيلية المصرية وحدثت خلالها في الواقع مصادمات أكثر على الحدود الأردنية. وتصرفت وسائل الاعلام المصرية خلال ذلك كما لو كانت إسرائيل في مكان ما في أمريكا اللاتينية أو على القمر. وأعطت الصحف المصرية أنباء المصادمات مع إسرائيل بإقتضاب مدروس ووضعتها في الزوايا المهملة من الصفحات الداخلية بينما كرست المانشيتات الأمامية لأنباء مثل: «الأزهر يدعو إيران إلى وقف إذاعة القرآن باللغة الانكليزية»^(٢) وفي يوم الغارة الاسرائيلية كان العنوان الرئيسي لجريدة الأهرام «خطبة الأميرة دينا للملك حسين». وحجبت السلطات أنباء الهجوم عن الجمهور ليومين ولم تعط عدد

(١) برنز، ص ١٨.

(٢) الأهرام، ١٥ شباط، ١٩٥٥.

الضحايا حتى اليوم . ومن الجدير بالالتفات أن المسؤول عن إعطاء الأمر بالغارة، بن غوريون نفسه، لم يورد لها أي ذكر في مذكراته التي شملت شتى الأمور الثانوية^(١) . وأثارت إشارات موريس أورباخ وتصريحاته بشأن المفاوضات التي كانت جارية مع ناصر موجة من السخط والتخفيف بين الأوساط الصهيونية ووصفت الجويش أوبزرفر بتحرير جون كمشي، رواية أورباخ بالهراء^(٢) .

الظاهر أن الرئيس عبد الناصر وقع بالخطأ الذي وقع فيه معظم العرب الذين أغفلوا ملاحظة التناقضات الموجودة في معسكر العدو، فاعتبر محاولة أورباخ السلمية وإيجابية شاريت نحوها نوعاً من الخديعة لتعريض مصر للضربة . وكان أن بادر عبد الناصر فوراً إلى تعزيز قواته والتأهب للقتال وتنظيم غارات الفدائيين . وكان هذا بالذات ما أراده بن غوريون . وأصبحت عمليات الفدائيين الذريعة لشن العدوان الثلاثي على مصر بعد ذلك بأشهر قليلة . وعلى الجانب المقابل تمكن بن غوريون من إبعاد شاريت من الحكم وإرسالة بمهمة صداقة إلى الشرق الأقصى .

ولم تكن هذه القصة وحيدة من نوعها في الطريقة التي تحاشت فيها إسرائيل طريق السلام مع العرب . فحدث قبيل حرب ١٩٤٨ أن قام كميل شمعون بترأس وفد عربي للتفاوض على إقامة فلسطين فدرالية من دولة عربية وأخرى يهودية . وكان أن كتب ألبرت حايمن، أحد الصهاينة المعتدلين ممن عملوا كموظفين في حكومة الانتداب فقال في رسالة نشرتها له الجويش كرونكل، «لربما يكون من أعجب الأمور، بقدر ما أعلم، أن أي أحد لم يذكر أي شيء في أي مكان من الصحف اليهودية عن هذا المشروع الذي طرح في شهر تشرين الثاني الماضي»^(٣) . وبعد أشهر قليلة حاول

(١) بن غوريون، إسرائيل : أعوام التحدي .

(٢) الجويش أوبزرفر، ٦ أغسطس ١٩٦٥ .

(٣) الجويش كرونكل، ١٢ مارس ١٩٤٨ .

الملك عبد الله أن يحاور الوكالة اليهودية، وقابل سرّاً غولدا مائير عارضاً عليها قبول المقترح الصهيوني السابق لإقسام مستقبل البلاد بالتساوي، فرفضت مثير ذلك قائلة أن أوان الاقتراح قد إنصرفت، وعليه أن يعد نفسه للحرب.

وفي ١٩٣٦، وفي عنفوان النشاط الفلسطيني، تقدم الدكتور ماغنز، الرئيس الأول للجامعة العبرية ومؤسس حزب أحود (الحزب السلامي المؤمن بدولة مزدوجة في فلسطين) ونجح في إقناع الوكالة اليهودية بتأليف لجنة من خمسة أعضاء للتفاوض مع العرب. وأدت المحاولة - حسب قول نورمان بنتويتش - إلى إتفاق أولي على أساس السماح للهجرة اليهودية بحرية حتى يبلغ عدد السكان اليهود ٤٠ ٪ من المجموع مع إعطائهم حقاً مساوياً للعرب من ناحية التمثيل السياسي. وسجل بنتويتش مطالعته عن المحاولة قائلاً: «تناول ماغنز الاتفاقية كموضوع على غاية الأهمية، بينما لم تكن الوكالة اليهودية متلهئة لمراصلة الانفتاح ولا عازمة عليه» (١).

وإستأنف الصهاينة الموضوع مرة أخرى في ١٩٣٩ بعد أن أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض الذي حددت بموجبه الهجرة اليهودية إلى فلسطين بمجموع ٧٥,٠٠٠ شخص موزعين على خمسة أعوام. وبعبارة أخرى أصبح المستقبل حالكاً بالنسبة للمشروع الصهيوني. وعند ذلك فقط، فكرت المنظمة الصهيونية بإعادة الحياة إلى الاقتراح القديم. وبناء على قرار المؤتمر العشرين للمنظمة، تشكلت لجنة للسعي إلى الحصول على إتفاق مع العرب. وأدت المحاولة بالفعل إلى حل سياسي يقوم على إستمرار الهجرة حتى يصبح عدد اليهود مساوياً للعرب وتقسيم فلسطين إلى منطقة عربية ذات إستقلال داخلي وأخرى يهودية بإستقلال مشابه «ولكن الوكالة اليهودية بقيت بدون سياسة واضحة وجدية وبدون إيمان ذاتي في التعاون مع

(١) ن. بنتويتش، جوداس ماغنز، لندن، ١٩٥٥، ص ١٩٢.

العرب . . . ومن ثم وضعت كل هذه المحاولات على الرف» (١) .

وقبل ذلك بكثير، أجري رياض الصلح محادثات مع الصهاينة في مضر في ١٩٢٢، حسب قول آشرف الذي ذكر بأن رئيس اللجنة التنفيذية العربية أعرب في ٤ نيسان من ذلك العام عن إستعداده لمشاهدة «الحكم اليهودي» يعود إلى فلسطين. وليس في ذلك من غريب بعد أن قدم الزعماء القوميون من سوريا مقترحاتهم إلى مؤتمر الصلح في باريس لإقامة حكم يهودي ذاتي في فلسطين. وانقطعت هذه المفاوضات بنتيجة الضغط الذي وجه للمتفاوضين. وعزى سفر هذا الضغط إلى الجانب البريطاني. ومهما كان الأمر، فلم يوجه اللوم إلى العرب في قطع حبل الوصال، أو في الوقوع تحت الضغط البريطاني. وبعد عدة سنوات من هذه المحاولة إنفجر النزاع بين المنظمة العالمية الصهيونية والحكومة البريطانية، وفي غمرة النزاع نشر الناطق الصهيوني إسرائيل كوهين رسالة مفتوحة موجهة إلى بيفن، وزير الخارجية البريطاني، ذكره فيها بالمحادثات التي كان الدكتور أدر يجريها مع العرب في ١٩٢٢ وكيف إضطر الجانب الصهيوني إلى قطع المفاوضات بناء على طلب الحكومة البريطانية من حاييم وايزمان (٢) .

لقد قيل الكثير عن سعي بريطانيا لمنع العرب واليهود من الوصول إلى إتفاق بينهما. وقد يمكننا أن نفهم عدم إرتياحها من أي وفاق يحصل بين السوريين واليهود في أوائل العشرينات نظراً لمخاوف بريطانيا من توغل النفوذ الفرنسي عن طريق السوريين في الديار المقدسة. بيد أنه في خارج هذا الإطار وفي المراحل اللاحقة من الانتداب، لا نستطيع أن نفهم أي مصلحة لبريطانيا في منع العرب من التفاهم مع اليهود. والواقع أن الوثائق والوقائع تشير إلى رغبة بريطانية قوية لجمع كلمة الطرفين وتحاشي كل مشاكل النزاع ونفقاته الباهظة. ومن الوقائع التاريخية بالطبع أن لقاء فيصل ووايزمان كان

(١) نفس المصدر، ص ٢٤٩ .

(٢) نص الرسالة في الزاينست ركورد، ٧ مارس ١٩٤٧ .

من تدبير لورنس . وكان من مطالب بريطانيا المتكررة من وايزمان أن يثبت إستطاعة اليهود التعايش بسلام مع العرب . وفي عام ١٩٣٨ ، بذلت لندن قصارى جهودها ، والحرب العالمية على الأبواب ، في التوصل إلى وئام بين اليهود والفلسطينيين بالطبع إننا كعرب ، درجنا في هذه الأيام وإعتدنا على القطيعة الجازمة بين العرب والصهاينة وعلى الإيمان بأن أي حوار مع الصهاينة ينطوي على خيانة . بيد أن الأمر لم يكن كذلك في عرف الجيل السالف عندما كان التعامل بين العرب والصهاينة شيئاً مألوفاً على شتى المستويات ولم ير البرجوازي الفلسطيني أي غضاظة في توكيل محام صهيوني في تعقيب قضاياها ، ولا كان من الغريب للكادح البسيط أن يقصد العلاج الطبي في مستشفى الجامعة العبرية . وعندما إستطاع الحلفاء تخلص مجموعة من صغار اليهود من قبضة النازيين وجيء بهم إلى فلسطين ، خرج الفلسطينيون العرب مع اليهود لإستقبالهم وتقديم البرتقال لهم .

المنتظر في مثل هذه الأوضاع أن الزمن يقوي هذه الأواصر ويوسعها ولكن العكس هو ما وقع . فما الذي حدث؟ ومن المسؤول بالذات عن هذه المرارة الأبدية التي وصل إليها الموقف؟ المألوف أن يلقي العالم مسؤولية هذا الوضع على العرب وعنادهم وتمسكهم الأعمى بقوميتهم ووطنيتهم . ونسكت نحن من جانبنا ونقبل التهمة لأسباب مفهومة وننتسر على الحقيقة . هذه الحقيقة هي أن الصهاينة هم الذين حرصوا على منع مثل هذا التفاهم وبذلوا كل جهودهم لتعزيز المعارضة العربية وإلعداء العربي . وفي كتابي «نحو اللاعنف» شرحت بإيجاز كيف كانت المعارضة العربية سلمية ولا عنفية في البداية وكان الصهاينة هم الذين طوروها إلى الطور الدموي^(١) . وفي ومضة عابرة ذكر بن غوريون فقال في خطابه للمؤتمر الصهيوني لعام ١٩٢٠ أنه كان بإمكان الصهاينة في الواقع أن يقيموا وطنهم القومي بموافقة العرب ولكن اللجنة الصهيونية أحبطت ذلك^(٢)

(١) خالد القشطيني ، نحو اللاعنف ، عمان ، ١٩٨٤

(٢) ألزاينست بولتن ، ١٤ تموز ١٩٢٠ .

السؤال التالي في التسلسل هو ما الذي دفع الصهاينة إلى هذا السلوك؟ ولا شك أن هناك أكثر من تفسير للظاهرة. أما تفسيرنا فهو الذي يقوم على كل ذلك السرد التاريخي الذي أفضنا فيه، وإنتهينا منه إلى ظاهرة الاثم الكتابية وما يترتب عليها من نزوع إنتحاري للكيان الجماعي. بعد سلسلة طويلة من الاستفزازات والتحركات، إستطاعت إسرائيل في ١٩٦٧ أن تحقق أوج سؤدها التوسعي. وفي ذروة هذا المجد العسكري، تكلم أشكول رئيس الوزراء فأعطى وصفاً بليغ الدلالة لإسرائيل بكونها قد أصبحت «شمشون البائس».

قلما فهم أديب أبعاد مشكلة الإثم ونتائجه كما فهمها دستوفسكي. ومن ملاحظاته الدقيقة في الموضوع إشارته إلى التناقض الأصيل في هذا الميدان بين الكفاءة المتناهية للبطل وإخفاقه التراجيدي بعين الوقت. وهنا يقول الدكتور زوسيموف في الجريمة والعقاب، «يقوم المرء بأعماله بمهارة مفرطة وبكل ذكاء ولكن الغرض من الأعمال وأصلها مشوشان عنده ويعتمدان على مؤثرات مريضة مختلفة. إنها حالة أشبه بالحلم». ويتطبيق مثل هذا المفهوم الثابت علمياً نستطيع أن نتفهم جيداً كثيراً من سلوك إسرائيل. فنجد على جانب كفاءة ونشاطاً مذهلاً كما لمسنا في غزو لبنان، ونجد على الجانب الآخر تشوشاً في الغرض والتخطيط البعيد المدى. وهكذا إختلطت الانتصارات بالانسدادات وإنعدام المعنى. وعلى إمتداد التوسع الاسرائيلي، نجد هذه الانتصارات المتسلسلة، ولكن العقيدة الهدف الستراتيجي. فما زالت إسرائيل جسماً غريباً في الشرق الأوسط وعاجزاً عن تحقيق التعايش مع المجاورين. وحتى التصالح مع مصر ولد يتيماً وبقي يتيماً دون أن يستطيع أحد تطيعه.

لا يتوقف بقاء إسرائيل على إنتصاراتها الآنية ولا حتى على السلام مع الدول العربية، وإنما على التصالح مع العرب كبشر مجاورين لها. تستطيع تل أبيب أن تسجل نصراً بعد نصر دون أن تستطيع حسم الوجود العربي،

ولكن نصراً عربياً واحداً عليها سيحسم وجودها على أكثر احتمال . والأهم من كل هذا، أنهم يعرفون هذا في تل أبيب. بيد أنهم بكل ما أوتوا من ذكاء ومعرفة وخبرة طويلة، يعجزون عن الوصول إلى الحلقة المنطقية الأخيرة التي تفلت عن أنظارهم بصورة غريبة، تكاد تكون سحرية. ما الذي يمنعهم من مشاهدة حقيقة الحلقة المنطقية الأخيرة؟

هذا ليس إستقراي الخاسر للموقف، وإنما يشاركني فيه رائد كبير من رواد الحركة الصهيونية ذاتها، وهو الدكتور ناحوم غولدلمان. ويروي في مذكراته كيف حاول في ١٩٤٨ الاستجابة لعرض الحكومة المصرية لحسم القضية بصورة سلمية، ولكن اليهود - كما قال - حالوا دون ذلك. وفي نيسان ١٩٧٠، أراد غولدلمان أن يستجيب لدعوة ناصر بالذهاب إلى القاهرة والتفاوض معه، ولكن غولدا مثير أقامت الدنيا وأقعدتها وإمتلأت تل أبيب بالمظاهرات العنيفة ضد محاولة هذا الرجل الذي قضى نصف قرن من حياته في خدمة الحركة الصهيونية وترأس منظماتها العالمية. وحذر غولدلمان من مغبة السلوك الاسرائيلي الانتحاري الذي أصبح - كما قال - قائماً على حياة من يوم إلى يوم دون أي نظرة بعيدة، بما يؤدي في الأخير إلى وجود معرض للإنقراض^(١)

وهكذا تسود إسرائيل الآن روح قدرية تشوبها صرخات من التحدي الأعمى الذي يرتبط في أكثر الحالات بأفراد محمومين وموتورين. وفي هذا الجو تعطش الجمهور الاسرائيلي إلى قصص البطولات الانتحارية ومآسي مذبحه مسادا وأصبح حفر القبور والكشف عن شهداء مسادا وبذل الغالي والرخيص لإستخلاص رفاة الموق الغابرين وإعادة دفنهم في الأرض المقدسة الهواية القومية.

وسأضيق كثيراً من وقت القاريء بإستعراض كل التصريحات والنصائح

(١) ن. غولدلمان، ذكريات، لندن، ١٩٧٠

المحذرة لإسرائيل من المصير الانتحاري الذي ينتظرها إذا واصلت السير على هذا الطريق. ولكننا نكتفي بما قاله يشايهاو لايبوتز، الأستاذ في الجامعة العبرية والحجة العالمية في الدراسات اليهودية، عندما كتب بشأن المجازر التي نظمها الاسرائيليون في لبنان فقال: «أن ما حدث في لبنان من المجازر المريعة التي جرت في مخيمات اللاجئين هي خطوة أخرى أضيفت إلى عملية إنتحار دولة إسرائيل... لن يبقى بأيدي البشرية أي خيار آخر غير القضاء على هذه الدولة». وفي تجاهلها لأقوال كل الحكماء والأصدقاء والأبناء، لا نستطيع غير أن نرى شبح تلك المأساة القديمة يحجب الأفق المحيطة بالملكة الجديدة ويشير بأنامله لإعادة تمثيل الصدمة. كان الطبيب ليوبنسكير من أكثر من فهم المنظور الصهيوني في إطار العلة الجماعية. وكان مما أشار إليه الشقاء الذي كتب على اليهود نتيجة خضوعهم للذات الإلهية وتعرضهم للعقاب الرباني. الانتحار، قال بنسكر، هو السبيل الطبيعي للمعذب والمطرود والمحتقر، ولكن أين هو السلاح المميت الذي يضرب الضربة النهائية لجميع اليهود المشتتين على وجه الأرض، وأي يد تتقدم لمثل هذا العمل؟»، بعد أن عرض الموضوع بهذا الشكل، مضى بنسكر ليصف الوصفة الصهيونية لبني قومه (١)

لا يرمي التحليل السابق الوارد في هذا الفصل إلى إعطاء صورة تشاؤمية سوداء للمصير اليهودي كدين وطائفة. الواقع أن أكثر اليهود إستطاعوا التخلص من عبء الماضي وبناء حياة جديدة كريمة في أوطانهم التي إستقروا فيها وأداروا ظهورهم للدوافع الصهيونية. وكان من المتوقع أن يصبح الوجود اليهودي وجوداً طبيعياً معتاداً وخالصاً من التشنجات العاطفية واللاشعورية. بيد أن مجموعة من العوامل الأخرى ظهرت على مسرح المجتمع الأوروبي منذ بداية القرن التاسع عشر تداخلت في مسيرة الاندماج والتحرر اليهودي وساعدت في الأخير على ترجيح كفة تراث الماضي الصهيوني وزج غالبية

(١) التحرر الذاتي.

اليهود في موجة العدوان ضد العرب وتحويل العرب إلى هيئة السلاح الجديد
الذي يمضي هو بدورة على ما يبدو بشكل قدري نحو تصعيد العداء وإنتظار
الجولة الفاصلة .

الفصل الثاني

الانفجار السكاني وعصر الهجرات

ان من أهم الأحداث التي لعبت دوراً أساسياً في تاريخ القرن التاسع عشر وتركت أثراً ملحوظاً في تطور الحركة الصهيونية كان الانفجار السكاني في أوروبا، الذي إرتبط بدوره بالثورة الصناعية. وقد قدر أن نفوس أوروبا إرتفعت خلال القرن من ١٨٧ مليون في سنة ١٨٠٠ إلى ٢٦٦ مليون في ١٨٥٠ ثم ٤٠١ مليون في سنة ١٩٠٠. وفي روسيا التي كان تعيش فيها أكبر مجموعة من اليهود، إرتفع مجموع السكان من ٧٣ مليون في ١٨٦١ إلى ١٢٥ مليون في ١٨٩٧. وبالطبع ترتبت على مثل هذه التطورات مشاكل في إعاشة النفوس الجديدة. وقد رأى المؤرخون الاقتصاديون أن ٢٨ ٪ من مجموع الفلاحين الروس أصبحوا عاجزين عن إقانة أنفسهم من الزراعة وإرتفعت هذه النسبة إلى ٥٢ ٪ في عام ١٩٠٠. وفي العقد الذي نشر فيه هرتزل كراسته «الدولة اليهودية» وإنعقد أول مؤتمر صهيوني، إجتاحت أوروبا الشرقية مجاعة قاسية في ١٨٩١ وتلت ذلك في عام ١٩٠٠ أزمة إقتصادية مهلكة^(١). وبتنتيجة هذه التطورات، خرجت من الأرياف جموع بالألوف عدداً وراحت تنشد أي سبيل يقيتها في المدن العاطلة.

كشفت نهاية الحرب النابليونية في ١٨١٥ عن مدى الكارثة التي كان

(١) ن. رياسانوفسكي، تاريخ روسيا، نيويورك، ص ١٩٦٣.

يسير نحوها الاقتصاد الأوروبي وفي بريطانيا فقط، عاد من الحرب نحو ٣٠٠,٠٠٠ جندي راحوا يبحثون عن عمل في الوقت الذي سرحت فيه معامل الصلب ألوفاً من عمالها. وفي هذا الوضع المزري، راحت جماعات العمال العاطلين تجوب المدن وتحرق البيوت والمخازن تحت صيحة «الخبز أو الدم». وبنفس الوقت أصبح النهب والسرقه والشحاذة والصدقة من الأساليب المعتادة للعيش. وفي شتى المدن الأوروبية أعدم الكثير أو قتلوا برصاص الشرطة في الشوارع بنتيجة الأزمات والاضطرابات المتعاقبة. وقدر الاقتصاديون أن نحو خمس أو سدس مجموع السكان في أوروبا كان يعيش على الصدقات خلال القرن التاسع عشر. ومن الملاحظ أن مجموع من هاجر من أوروبا خلال هذه الفترة قد بلغ أيضاً نحو الخمس^(١).

ولا شك أن مثل هذا الموقف كان يحل في الماضي البعيد عن طريق الدين أو الفتح الإمبراطوري أو الغزو العشائري الذي يأخذ الفائض السكاني إلى الخارج ليموت من يموت ويحيا بالفتح من يحيا. بيد أن عصر العقل وعصر التنافس الأوروبي حال دون إستعمال مثل هذه الأساليب. ولأول مرة جابه الإنسان هذه المعضلة الفريدة التي يؤدي فيها التطور الاقتصادي والعلمي إلى مزيد من السكان ومزيد من المشاكل الاجتماعية. وإزدادت المشكلة تعقيداً بسبب الأفكار العصرية الليبرالية والاشتراكية والعقلانية التي استبعدت الحلول السلطوية القديمة. وأخذ الانفجار السكاني الحكومات وأساساً على حين غرة ولم يتبين الناس بعد الامكانيات الهائلة التي سيجلبها العلم والتقنية في مضاعفة الثروات والمنتجات الغذائية والمواد الضرورية لعيش الإنسان. وإنصرف الذهن رأساً إلى ضرورة التخلص من النفوس الزائدة، وهل أحسن من الأقليات والقوميات الغريبة من مرشحين لمثل هذا الغرض؟ وقد تبين فيما بعد أن حوالي أربعة أخماس جميع المهاجرين من بريطانيا كانوا من الأيرلنديين والسكوتلنديين، وأن ٩٠٪ ممن ركبوا سفن

(١) الهجرة من أوروبا، تقرير منظمة أي. ر. أو.

الهجرة من ميناء لفربول كانوا من الأرلنديين^(١).

وظهرت حيال ذلك مدرستان من الفكر في أمر معالجة هذا الوضع . دعت الأولى إلى توسيع الديمقراطية والاصلاحات الاجتماعية وتوزيع الثروة بشكل أعدل . ودعت الثانية إلى رفض ذلك والاعتماد على المستعمرات والهجرة إليها . وكان بين هؤلاء الكاتب توماس كارلايل والاقتصادي مالتوس . وتزعم الأخير المدرسة التشاؤمية التي حذرت من التكاثر السكاني وآثاره في تقويض المجتمع . وقدر لأفكاره أن تصبح العمود الفقري للعنصريين ومعادي السامية . ومن تأثروا بأفكار مالتوس أوغوست شيرك ، الاشتراكي اليميني الذي عبر عن مخاوف عميقة حيال إزدياد السكان في فرنسا وتغلغل اليهود وشارك في الثمانينات في التحريض ضد إزدياد عدد اليهود والذي ترتب عليه كثير من الحوادث العدوانية . ومن أتباع مالتوس الآخرين كان المؤرخ الألماني الشهير ترتشكة الذي أصبح من قادة الفكر العنصري الألماني ومعاداة اليهود ، وضم رأيه إلى الناصحين بضرورة تشجيع الهجرة والاستعمار الكولونيالي كوسيلة لحل المشاكل الاقتصادية الناتجة عن الانفجار السكاني .

وكما بدأت الثورة الصناعية في أنكلترا ، كذلك أثير في نفس هذا البلد موضوع الأفواه الزائدة وكيف يمكن إطعامها . وكان من الطبيعي أن تصبح أنكلترا الدولة الرائدة في الهجرة إلى عالم المستعمرات فبلغ مجموع المهاجرين من الجزر البريطانية ثلث المجموع الكلي لجميع المهاجرين من أوربا . وفي ١٨٢٧ ، تألفت اللجنة المختارة بشأن الهجرة لدراسة الموضوع . وكان ممن إستمعت إلى شهادتهم مالتوس الذي أشار إلى جدوى التهجير إلى المستعمرات ، رغم إيمانه بأن هذا الاجراء لن يحل المشكلة كلياً . ولكنه ، كما قال ، سيخفف من المشكلة السكانية^(٢) . وكتب وزير الدولة للمستعمرات

(١) كارل ماركس عن بريطانيا ، موسكو ، ١٩٥٣ ، ص ٣٧٢ .

(٢) ج ، آيزاك ، إقتصاديات الهجرة ، لندن ، ١٩٤٧ .

رسالة قال فيها: «أن هجرة العمال البريطانيين العاطلين ستؤدي خدمة حقيقية وجوهرية للوطن الأم»^(١). وإستجابة لمثل هذه الأقوال، تألفت في أنكلترا نحو ١٠٣ جمعيات لتشجيع الهجرة وعقدت إجتماعات دورية في فندق كانن ستريت في لندن لغرض التخطيط للهجرة كعلاج للفقر والتسول. وتأسست في كل مكان شركات خاصة وجمعيات تعاونية لهذا الغرض. وفي ظل كل ذلك برزت في عالم الفكر السياسي مدرسة المصلحين الكولونياليين التي أخذت على عاتقها إصلاح النظام الاستعماري بمجموعة من الأساليب، منها تهجير العاطلين وقيام المهاجرين بالعمل بأنفسهم وليس بتشغيل السكان الأصليين، ومنح المستعمرة حكماً داخلياً ذاتياً وتخصيص الأموال اللازمة لنقل المهاجرين وتوطينهم.

ومن أهم المؤسسات التي قامت في هذا الميدان جمعية الاستعمار القومي التي أسسها أدوارد غيبون وكفيلد لإستعمار جنوبي أستراليا بموجب هذه المبادئ. وقدر لمبادئ جمعيته القائمة على الحكم المحلي الذاتي تحت حماية دولة إستعمارية كبرى، وإقامة صندوق خاص للتمويل، وممارسة المهاجرين للزراعة بأنفسهم، إن أصبحت الأسس التي إقتدت بها مؤسسات الهجرة اللاحقة بما فيها المنظمات الصهيونية. وإستوحى قادة الحركة الصهيونية كثيراً من أساليبهم وأفكارهم من تجارب هذه المؤسسات. ومن ذلك ما قاله جابوتنسكي للجنة الملكية البريطانية في ١٩٣٧ في تبرير إستعمال القوة ضد السكان العرب عندما أشار إلى أن مثل هذا النزاع بين المهاجرين والسكان الأصليين كان دائماً حتمياً وكان على المهاجرين أن يلتجؤوا إلى السلاح في قمع إعتراض السكان الأصليين. ومن القواعد الأخرى التي إستوحنتها الصهيونية أيضاً من تجارب الكولونياليين إعتداد المهاجرين على أنفسهم في ممارسة الزراعة، وكانت هذه القاعدة هي التي ميزت مستعمرات المنظمة

(١) سي. كري، التاريخ الموجز للكونولث البريطاني منذ واترلو، لندن، ١٩٥٦، ص ٣٩.

الصهيونية من مستعمرات البارون روتشيلد التي كانت تستخدم فلاحين عرباً. ولا شك أن إنشغال الانكليز بموضوع الهجرة إلى عالم المستعمرات قد سهل لهم تفهم المشروع الصهيوني وإستحسانه.

ورغم كل الدعاية التي بذلت لإغراء المواطنين على الهجرة، فلم يستجب لهذا النداء غير عدد قليل جداً. واضطرت الحكومة البريطانية إلى تأسيس قسم الأراضي الكولونيلية والهجرة، لتعزيز المشروع وفي ١٨٣٤، أصدر البرلمان تعديل قانون الفقراء لتخصيص أموال من الخزانة لتهجير الفقراء إلى المستعمرات، فقد إكتشف المسؤولون أنه كان من الأوفر للخزانة أن تنقل الفقير المعدم على نفقتها إلى أستراليا من إعاشته في بريطانيا^(١). وهكذا إستطاعت الحكومة بفضل لجوئها إلى التمويل من ناحية والإكراه القسري من ناحية أخرى أن تنقل من إعتبرتهم «فائضاً عن السكان»^(٢). ومن الأساليب القسرية التي إتبعتها بريطانيا نقل المجرمين والعاشرات والمتسولين إلى ويلز الجنوبية الجديدة في أستراليا. وإستعملت السلطات أساليب بشعة في نقل هؤلاء التعساء إلى درجة أثارت موجة من الاستياء إضطرت السلطة إلى التخلي عن هذا الأسلوب.

وفي ١٨٥٩، إضطرت الحكومة البروسية أيضاً إلى الاستجابة لمثل هذه الاحتجاجات فأوقفت الهجرة الألمانية الجبرية إلى البرازيل بالنظر للاثام المريرة التي تحملها المهاجرون وأثاروا بها سخط الصحافة الليبرالية. ولفتت هذه التطورات أنظار تيودور هرتزل فكتب في روايته «تالأرض الجديدة القديمة» قائلاً: «إذا كان هؤلاء المجرمون التعساء يستطيعون عمل ذلك في أستراليا، فكم سيكون ذلك أسهل على الطلائع اليهود!»^(٣).

أما روسيا القيصرية فقد دعت جماهيرها إلى إعمار سايبيريا، ولكن

(١) الهجرة من أوروبا، الفصل الأول من تقرير آي. ر. أو، ١٩٥١.

(٢) آيزاك، ص ٥١.

(٣) ث. هرتزل، الأرض الجديدة القديمة، ١٩٦٠، ص ١٣٥.

مجموع من إستجاب للنداء لم يتجاوز ٢١٦,٠٠٠ شخص وإضطّر القيصر إلى تعزيز هذا الرقم بنحو ٧٠٠,٠٠٠ من السجناء والمنفيين. وفي رواية «البعث» رسم تولستوي صورة أليمة لعملية التهجير القسري، إلى سايبريا وكرس روايته في الواقع إلى هجرة أقلية الدوخار القفقاسية إلى كندا.

وأدى الازدحام السكاني في المدن الصناعية الجديدة إلى شتى أصناف العيوب الاجتماعية كمشاكل الإسكان والبطالة والإجرام والبغاء والأمراض الخ. ولم تستجب السلطات الحاكمة إلى نداءات الإصلاح. وبدلاً من التركيز على ذلك إلتفت الناطقون بلسان الطبقات الحاكمة إلى ظاهرة أخرى فأشاروا إلى اليهود وقالوا أن عدد اليهود أصبح أكثر مما ينبغي. وبناء على تحليل يوجين كوليشر^(١) نجد أن نفوس اليهود إرتفعت من نحو ٢,٥٠٠,٠٠٠ في سنة ١٨٠٠ إلى أكثر من ١٠,٠٠٠,٠٠٠ في عام ١٩٠٠. بينما إرتفع مجموع سكان العالم خلال نفس الفترة من ٨٥٠,٠٠٠,٠٠٠ إلى ١,٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠، أي أن نفوس اليهود قد إرتفعت بأكثر من ثلاثة أضعاف في حين أن نفوس العالم ككل إرتفعت بضعف واحد فقط. وتجلت هذه الظاهرة بصورة خاصة في أوروبا الشرقية حيث إرتفع عدد اليهود من ١,٥ مليون في بداية القرن إلى ٣,٤ مليون في ١٨٥٠^(٢). وبالإضافة لذلك فإن اليهود عاشوا في الأحياء والمدن التي عانت بصورة خاصة من فضائع وأوساخ الحياة الصناعية الجديدة. ففي المنطقة اليهودية من روسيا القيصرية كان ٨١,٩٪ من اليهود يعيشون في الأحياء المدنية وكان نحو ثلث هؤلاء يكسبون قوتهم من العمل كباعة متجولين وأصحاب دكاكين صغيرة^(٣) وفي غربي روسيا، بلغت نسبة اليهود العاملين كحرفيين في مدينة مغليف في ١٨٨٠ نحو ٧٨٪، وفي غرودنو نحو ٦١٪.

(١) الهجرة اليهودية، تقرير اللجنة اليهودية الأمريكية، نيويورك، ١٩٤٣.

(٢) ئي. رايمان، رهائن المدينة، لندن، ١٩٥٠.

(٣) س. شفارتز، اليهود في الاتحاد السوفيتي، ص ١٢، ٢٠.

في عام ١٨٩٣، وفي فيتبسك نحو ٧٢٪ في عام ١٩٠٣^(١). وتعود هذه النسب العالية من اليهود بين الحرفيين وصغار التجار في غربي روسيا إلى الأنظمة التي شرعتها الحكومة في ١٨٨٢ بتضييق المجال أمام اليهود للعمل في الزراعة والأرياف.

وتكرر نفس النمط في المدن الأوروبية الأخرى. ففي عام ١٨٥١، كان ٥٪ فقط من مجموع سكان فرنسا يعيشون في المدن التسع الكبرى، بينما كان ٣٠٪ من اليهود يسكنونها. وتضاعفت هذه النسبة بشكل أكبر بعد تدفق اللاجئين اليهود من الألزاس واللورين أثر ضمهما إلى ألمانيا في ١٨٧٢ وتفضيل اليهود العيش تحت الحكم الفرنسي على العيش تحت حكم الألمان^(٢). وتجمعت نفس الظاهرة بصورة أعمق في ألمانيا والنمسا كما سنبين توطأ.

وتعود هذه الكثرة النسبية لليهود بصورة أساسية إلى النظام الاقطاعي الأوروبي الذي لم يسمح لليهود بالعمل في الزراعة أو إمتلاك الأرض. وعندما جاءت الثورة الصناعية قضت على النظام الاقطاعي وقوضت الزراعة كأساس للثروة القومية وساهمت في الانفجار السكاني. وفتحت المعامل أبوابها لتشغيل المزيد من الأيدي العاملة والمتدفقة من الأرياف إلى المدن. ومن أهم التطورات التي هزت المجتمع البريطاني مثلاً، كان إكتشاف أصحاب الأراضي أن تربية الأغنام في أراضيهم لغرض الحصول على الصوف وبيعه لمعامل المنسوجات كان أكثر ربحاً لهم من زرع الأرض بالحنطة والشعير. فطردوا الفلاحين وجاؤوا في مكانهم بالغنم. وتفاقت الهجرة من الريف إلى المدينة حيث راح العاملون والعاطلون يتنافسون من أجل أي عمل يقيم أود عوائلهم. بيد أن اليهود لم يستطيعوا الانضمام إلى هؤلاء البروليتاريين للعمل في المعامل لتناقض نظام العمل الصناعي الحديث مع الطقوس والتعاليم

(١) الموسوعة اليهودية.

(٢) بيرنز، ص ٩٥.

اليهودية، وعلى الخصوص الامتناع عن العمل في يوم السبت. وبالفعل نهى
الحاخامون أبناء الطائفة من العمل في المعامل. وكان من الاصلاحات التي
حاولت إدخالها في الحياة اليهودية حركة الاصلاح اليهودي تجاوز هذه العقبة،
ولكن المحاولة لم تلق تشجيعاً كافياً. وحتى في عام ١٩٦٧ أقام الحاخامون
ضجة كبيرة اضطروا بها الكاتب نورمان كوهن على سحب كراسته «يوم السبت»
التي دعي فيها إلى العمل في هذا اليوم. وكان من الطبيعي للملك الصناعة أن ينظروا
بشزر إلى هؤلاء الذين يستنكفون من العمل في يوم السبت.

وبعد إزالة القيود عن اليهود غداة الثورة الفرنسية وشيوع الحياة اللبرالية
في أوربا، تسارع أبناء اليهود للدخول في الجامعات ونيل الشهادات وإمتهان
المهن الحرة المرموقة كالطب والمحاماة والصيدلة والصحافة والفنون. وقد
إستفاد أبناء اليهود من تقاليد التعليم والثقافة وإتقان اللغات الأجنبية مما
يرتبط إرتباطاً وثيقاً بحياة التجارة والصيرفة وتعاطي الرب، فبزوا بتحمسهم
ومعارفهم زملاءهم المسيحيين، وما هي إلا سنوات قليلة حتى غصت قوائم
المهن الحرة بالأسماء اليهودية وراح أبناء المسيحيين يعانون من هذه المنافسة
الحادة المركزة على هذه الميادين، ولاح للجميع أن عدد اليهود قد تجاوز فعلاً
حدود الإمكان والمنطق. فأعيدت الحياة لصرخة القرون الوسطى «أيها اليهود
أخرجوا من هنا».

ومع ذلك فإن المستعمرات الجديدة في أستراليا والعالم الجديد وأفريقيا لم
ترغب في إستضافة بني موسى. بإنسلاخ الولايات المتحدة من بريطانيا بعد
حرب الاستقلال، إنجهت أنظار أنكلترا إلى الشرق، نحو آسيا. وفي هذا
السياق، وقعت أنظار الاستعماريين الانكليز على الشرق الأوسط، فأخذت
أقاليم المنطقة تحتل مكانها وتتردد في الوثائق البريطانية، في حين تقاطر
المستشرقون والسياح الانكليز على حواضر العالم الإسلامي. وفي هذه الفترة
سعت فرنسا إلى التغلغل في المغرب العربي، في حين أقامت طائفة التمبلر

الألمانية مستعمراتها في فلسطين . أما أنكلترا فقد توجهت بأنظارها إلى مناطق أخرى من العالم العربي خارج فلسطين، لأن السياسة الانكليزية لم يجدوا في هذا البلد الفقير ما يعوض عن نفقات إحتلاله أو إمتلاكه أو يكون جزءاً من حزامهم التجاري .

بيد أن إحتلال محمد علي الكبير لسوريا لفت النظر إلى هذا الاقليم . وبعد إخراجها منها، طرح مصير فلسطين على الدول الأوربية الكبرى . وحدث أن كان اللورد أشلي قد وقع في تأثير فلسفة مالتوس والمشكلة السكانية فتقدم في أيلول ١٨٤٠ بمذكرة إلى بالمرستون في هذا الخصوص قال فيها : «تكاد تكون هذه الأقاليم الشاسعة خالية الآن كلياً . وفي كل عام ينخفض إنتاجها بسبب إنخفاض عدد الأيدي العاملة التي يتعين عليها زراعتها . هذه الأقاليم عديمة القيمة تقريباً كمورد للدخل، على الأقل عند مقارنتها بالثروات التي يمكن للصناعة أن تنتج منها . إنها تحتاج إلى رأس المال والعمال أيضاً» . ومضى لورد أشلي ليشير إلى رغبة اليهود في العودة إلى فلسطين، الرغبة التي لم تكن موجودة في الواقع عندئذ، ثم عرج بلهجته الإنسانية والاحسانية إلى ترشيح اليهود إلى إعمار هذا الجزء من العالم كأحسن أناس قادرين على المهمة . «هناك أسباب عديدة لتوقعنا الكثير منهم وأكثر من غيرهم ممن قد يستوطن هذا البلد . إن لديهم ذكرياتهم ومحبتهم العميقة لتلك الأرض . . . ولهم قدرة على العمل وجلادة هائلة . إنهم يعيشون ويجدل على أقفل ما يمكن . وقد اعتادوا في كل مكان تقريباً على الحكم المستبد . وبالنظر لعدم طموحهم كلياً لأي مطامح سياسية، فإنهم يحصرون آمالهم بالاستمتاع بما يجمعونه . وقد علّمت العصور الطويلة من تحمل الشقاء أبناءهم على عادات الصبر والتحمل وإنكار الذات . وسيسرهم إظهار ذلك في إعمار وخدمة بلدهم القديم .

«وإذا نظرنا إلى عودتهم في ضوء إقامة إستعمار جديد في فلسطين، فس نجد أن ذلك سيكون أسهل وأرخص طريقة لتجهيز المتطلبات لهذه

وكواحد من رواد الإصلاح الكولونيالي والمحسين الاجتماعيين، أشغل اللورد أشلي نفسه بمشاكل البطالة والفقر في بلاده. وفي خطاب عاطفي في البرلمان بشأن الأحداث والشبان، دعى إلى نقل ١٠٠٠ - ١٥٠٠ من الأحداث الفقراء، بناتاً وأولاداً، في كل عام إلى جنوبي أستراليا (٢). وما يذكر أن ناحوم سوكلو، رئيس المنظمة الصهيونية قد إعتبره من أول رواد الحركة الصهيونية. وعليه يكون اللورد أشلي قد وجد مواطنين من الدرجة الثالثة لمستعمرة من الدرجة الثالثة. وإستمر الناطقون الأغيار في إثارة عواطف اليهود نحو وطنهم القديم وتذكيرهم بواجب إنعاشه والرجوع إليه. وبعد أن أفلح الأغيار في تحريك كل الهواجس الشعورية واللاشعورية بين اليهود، تلاقف هؤلاء راية العودة إلى الوطن القديم وراحوا أنفسهم يفلسفون أفكر الانفجار السكاني وتكاثر العدد. وهكذا رأينا ثيودور هرتزل يتقدم للحكومة البريطانية التي فشل مشروعها لتهجير الفائض السكاني، فيجود عليها بالنصح، «لن تستطيعوا بالمال فقط أن تحصلوا على حركة عظيمة في نقل جمهور كبير من الناس. عليكم أن تمدوهم بمثل. عليكم أن تغرسوا في عقولهم الإيمان بمستقبلهم. وعندئذ ستستطيعون أن تحصلوا منهم التفاني في إداء أصعب الأعمال التي يمكن تصورها» (٣). وقدر لنصيحة هرتزل أن تلقى أذناً صاغية من آرثر بلفور الذي إستمع إليه فولد في نفسه ذلك الاهتمام بالصهيونية الذي مهد الطريق لإصدار وعده الشهير بعد ذلك بسنين. وحيثما ذهب هرتزل، أغدق في وعوده للحكام بأنه سيخلصهم من يهودهم بتهجيرهم إلى مكان آخر. ووصل الأمر حداً أن إهتمته الصحافة الهنغارية بتنظيم هجرة جميع يهود رومانيا في عام ١٩٠٠.

(١) ثي. هودر، حياة الأيرل السابع لشافنسيري وأعماله، لندن، ١٨٨٦.

(٢) هنسارد، مناقشات البرلمان البريطاني، ٦ حزيران، ١٨٤٨.

(٣) تصريح هرتزل أمام اللجنة الملكية للهجرة الأجنبية، تقرير اللجنة، سي.م. ١٧٤١/٥، ١٩٠٣.

ومن الواضح أن الأفكار الرجعية التشاؤمية التي سادت أوروبا في هذا الخصوص، صبغت بدورها أفكار منظري الصهيونية في مقترحاتهم. ومن ذلك أن موسى هس حذر هو الآخر من تفاقم عدد السكان وقال أن ذلك سيؤدي إلى إندلاع الحروب وعبودية الإنسان للإنسان^(١). وعلى غرار ذلك كشف هرتزل في يومياته عن إنشغال وإهتمام بهذا الموضوع فقال أنه حيثما تواجد اليهود بأعداد كبيرة، ظهرت المشكلة اليهودية. وقبل هرتزل بمدة طويلة، كرس ليو بنسكر جزءاً كبيراً من كراسته «التحرر الذاتي» لشرح الفكرة القائلة بأن المشكلة اليهودية ترجع إلى وجود عدد مفرط من اليهود. ومن هذا المنطلق قدم هذا الحل: «على أعظم وأحسن قوانا... أن نتحد بإتفاق شامل للسعي نحو الهدف المشترك. ويرمي ذلك بصورة أساسية وخاصة إلى إيجاد وطن أمين ولا يمكن التنازل عنه لإستيعاب الفائض السكاني من اليهود الذين يعيشون كبروليتاريين في الدول المختلفة ويكونون عباً على المواطنين الأصليين». وقد تحول فيما بعد منطق الضغط السكاني إلى جزء من الاستراتيجية الاسرائيلية ضد العرب^(٢). وقد ترك الصهاينة على ما يبدو موضوع تقرير مدى هذا الفائض السكاني وحدوده للأغيار بكونه «مجموع أولئك اليهود الذين يتعرضون للإضطهاد». وهكذا ظهرت أيضاً نظرية «نقطة التشرب» لتفسير وتحديد الخط الذي يتعرض فيما بعده اليهود إلى الاضطهاد. بيد أن الصهاينة لم يتفقوا حول نسبة نقطة التشرب هذه، ولكن وايزمان إعتقد أنها قد حصلت في أنكلترا مثلاً عند نهاية القرن المنصرم^(٣).

ورغم أن أوروبا إستطاعت خلال القرن التاسع عشر أن تبعث بحوالي خمس سكانها إلى المستعمرات فإن المشكلة لم تنحل كما نعلم. وفي ظل ذلك، واصلت الفئات المحافظة التمسك بفكرة تكاثر السكان وتعاضم الخطر

(١) روما والقدس.

(٢) خالد القشطيني، إلى أين إسرائيل، مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٧٠.

(٣) وايزمان، التجربة والخطأ، ص ١١٩.

الشيوعي وتفاقم أثر اليهود في البلاد على إعتبارها الأخطار الثلاثة التي تهدد المجتمع. وإذا لم تستطع الصهيونية أن تحل المشكلة بتهجير اليهود إلى أي وطن كان، فقد آن للإضطهاد المعادي للسامية أن يعالج الموقف. وهكذا جرت سلسلة من المذابح ضد يهود أوروبا الشرقية فراحوا جموعهم تتدفق على المدن الغربية بقوافل لا حد لها. ومع ذلك فيجب ألا نترك هذه المجازر (بوغروم) تطمس حقيقة التطور التاريخي الجاري عندئذ. وفي هذا الاطار نجد الظواهر التالية تتكرر في العقود القليلة السالفة للحرب العظمى ويتعاظم شأنها تدريجياً:

- إزدیاد السكان .

- إزدیاد الهجرة .

- إزدیاد المذابح .

- إزدیاد الهجرة اليهودية .

لا توجد إحصاءات بالنسبة لجميع تحركات الهجرة اليهودية لهذه الفترة، بيد أن الولايات المتحدة جمعت أرقاماً مهمة في هذا الموضوع تكشف عن مدى تصاعد الهجرة اليهودية بحد ذاتها وبالنسبة أيضاً للهجرة الكلية كما نجد من الجدول الآتي في الصفحة المقابلة :

ومن العوامل التي ساهمت في تدهور انوضع اليهودي كانت التسويات السياسية التي غيرت الخارطة الجغرافية لأوروبا. لقد أدى دمج الألزاس واللورين، كما أشرنا، بألمانيا إلى هجرة يهود هاتين الولايتين إلى المدن الكبرى في فرنسا ومن ثم المساهمة في تصعيد الأزمة الاقتصادية التي تلت الحرب. وإلى الشرق، وجد يهود البلقان الذين كانوا ينعمون بوضع مريح نسبياً تحت حكم العثمانيين، إن وضعهم قد تدهور كثيراً بتيجة معاداة السامية التي تفشت بين الحكام الجدد بعد إجلاء العثمانيين من دول البلقان. وإنطبق ذلك بصورة خاصة على رومانيا حيث كان يعيش عدد كبير من اليهود. وشرع الرومانيون بطرد اليهود إلى تركيا من كل منطقة أخرجوا منها الأتراك.

السنة	مجموع المهاجرين إلى الولايات المتحدة	مجموع اليهود المهاجرين إلى الولايات المتحدة
١٨٩٩	٣١١٧١٥	٣٧٤١٥
١٩٠٠	٤٤٨٥٧٢	٦٠٧٦٤
١٩٠١	٨٨٧٩١٨	٥٨٠٩٨
١٩٠٢	٦٤٣٧٤٣	٥٧٦٨٨
١٩٠٣	٨٥٧٠٤٦	٧٦٢٠٣
١٩٠٤	٨١٢٨٧٠	١٠٦٢٣٦
١٩٠٥	١٠٢٦٤٩٩	١٢٩٩١٠
١٩٠٦	١١٠٠٧٣٥	١٥٣٧٤٤
١٩٠٧	١٢٨٥٣٤٩	١٤٩١٨٢
١٩٠٨	٧٨٢٨٧٠	١٠٣٣٨٧

وفي إحدى هذه المناسبات تنازعت الشرطة الرومانية مع الشرطة التركية في ١٨٦٦ حول مصير مجموعة من اليهود كان كل من الطرفين يحاول سوقهم إلى حدود الآخر، حتى أُلقي بهم في الأخير في نهر الدانوب الفاصل فهلك منهم إثنان غرقاً. وكانت معاهدة برلين قد ضمنت حقوق اليهود، ولكن الحكومة الرومانية لم تنفذ هذا الجزء من المعاهدة وإعتبرت اليهود بمثابة أجنبي. وبنتيجة ذلك راح المهاجرون اليهود يتدفقون من رومانيا سوية مع المهاجرين الروس نحو إسطنبول وهنغاريا.

وإنبرى أوليفانت، أحد المغامرين من رجال الأعمال البريطانيين للاستفادة من الفرصة فتوجه إلى بخارست وأسس شركة فيها (من الشركات العديدة التي تأسست في هذه الفترة لمثل هذه المشاريع). لهجرة اليهود من رومانيا إلى فلسطين. وما إن إندلعت المجاعة في البلاد، حتى تمكنت الطبقات الحاكمة من توجيه غيظ الجماهير الجائعة إلى اليهود، فكان من أول الأعمال التي إلتجأ إليها الفلاحون الثائرون في اضطرابات مارس ١٩٠٧

أن هاجوا الأحياء اليهودية حتى سالت الدماء^(١). وفي ١٩١٣، ضمت إلى رومانيا أقاليم جديدة تحتوي على أعداد كبيرة من اليهود. وبعد الحرب العظمى ضمت إليها أيضاً ولايات بوكوفينا وترانسلفانيا وبساريا بموجب معاهدة الصلح، وإرتفع بنتيجة ذلك عدد اليهود في البلاد إلى نحو ٩٥٠,٠٠٠ نسمة. وقد عانى اليهود هناك أيضاً بسبب ذلك عن إنقطاعهم عن أسواقهم التقليدية في أوكرانيا وغربي روسيا. ونشأ موقف مشابه في أوروبا الوسطى بنتيجة معاهدة فرساي، فوجد اليهود أنفسهم مرة أخرى تقتادهم الشرطة ذهاباً وإياباً عبر الحدود الجديدة.

التشرد اليهودي

في الوقت الذي كانت فيه الحكومات الأوروبية تحاول التخلص من بعض سكانها وبنفقات كبيرة (أنفقت بريطانيا مثلاً ٤,٨٦٤,٠٠٠ جنيه إسترليني بين عام ١٨٤٧ وعام ١٨٦٩ لتشجيع الهجرة) بدأ اللاجئون اليهود يتدفقون من الشرق على المدن الغربية. لم يستطع الروس ولا الرومانيون الانتظار حتى يحقق الصهاينة شيئاً من النجاح. وبعد مذبحه كشنيف، أصدرت الحكومة القيصرية في ٢٤ حزيران ١٩٠٣ أوامرها إلى الشرطة بمنع الصهاينة من القيام بأي نشاط يخرج عن إطار الفكرة الأساسية. وهي نقل اليهود إلى فلسطين. ولا سيما منعهم من أي نشاط ثقافي يتعلق بتعزيز القومية اليهودية. واستقبل وزير الداخلية المسؤول عن الأمر، الكونت بليهف، ثيودور هرتزل في أغسطس ١٩٠٣ فقال له: «إنك لا تحتاج إلى شرح حركتكم لي. إنك تتكلم لواحد من المؤمنين بفكرتك». وفي اليوم التالي قال له الوزير الروسي، «إن إقامة دولة يهودية مستقلة تستوعب عدة ملايين من اليهود مشروع يناسبنا أكثر من أي شيء»^(٢). واتفق كلا الطرفين على مخطط مشترك يرمي إلى جر اليهود إلى تقبل مشروع هرتزل. وتم تأييد الاتفاق برسالة وجهتها الحكومة الروسية إلى المؤتمر الصهيوني تعد بتقديم «المساعدة المادية والمعنوية بالنسبة للإجراءات التي تتخذها الحركة بما يؤدي إلى خفض عدد

(١) ستون واتسون، تاريخ الرومانيين، كيمبرج، ١٩٣٤.

(٢) مذكرات هرتزل الكاملة، ج ٤، ص ص ١٥٢٣ و ١٥٣٥.

وتحدث هرتزل أيضاً إلى الكونت ولته، وزير المالية وطلب منه مساعدته في تشجيع الحركة الصهيونية. وهنا أجابه ولته: «ولكننا نشجع اليهود على الهجرة فعلاً. أولاً إننا نعطيهم كثيراً من الرفسات». ويظهر أن وزير المالية قد تصور الوجود اليهودي بأكثر من حقيقته فقال هرتزل أنهم قد بلغوا سبعة ملايين. بينما كان إحصاء عام ١٨٩٧ قد جعل ذلك بما يزيد على خمسة ملايين بقليل. وحسب ما تقوله مذكرات هرتزل، كان الكونت بليهيف يريد إخراج اليهود البروليتاريين فقط وعلى نفقة المشروع الصهيوني مع إبقاء اليهود الأغنياء والاختصاصيين وتركيزهم في مناطق معينة، وهو في الواقع ما تحقق على أيدي المنظمة الصهيونية فيما بعد كسياسة عامة. وبعد إنتهاء مداولاته مع السلطات الروسية، كتب هرتزل في مذكراته فوصف الجلاد بليهيف الذي كان مسؤولاً عن كثير من المذابح ضد اليهود والعناصر اليسارية والذي إغتاله في الأخير أحد الثوريين الروس فقال أنه كان «رجلاً لطيفاً جداً جداً» و«إنساناً عظيماً رائعاً».

وقد أثارت زيارة هرتزل كثيراً من النقد بين الأوساط اليهودية، بيد أن ذلك النقد لم يحل فيما بعد دون قيام جابوتنسكي بزيارة مشابهة بعد الحرب العظمى إلى بولونيا ومقابلة زعيمها الفاشي بلسودسكي والتحدث إليه عن نفس المشروع لتهجير اليهود البولونيين إلى فلسطين. وبعد أن تعهد الجنرال سلاوي - سكلادكوفسكي رئيس الحكومة البولونية، لوفد صهيوني آخر في ١٩٣٦ بتقديم كل المساعدة والتشجيع، شبه بلسودسكي بالنسبة لهجرة اليهود بالنبي موسى^(٢).

ومع ذلك فلم يتوجه المهاجرون اليهود إلى فلسطين كما كان المرجو، وإنما قصدوا المدن الأوربية الكبيرة. ووصف المستر لونغ، رئيس مجلس

(١) مذكرات ثودور هرتزل بتحرير لونتال، لندن، ١٩٥٨، ص ٣٩٨.

(٢) ج. شختمان، مقاتل ونبي، نيويورك، ١٩٦١، ص ٣٥٥.

الحكومة المحلية في بريطانيا جموع المهاجرين الجدد بكونها «إضافة غير مستحبة للسكان» قلبت كل حسابات الحكومات الأوربية في هذا الشأن. وفي ٢ مايس ١٩٥٥، تحدث آرثر بلفور إلى البرلمان البريطاني فعبّر عن حيرته إزاء الموقف الجديد «أيفترض فينا أن نؤمن بأن هؤلاء أحسن من نفس مواطنينا، دمنا ولحمنا، الذين نجبي الضرائب من أجل التخلص منهم؟» وما إنتهى من خطابه حتى بادرت حكومته إلى سن قانون جديد يحدد هجرة الأجانب إلى الجزر البريطانية. . وسارعت الحكومات الأخرى بما فيها الحكومة الأمريكية إلى إصدار قوانين مشابهة للحد من دخول اليهود.

وصاحبت هذه التشريعات موجات من الحملات الإعلامية التي عزت انتشار البغاء والإجرام والاحتياال والأمراض والبطالة والقذارة إلى المهاجرين الجدد. ومن الطريف أن نلاحظ أن كل عدد اليهود الذين دخلوا بريطانيا في تلك الفترة لم يتجاوز ٧٠٠٠ شخص في حين بلغ مجموع المهاجرين الملونين الذين دخلوا البلاد في ١٩٦١ فقط نحو ١٢٥,٠٠٠.

وقد إنبرى اليهود اللبراليون والاشتراكيون لمقاومة هذه التشريعات وفضح زيف دعواها، فذكر مثلاً ستوارت صموئيل أمام البرلمان أن مشكلة السكن كانت موجودة قبل مجيء اليهود. ولفت النظر إلى أن نسبة إزدحام السكن في منطقة هولبورن بلندن كانت ٣٤,٢ ٪ في حين لم يتجاوز عدد الأجانب ٣,٢٩ ٪ فقط من السكان بينما كانت نسبة إزدحام السكن في منطقة وايت تشبل اليهودية ١٢ ٪ فقط مع نسبة من الأجانب في حدود ١٨ ٪. والواقع أن تقرير اللجنة الملكية في الموضوع أظهر في أكثر من مناسبة أن الشكاوى التي كان يثيرها معادو السامية لم تنطبق على الوقائع أو تواجد العديد من اليهود الأجانب. وأيد التقرير أن أمثل هذه العيوب الاجتماعية إرتبطت في الواقع مع المشاكل التي كانت تعيشها الطبقة العاملة.

وعلى كل، فلتحاشي تفاقم المشاكل المرتبطة بكثافة السكان اليهود، إقترح توزيع القادمين اليهود ونشرهم بين المدن المختلفة حيث يمكن ذوبانهم

وإن دماجهم بصورة أسهل . وبالإضافة إلى النشاطات الخيرية لمساعدة هؤلاء المشردين وإعادة توطينهم ، وجهت الحكومات والمنظمات نداءات متواصلة إلى سلطات أوروبا الشرقية لتحسين أوضاع اليهود والكف عن تهجيرهم بالعنف . بيد أن مثل هذه الاجراءات لم ترق للمحافظين والمعادين للسامية ، فالأعمال الخيرية وتوطين اليهود يتطلب نفقات وضرائب ، والضغط على الحكومة الروسية يؤدي إلى تعقيد العلاقات معها ، ولا سيما أثناء الحرب العظمى .

وإنشقت الآراء في أنكلترا بين الأحرار الذين آمنوا بمبدأ «دعه يعمل ، دعه يمر» ومثلوا مصالح أرباب الصناعة الذين رحبوا بمجيء مزيد من الأيدي العاملة الرخيصة وبين المحافظين الذين مثلوا بصورة عامة الأرستقراطيين والمزارعين ممن عارضوا دخول الأجانب وما يترتب عليه من بطالة ومشاكل إجتماعية تستنزف الضرائب . وفي هذا الانقسام في الرأي ، وجد المحافظون خير نصير لهم في الصهانية الذين دعوا إلى توجيه الهجرة إلى فلسطين وآمنوا بأن أوروبا ليست الموطن الشرعي لليهود . وعندما ألقت حكومة آرثر بلפור لجنة ملكية للنظر في الموضوع ، دعت ثيودور هرتزل رئيس المنظمة الصهيونية عندئذ ، ليقدم شهادته في تأييد وجهة نظر المحافظين . وسارع اللورد روثشيلد إلى دعوة الزعيم الصهيوني لمقابلته وبذل قصارى جهده أثناء المقابلة ليثني هرتزل عن عزمه دون جدوى . ورد الرائد الصهيوني على ذلك بقوله ، «وبالمناسبة ، إنني سأكون واحداً من أولئك الأشخاص الأوغاد الذين ستقيم لهم الطائفة اليهودية الانكليزية تمثلاً لإعترافاً منها بفضلها في إنقاذها من تدفق يهود أوروبا الشرقية»^(١) . وخلال تحريات اللجنة الملكية ، تقدم هرتزل بشهادته التي قال فيها أن أولئك اليهود سيكونون «عبأ ومشكلة» لبريطانيا . وقد سر رئيس اللجنة بهاتين الكلمتين وإستخدمهما في تقريره الداعي إلى تقييد دخول الأجانب . والواقع أن هرتزل سبق له في كراسته «الدولة

(١) مذكرات هرتزل .

اليهودية» أن أكد للعالم أن معاداة السامية تتفجر وتصاحبها شرور عميمة حيثما ذهب اليهود بأعداد كبيرة.

وشرح هرتزل للجنة وفيما بعد لآرثر بلفور نفسه، أن الحل الوحيد للتخلص من اليهود يكمن في تفرغهم إلى موطن خاص بهم. وقد أعجب بلفور بأقواله وسارع بعد قليل إلى عرض تنغاينكا على الصهاينة ليقموا فيها دولتهم.

قاد الحملة ضد دخول اليهود النائب المحافظ، السير وليم إيفانس غوردن الذي حاول وضع كل عقبة ضد مجيء اليهود من أوروبا الشرقية. وكان مما قاله أن عدداً كبيراً من ذكورهم كانوا مجرمين وعدداً كبيراً من إناثهم كن عاهرات^(١). والتقى السير وليم بعد بحاييم وايزمان الذي شرح له الفكرة الصهيونية فأعجبه وأعطاهها تأييده. وكتب وايزمان في مذكراته عن هذا الرجل الذي لعنه كل يهود أنكلترا فقال «أعتقد أن شعبنا كان غير عادل في حكمه عليه»^(٢) ونشط وكلاء المنظمة الصهيونية في لندن وفيينا وباريس وهامبورغ وغيرها من كبريات المدن الأوروبية يحضون اليهود على ترك أوروبا والسفر شرقاً إلى فلسطين. وهكذا صيغ هذا التحالف بين الحركة الصهيونية والداعين إلى الهجرة من المفكرين والساسة الأغيار.

وتفاقت الأزمة بشكل أكبر في أواسط القارة الأوروبية حيث كان المهاجرون اليهود يلقون عصا ترحالهم لأول مرة بعد مغادرة أحيائهم في أوروبا الشرقية. وكانت الحكومة الحاكمة في إمبراطورية النمسا والمجر حكومة لبرالية عز عليها أن تصدر تشريعات لمنع دخول اليهود، والاصطباغ بصبغة معاداة السامية التي إصطبغت بها حكومة بلفور. وبعين الوقت لم تشعر بالارتياح من إضافة هذه الأعداد الجديدة إلى مجموع اليهود الموجودين. هكذا واجهت هذه الحيرة الممضة. وإلى نجدة الحكومة، خف هرتزل فقصد فيينا واجتمع برئيس

(١) هانسارد ٢٩ كانون الثاني ١٩٠٢.

(٢) وايزمان، التجربة والخطأ، ص ١١٩.

الوزراء كوربر وعرض عليه نفس الوصفة الصهيونية. وأخبره بنصيحة دوق بادن الكبير بأن يسعى هرتزل لمقابلة السلطان العثماني، والحصول منه على فرمان بالسماح لليهود بإستيطان فلسطين. ووعد رئيس الحكومة النمساوية بأن يبذل قصاره لتسهيل المهمة الصهيونية. وأعطى وزير الخارجية، الكونت غولشوسكي تأييده وتشجيعه للصهاينة في كل نشاطاتهم^(١). وذكرت الصحافة الغاليسية أن هرتزل تحدث إلى يهود غاليسيا فقال أن مثيراً إنكليزياً وعد بدفع ١٥٠ مليون غلدن لهجرة يهود غاليسيا إلى فلسطين. ولكن الحكاية كذبت فيما بعد، ولم تكن الأولى من نوعها في تاريخ الحركة^(٢). وحظي هرتزل بتأييد مشابه في ألمانيا حيث ناصر القيصر ودوق بادن الكبير مشاريعه. وتبنت الحكومة الألمانية في تلك الفترة سياسة مؤيدة للصهيونية في الوقت الذي أثارت فيه الهجرة من أوروبا الشرقية مخاوف الألمان^(٣)

ومن الممكن تقفي جذور الميول الصهيونية لكثير من اليهود والأغيار معاً إلى هذه الفترة التي تفاقمت فيها معضلة اللاجئين والمهاجرين اليهود. ومن أول الأمثلة على ذلك آرثر بلفور الذي تبنى مشروع قانون الهجرة الأجنبية المشار إليه آنفاً. وقد كشف عن مشاعره وأفكاره في هذا الموضوع بتصريحه إلى البرلمان في تموز ١٩٠٥ عندما وصف اليهود بأنهم «ليسوا شعباً منعزلاً ويمارسون ديناً يختلف عن دين الأكثرية العظمى من زملائهم في البلاد وحسب، ولكنهم يتزاوجون أيضاً فيما بينهم»^(٤). وقد وصف أحد الناطقين الصهاينة، م. سافير، في المؤتمر الصهيوني السابع بلفور بأنه يمارس «سياسات معادية للسامية بشكل مكشوف وضد جميع الشعب اليهودي». وبعد سنة واحدة إلتقى وايزمان بالمستر بلفور وكان بلفور قد خصص ربع ساعة للإجتماع، ولكنه وجد نفسه مشدوداً لكلمات الزعيم الصهيوني بحيث

(١) إسرائيل كوهن، ثيودور هرتزل، لندن، ١٩٥٩.

(٢) نفس المصدر، ص ١٣٥.

(٣) تاريخ التأسيس للحرب، ج ١٤، ص ٣٢٢.

(٤) هانارد، ١٠ تموز ١٩٠٥.

استمر الاجتماع لساعة كاملة تفهم خلالها بلفور جدارة المشروع الصهيوني، وإيجاد ملجأ لليهود^(١). وبناء على ما كتبه وايزمان، يتضح أن رئيس الوزراء قد إهتم إهتماماً واضحاً في الفكرة، ولكنه لم يستطع أن يفهم تعلق اليهود بفلسطين بالذات، في الوقت الذي كانت فيه تقع خارج المخططات البريطانية. بيد أن هذا الموقف تغير سراعاً بعد ١٩١٤ عندما وقعت فلسطين ضمن الطموحات الامبراطورية لأنكلترا فتحول بلفور إلى جانب فكرة عودة اليهود إلى أرضهم المقدسة.

وكان لويد جورج من الشخصيات الأخرى التي مالت نحو نفس المشروع بعد مغازلة عملية مع الصهيونية في ذات الفكرة عندما كلفته المنظمة الصهيونية العالمية كمحام بدراسة الجوانب القانونية من مشروع إسكان اليهود في تنغانيكا في ١٩٠٣. وبعد أربع عشرة سنة، قدر للحكومة التي ترأسها لويد جورج أن تصدر الوعد التاريخي لليهود.

وإذا كان هذان السياسيان قد عرف عنها الميل نحو معاداة السامية، فإن ونستن تشرشل لم يحمل مثل هذا الشعور وكان من المعروف عنه تعاطفه مع اليهود. ومع ذلك فمن الممكن الرجوع بجذوره الصهيونية إلى نفس الفترة أيضاً. وفيها غير تشرشل ولاءه من حزب المحافظين إلى حزب الأحرار، ولكنه رغم ذلك دعى في البرلمان إلى سن القانون الذي يمنع اليهود من التدفق إلى أنكلترا في كانون الأول ١٩٠٤ وحث الحكومة على تبني مخططات هرتزل. وحتى بعد التصفيات الجماعية النازية لليهود، عارض تشرشل دخول المهاجرين منهم إلى الجزر البريطانية^(٢).

ومن الشخصيات الطريفة التي انضمت إلى الحركة الصهيونية وأصبحت من عناصرها المتطرفة الكولونيل رشارد ماينرتزهاغن، الذي لم يكن في الواقع

(١) وايزمان، التجربة والخطأ، ص ١٤٣.

(٢) أو. رابينوفسكس، ونستن تشرشل والمشاكل اليهودية، نيويورك، ١٩٦٠.

يهودياً. لقد عمل ماينرتزهاغن كضابطٍ مخبراتٍ للجيش البريطاني في روسيا وأفريقيا الشرقية وفيهما إطلع عن كتب على مشكلة المهاجرين اليهود ومشاكل إسكانهم وما تخلل ذلك من مجازر ضدهم. وفي أفريقيا الشرقية وجد نفسه جزءاً من مجموعة الأوربيين البيض الذين عارضوا نقل اليهود إلى تنغانيكا في مشروع ١٩٠٣. وكان من الأصوات العالية ضد الفكرة وكتب في مذكراته فقال: «سيزيد هذا المشروع الاضطراب السياسي، ويعلم الله كم ستظهر من مشاكل في الخمسين سنة القادمة عندما يتشف المواطنون الأصليون. اليهود أناس لا يمتزجون بسهولة. لم يكونوا قط كذلك»^(١). وحالما عين ضابطاً سياسياً أقدم لسوريا وفلسطين في ١٩١٩، وقع في غرام البرنامج الصهيوني وأصبح من أكثر المتطرفين عنفاً ضد العرب. وأثارت تصرفاته وأقواله في هذا الاتجاه كثيراً من المشاكل للإدارة البريطانية حتى اضطرت إلى التخلص منه. ولكنه عاد إلى لندن ليتطوع في الدفاع عن الصهيونية بمناسبة وبدون مناسبة.

وفي الولايات المتحدة، وجدنا مثلاً آخر في شخص القاضي لويس براندس، رئيس المحكمة العليا الأمريكية. لقد كان أولاً من اليهود المندمجين إندماجاً كاملاً بالمجتمع الأمريكي. ولم يظهر أي إهتمام بالشؤون اليهودية أو الفكرة الصهيونية. بل كان في الواقع معارضاً لمثل هذه الأفكار ورأى أن أي تفرقة قائمة على أسس دينية «تعارض مع مثل الأخوة الأمريكية وتعبّر عن عدم ولاء»^(٢) ولكنه غير موقفه في ١٩١٢ وانضم للحركة الصهيونية وأصبح من أبرز قادتها في الولايات المتحدة. وفي ١٩١٩ روى لبلفور كيف تحول إلى جانب الصهيونية بنتيجة «تشريد أعداد كبيرة من اليهود، ولا سيما من أوروبا الشرقية، وتدفعهم على الولايات المتحدة»^(٣). وفي أحد الخطب التي ألقاها في ١٩١٤، أثنى براندس على الدور الذي قام به اليهود في حياة أمريكا ثم

(١) ر. م. ماينرتزهاغن، مفكرة الشرق الأوسط، لندن، ١٩٥٩.

(٢) آ. ت. ميسون، حياة رجل حر، نيويورك، ١٩٤٦، ص ٤٤٢.

(٣) إستهاد في شتاين، ص ١٩٢.

تساءل: «أمن المصلحة أن تصبح أمريكا البلد الوحيد عملياً الذي يتوجه إليه يهود أوروبا الشرقية؟ ألا يجدر أن تفتح فلسطين صدرها، كما يقترح الصهاينة، لترحب بصورة خاصة باليهود؟»^(١).

وخلال الأزمة الاقتصادية في العشرينات، دوت نفس الصيحة القديمة لتهجير العاطلين من العالم القديم. وأصبح من أول المناادين بذلك في ١٩٢٧ اللورد ملشت. وسرعان ما وجدناه ينجرّف هو كذلك بعد قليل مع موجة الحركة الصهيونية وينغمر بشؤونها ثم يصبح رئيساً للوكالة اليهودية وينادي بتهجير ثلاثة ملايين يهودي إلى فلسطين.

بيد أن الحرب قلبت الوضع في أوروبا رأساً على عقب. وفي روسيا تسلم الحكم البلاشفة الذين رفضوا ماركسياً جميع أفكار الفائض السكاني وضرورة تهجيريه. وبارتقائهم إلى الحكم ختموا على مصير الهجرة اليهودية من ذلك الجزء من العالم - على الأقل حتى عهدنا هذا. وبإنغلاق البوابات بين الشرق والغرب، إختفت أشباح الجموع اليهودية المهاجرة غرباً، وبإختفائها تلاشى الاهتمام بالصهيونية. وبدأ للبعض أن الحكومة البريطانية نفسها كانت على أبواب تحنيط وعد بلفور ووضعه في المتحف. وراح الصهاينة يهتمون الإدارة الانكليزية بوضع الصعوبات أمام البرنامج الصهيوني والهجرة إلى فلسطين. بينما أدارت الولايات المتحدة ظهرها كلياً للشرق والعالم الخارجي. ولاح للمراقبين أن المشروع الصهيوني برمته أخذ بالانهيار والتلاشي، كما يتضح من الجدول التالي. وفي عام ١٩٢٧، خرج من فلسطين يهود أكثر ممن دخلها بمقدار ٢٣٥٨ مهاجراً.

(١) براندس عن الصهيونية، ص ٥٥.

السنة	مهاجر من فلسطين	مهاجر إلى فلسطين
١٩٢٢	١٥٠٣	٧٨٤٤
١٩٢٣	٣٤٦٦	٧٤٢١
١٩٢٤	٢٠٣٧	١٢٨٥٦
١٩٢٥	٢١٥١	٣٣٨٠١
١٩٢٦	٧٣٦٥	١٣٠٨١
١٩٢٧	٥٠٧١	٢٧١٣
١٩٢٨	٢١٦٨	٢١٧٣

هتلر يدخل الميدان

سرعان ما تغير الخط البياني للهجرة إلى فلسطين بشكل مثير إذ إرتقى ادولف هتلر إلى دست الحكم . ونجد الأرقام تتغير بهذا النمط :

المهاجرون اليهود إلى فلسطين

١٩٣١	٤٠٧٥
١٩٣٢	٩٥٥٣
١٩٣٣	٣٠٣٢٧
١٩٣٤	٤٢٥٥٩
١٩٣٥	٦١٨٥٤
١٩٣٦	٢٩٧٢٧

كانت ألمانيا من أكثر الدول التي عانت من مشاكل ثورتها الصناعية بعد الحرب العظمى . فمن ناحية خسرت كل ممتلكاتها في أفريقيا وأغلقت في وجهها الأسواق العالمية المربحة ، ومن ناحية أخرى تفاقمت المنافسة بين طبقاتها الصناعية والرأسمالية والبتى برجوازية بشكل عنيف . وارتفع سكان ألمانيا بنسبة

معدلها ١٣,٩٪ من ٥٦,٤٠٠,٠٠٠ في ١٩٠٠ إلى ٦١,١٥٣,٠٠٠ في ١٩٢٠ ثم إلى ٦٩,٦٤٠,٠٠٠ في ١٩٣٩، بحيث أصبحت الكثافة السكانية في الأخير بمقدار ١٤٧,٩ شخصاً للكيلومتر المربع في ١٩٣٩، وهو ما يفوق جميع الدول الأوروبية باستثناء هولندا وبريطانيا وبلجيكا، وهي الدول الثلاث التي كانت تمتلك مستعمرات وأسواقاً غنية عبر البحار. وكانت نسبة السكان الذين يعيشون في المدن، والذين يوجد اليهود بينهم، قد وصلت ٦٩,٩٪. ولم يضاهاها في ذلك غير الدول الأوروبية الثلاث المذكورة. وقد انخفض سكان الريف في ألمانيا من ١٥,٩ مليوناً إلى ١٣,٧ مليوناً خلال نفس الفترة^(١). بينما ارتفع مجموع من يعيشون على التجارة والخدمات بمقدار الضعف بين ١٨٨٢ و ١٩٣٩. ولم يكن لألمانيا أقاليم مثل سيبيريا أو أستراليا لتفرغ فيها الفائض السكاني، بل على العكس أضيف إلى الشعب الألماني حوالي ١,٣٧٧,٠٠٠ مهاجر من الأقاليم التي اقتطعت منها وضمت إلى الدول الأخرى حسب إحصاء ١٩٢٥.

وفيا ناضل الاشتراكيون بتوزيع الثروة والدخل بشكل أعدل وإستيلاء الدولة على مصادر ووسائل الإنتاج للتغلب على المشاكل والأزمات التي عاشتها ألمانيا، ظهر الحزب النازي ليقدم حلاً بديلاً فيطالب بمكان للعيش. وفي نيسان ١٩٢٤، أودع أدولف هتلر السجن في قلعة لاندسبرغ، وفيها راح يكتب إنجيل الحركة النازية «كفاحي»، وتحدث في الفصل الرابع منه عن مشاكل ألمانيا فلاحظ أن سكان البلاد كان يزداد بمقدار ٩٠٠,٠٠٠ نسمة في كل عام. وقال: «أن مصاعب توفير العيش لهذا الجيش من المواطنين الجدد لا بد تتصاعد من سنة إلى سنة». وتعرض هتلر للحلول المختلفة الممكنة لحل هذه المعضلة وتوصل إلى أن العلاج الوحيد المفتوح أمام بلاده هو في أن تسعى للحصول على أراض جديدة تستطيع أن تفرغ فيها الفائض من السكان. وبالطبع كانت هناك عوامل أخرى حملت الزعيم النازي نحو مثل هذا الهدف، بيد أن الشعور بالانحباس (كلوسترفوبيا) كان ظاهراً في كتاباته

(١) د. كرك، سكان أوروبا بين الحربين.

ويكشف عن توجه مبكر إلى وسيلة التخلص من السكان الفائضين. ولم يكن هناك غير وسيلتين متيسرتين أمامه، الأولى عن طريق الاستيلاء على مناطق جديدة والأخرى عن طريق قذف بعض السكان وراء الحدود. وأدى الأسلوب الأول إلى الحرب العالمية الثانية وأدى الحل الثاني إلى تشريد اليهود وأخيراً نصب أفران الغاز للقضاء عليهم. وهكذا إكتشفنا من وقائع جلسات مؤتمر برلين المنعقد في تشرين الثاني ١٩٣٧، أن هتلر دعى إلى ضم النمسا وتشيكوسلوفاكيا إلى ألمانيا وطرد مليون شخص من الأولى ومليون شخص من الثانية وتخلية مناطقهم ليحل فيها المهاجرون من ألمانيا^(١).

وترجع جذور معاداة السامية عند هتلر إلى أيام تلمذته في فيينا عندما كانت هذه العاصمة مركزاً أساسياً للفكر والفن في أوروبا، واحتل اليهود فيها حيزاً كبيراً بين القطاعات العاملة في هذا الميدان والتي كانت تجابه المنافسة الشديدة المعروفة عن هذه القطاعات. وكانت أول صدمة تلقاها في هذا الحقل عندما رفضت أكاديمية الفنون الجميلة قبوله. وعبر عن شعوره بهذه الكلمات «لقد شعرت لأول مرة في حياتي بأنني مستاء من نفسي». وأضطر عندئذ إلى العمل كعامل بسيط يعاني من خيبة الآمال ومذلة العيش. ولم يفكر هتلر بأن العيب كان في النظام الذي لم يفتح مدارس فن كافية أو مجالات عمل واسعة للفنانين، وإنما إنصرف ذهنه إلى أن اليهود أخذوا كل الأماكن الجيدة. ولاحظ أيضاً أن جل الفنانين اليهود كانوا يميلون، ربما بحكم التقاليد اليهودية والوصايا العشر، إلى الفن التجريدي والبعيد عن التمثيل الواقعي للحياة، فصب حقه إلى نهاية حياته على الفن الحديث، فن اليهود والعابثين، كما أعتقد.

والواقع أن المنافسة الحادة التي جابهها هتلر في مطلع حياته كانت جزءاً صغيراً من خضم المنافسات الرأسمالية والمهنية التي حفرت آثارها العميقة في المجتمع. وكانت النسب العالية لتواجد اليهود في هذه القطاعات في ألمانيا

(١) وثائق السياسة الخارجية الألمانية، ١٩٣٨ - ١٩٤٥، السلسلة د، ج ١، ص ٢٩.

أكثر حدة منها في روسيا القيصرية. لقد كان ٧٠٪ من اليهود الألمان يعيشون في المدن الكبرى. وبينما كانت نفوسهم لا تشكل أكثر من ١٪ من مجموع الشعب، كان اليهود يكونون ١٦٪ من المحامين وكتاب العدل و ١٣,٣٪ من الوكلاء القانونيين و ١٠,٩٪ من الأطباء و ٨,٦٪ من أطباء الأسنان و ٣,٦٪ من الصيادلة و ٢,٣٪ من الكيماويين و ٥,١٪ من الكتاب. وفي برلين نفسها، كان نصف المحامين وربع الأطباء من اليهود. واحتل اليهود نسباً أكثر حدة بين الطبقة الرأسمالية حيث أشغلوا ٥٢,٣٪ من المناصب والنشاطات المصرفية في عام ١٩٢٨ وملكوا ٤٠٪ من منشآت النسيج الكبرى في عام ١٩٣٠. وارتفعت هذه النسبة إلى ٦١٪ في برلين و ٩٠٪ في أوفنباخ. وبالطبع أصابت أزمة ١٩٣٠ الاقتصادية بشرورها الطائفة اليهودية بنتيجة ذلك بشكل مريع. ففي ١٩٣٢ سجل ٨٣,٠٠٠ كاسب يهودي أسماءهم لدى مكتب العمل اليهودي كعاطلين من مجموع ٢٧٠,٠٠٠ كاسب يهودي. واضطر قسم من هؤلاء العاطلين إلى التدرب على الأعمال الزراعية، التي كانت تحتل مركز الصدارة في برامج العمل الصهيونية. ولاح للناس أن طرد اليهود سينفس بعض الشيء من الأزمة المستأصلة. ولاحظوا في عين الوقت نفس الظاهرة التي لوحظت في روسيا القيصرية وهي أن اليهود كانوا يتكاثرون بنسبة تفوق تكاثر بقية السكان حتى عام ١٩٢٥^(١). وكان من أول اللوائح التي أصدرها هتلر بعد أن أصبح مستشاراً لألمانيا، لوائح نورنبرغ التي منعت اليهود من العمل في المهن الحرة فيما منعه، ومهدت الطريق للتخلص منهم كلياً.

وحسب قول جerald رايثلنغر، المؤرخ المختص في هذا الموضوع، كان شعار «الحل النهائي» الذي تبني النازيون في حق اليهود يعني بالنسبة لهتلر حتى عام ١٩٤١ مجرد تهجير اليهود من ألمانيا^(٢). وأصبح السؤال بالنسبة

(١) حرب العشر سنوات لهتلر ضد اليهود، تقرير لمعهد الشؤون اليهودية للكونغرس اليهودي الأمريكي، نيويورك، ١٩٤٣، ص ٦ - ٨.

(٢) ج. رايثلنغر، الحل النهائي، لندن، ١٩٥٣، ص ٣.

للنازيين، أين يمكن تفريغ اليهود؟ ويروي رايتلنغر في كتابه القيم «الحل النهائي» كثيراً من القصص المضحكة المبكية المرتبطة بمحاولة الألمان التخلص من هؤلاء اليهود. قبل إتفاقية ميونيخ مع تشامبرلن، بقليل، حاول الألمان قذف ٦٠,٠٠٠ يهودي من التبعية البولونية وراء الحدود الألمانية البولونية. وأسرعت الحكومة في وارسو إلى إبطال جوازات سفرهم. واضطرت الدولتان إلى الدخول في مفاوضات طويلة فيما دأب شرطة الطرفين إلى تسفير اليهود عبر الحدود من جهة إلى جهة وبالعكس. وفي تشرين الثاني، ١٩٣٨، جرى إغتيال الفون روث، أحد الدبلوماسيين الألمان في باريس من قبل شاب بولوني كان أبواه ضمن أولئك الستين ألف مسكين. وأثار هذا الاغتيال غيض هتلر بشكل عنيف أدى إلى موجة عارمة من الاعتداءات ضد اليهود ومتاجرهم. ومن أشقى الحوادث ما جرى بين الحرس الألمان والروس عندما رفض اليهود قبول رهط من اليهود وأعادوهم من حيث أتوا إلى ألمانيا. وفي أوج المشادة الحدودية أطلق الحرس الألمان النار على المطرودين التعساء.

ومن هذه المنطلقات شرع الألمان بإجراء مفاوضات مع الانكليز في نيسان ١٩٣٩ بشأن تهجير اليهود إلى روديسيا وغيانة البريطانية، ولكن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة عملية. وفي حيرتهم وتبرمهم، عمد النازيون إلى تسفير اليهود إلى فلسطين وأمريكا اللاتينية بجوازات سفر وسمات دخول مزيفة. وأشرف على هذه العملية آيخمان نفسه. ولا بد أن شعر بمهازل القدر عندما وجد نفسه فيما بعد يحاكم من قبل أولئك الذين ساعد في تسفيرهم إلى فلسطين.

وجابه الألمان مشكلة أخرى لا تقل صعوبة من حيث الجوانب المالية لتهجير اليهود. وحاول الألمان تطبيق الوسيلة الصهيونية بأن يجعلوا الأغنياء يدفعون تكاليف تسفير المعدمين. ولاحظت برلين أن العملية أخذت تستنفذ عملاتها الأجنبية، فبعثت بخبيرها المالي شاخت إلى لندن ليعرض على الحكومة البريطانية مشروعاً متكاملأ عرف فيما بعد بخطة شاخت. وتضمن

المشروع تجريد الممتلكات اليهودية في ألمانيا كضمان لقرض دولي يقدم لغرض تسفير اليهود وتوطينهم في الخارج. ولكن هذا المشروع أيضاً لم يوضع موضع التطبيق.

وبعد هزيمة فرنسا تحمس شاخت لمشروع آخر ينطوي على تهجير أربعة ملايين يهودي إلى مدغشقر، وهو مشروع فاق أي شيء نجح الصهاينة في تحقيقه. وعندما التقى هتلر بموسوليني، تباهى الزعيم النازي بأنه سيحقق إقامة «دولة إسرائيل في مدغشقر» بعد قليل^(١). بيد أن ألمانيا اضطرت إلى تأجيل المشروع بعد إنشغالها بغزو الاتحاد السوفيتي. وحتى في أشد مراحل تطبيق «الحل النهائي» التي تضمنت التصفية الجسدية، إستمر النازيون بتسهيل مهمة الصهاينة في تهريب اليهود إلى فلسطين عن طريق رومانيا. وبناء على ما أفاده الفريق أنطونسكو، أعطاه هتلر ترخيصاً في نيسان ١٩٤٣ بتسفير ٧٠,٠٠٠ طفل يهودي إلى فلسطين^(٢). ومن المعلوم أيضاً أن الكونغرس اليهودي العالمي كان يتفاوض سراً مع الألمان لهجرة ١٠٠,٠٠٠ يهودي مقابل تزويد الألمان بشاحنات وتجهيزات. ومن هذه الزاوية يتضح أن ألمانيا الهتلرية كانت من أحرص الدول على تحقيق الشعار الصهيوني في «إقامة حكم يهودي تحت حماية دولة كبرى». بيد أن الألمان جابهوا نفس المصاعب التي جابهتها الحركة الصهيونية لسنين عديدة من حيث عدم إكتراث الدول الكبرى في تلك الفترة، عدم وجود وطن قومي مفتوح الأبواب بحرية، وعدم توافر الأموال الكافية للعملية. ولو أن إندلاع الحرب تأخر بضعة أشهر. أو أنها إنتهت بنتيجة مختلفة، لربما وجدنا الدولة اليهودية تقوم على أكتاف ألمانيا الهتلرية وبرعايتها.

ومع ذلك فهناك شيء من الشذوذ في إضطهاد الألمان لليهود من حيث أن ذلك الاضطهاد جرى في البلد الذي ظهرت فيه حركة الإصلاح الديني

المفتدين

(١) نفس المصدر ص ٧٨.

(٢) نفس المصدر ص ٤٠٦.

اليهودي التي إستهدفت فيما إستهدفته إليه، تطبيع حالة اليهود ومعهم بمجتمعاتهم التي يعيشون فيها، وإزالة الفوارق بينهم وبين غيرهم. كان اليهود الألمان في طليعة الحركة التي رمت إلى تحرير اليهود من أعباء العقد النفسية القديمة وتبعة الماضي الأليم. مثل هذه المحاولات تتطلب فترة زمنية للنضوج والتثبيت وتعرض للإنهيار لدى أول إثارات أو إحباطات. وما إن بدأ اللاجئون اليهود يطوفون العواصم الأوروبية بحثاً عن ملجأ، حتى إستقبلهم الصهاينة بكلمات: «ألم نقل لكم؟». وبالفعل تولى حايم وايزمان، الدبلوماسي البار في إقناعه، رئاسة المكتب المركزي لتوطين اليهود الألمان. وأسرع إلى سويسرا للإتصال باللجنة السويسرية والسعي لإغراء المهاجرين الألمان بالتوجه إلى فلسطين. وركز وايزمان جهوده بصورة خاصة على العلماء والخبراء بين المهاجرين من أمثال الأستاذ فلستاتر والأستاذ باير والعالم فرتز هابر وجيمس فرانك. بيد أن جميع هؤلاء والكثير من العلماء الآخرين رفضوا هذه الدعوة. وقال له فلستاتر، الحائز على جائزة نوبل: «أنا أعرف أن ألمانيا قد أصيبت بالجنون. ولكن إذا تمرضت الأم فليس للأولاد أي عذر في التخلي عنها. وطني هو ألمانيا... ولا بد أن أعود إليه»^(١). أما سغموند فرويد، فقال له أنه كعالم لا تعنيه الصهيونية أو اليهودية في شيء. وبعد أن أصبح نورمان بنتويتش مدير الهجرة للمجلس اليهودي الألماني، ذهب إلى ألمانيا وكتب في مذكراته، «القطاع الوحيد الذي كانت له سياسة إيجابية هو القطاع الصهيوني وكانت الأفكار الصهيونية تنتشر كالنار في الهشيم بين الشبيبة. وكان النازيون في تلك الفترة من الاضطهاد المعتدل يتقبلون أماني الصهاينة وسيهلون بشكل ما تحقيقها»^(٢). إنها نفس قصة روسيا القيصرية تعيد نفسها.

وبعثت الوكالة اليهودية برئيس دائرتها السياسية، حايز أرلوفز

(١) وايزمان، التجربة والخطأ، ص ٤٣٤.

(٢) ن. بنتويتش، تائه بين عالمين، لندن، ١٩٤١.

للتفاوض مع الحكومة الهتلرية على إتفاقية لنقل اليهود، وهي الاتفاقية التي عرفت بالهافارا. وتضمنت الاتفاقية ما يلزم من الترتيبات المالية لهجرة اليهود الألمان. وانتقد الكثيرون، ولا سيما بين الأوساط اليسارية، هذه الاتفاقية واعتبروها مثلاً آخر من أمثلة التعاون بين النازية والصهيونية. ودعيت المنظمة الأممية الاشتراكية لفضح الهافارا، بيد أن المنظمة أغلقت الموضوع بعد تدخل حزب بولي صهيونين وضغطه على الأعضاء الآخرين في مارس ١٩٣٦ (١). وتم تأليف مجلس اليهود الألمان تحت رئاسة هيربرت صموئيل، وضم بين أعضائه كلاً من سيمون ماركس (صاحب مخازن ماركس أند سبنسر) وفلكس وربرغ وستيفن وايز ونورمان بنتويتش. وتوصل المجلس إلى عقد مع الوكالة اليهودية لنقل اليهود الألمان إلى فلسطين، وتمويل الوكالة بالمبالغ اللازمة لذلك. وجرى كذلك تأسيس إتحاد المستوطنين الألمان لتقديم المشورة والمعلومات وتدريب المهاجرين وترويج فكرة الهجرة إلى الأرض المقدسة (اليّا).

وإضطر ضغط المهاجرين وتعاضم مشكلتهم الدول الكبرى، وخاصة الولايات المتحدة التي كانت تجاهد من أجل الحلولة دون تدفق اللاجئين إليها في وقت كانت فيها تعاني من آلام البطالة في عقر دارها، إلى الدعوة لعقد مؤتمر عالمي في مدينة أفيان في ٦ تموز ١٩٣٨ حضره ممثلون من ٣١ دولة. وتحدث في المؤتمر مايرون تيلر، الرئيس السابق لإتحاد الصليب الأمريكي، فحذر من الكارثة التي ستقع «إذا ما راحت الحكومات تستمر في أسلوبها بقذف مجموعات كبيرة من نفوسها بدون أي إكتراث على عالم غير مستعد لذلك وغارق في المشاكل». كما قال. وبعد توالي الخطباء بكلماتهم تبين للجميع أن كل ما تريده الدول الكبرى هو أن ترى الدول الصغيرة تتطوع لتحمل العبء. وأظهرت الولايات المتحدة تمنعاً صلباً ضد أي تغيير في مقدار ترخيصاتها السنوية المتعلقة بدخول المهاجرين إليها. وعلقت صحيفة

(١) تقرير اللجنة المركزية للمؤتمر الصهيوني العشرين.

التامس على الموقف فقالت أن الترخيصات الأميركية لا تعطي اليهود المهاجرين أي تفضيل خاص (١).

وعلق هتلر على موقف العالم الامبريالي من اليهود تعليقاً أصاب كبد الحقيقة عندما قال في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٩، «أنه لمن المشاهد المخزية أن نرى العالم الديمقراطي برمته يتدفق عطفاً على الشعب اليهودي المسكين المعذب، ولكنه يبقى متعنتاً بقلب صلب عندما يتعلق الموضوع بمساعدتهم، مما يمكن إعتباره واجباً واضحاً في ضوء موقف ذلك العالم. أن الحجج التي يسوقونها كأعذار لعدم مساعداتهم تنطبق في الواقع علينا نحن الألمان والطليلان. إنهم يقولون أولاً، نحن - أي الدول الديمقراطية - لسنا في وضع نستطيع أن نستوعب فيه اليهود. ومع ذلك فلا يوجد في إمبراطورياتها هذه حتى عشرة أشخاص للكيلومتر المربع الواحد. كل ذلك بينما يوجد في ألمانيا ١٤٠ شخصاً للكيلومتر المربع وعلى هؤلاء أن يفسحوا المجال لليهود». وبعد ذلك بقليل أفصح أدولف هتلر عن عزمه بتصفية المشكلة اليهودية في ألمانيا بأي أسلوب كان.

ولم يكن الصهاينة بعيدين عن الحقيقة في تقريرهم إلى مؤتمر أفيان بأن العالم قد إنقسم إلى معسكرين: الأول المعسكر الذي يريد أن يتخلص من اليهود والثاني المعسكر الذي لا يريد دخول اليهود. وكانت جمهورية الدومنيكان الصغيرة الدولة الوحيدة التي عرضت إستعدادها لقبولهم بعدد كبير، وهو مائة ألف شخص. وكممثل للكونفرس اليهودي العالمي، دعى وايزمان إلى توطين اليهود في مستعمرات زراعية وفتح أبواب فلسطين للاجئين من ألمانيا وأوروبا الشرقية معاً في أي إقتراح. وقد إرتاح الصهاينة من فشل المؤتمر. وهكذا كتب كريستوفر سايكس، أحد مؤرخي القضية الفلسطينية، «من بداية الأمر، نظر الصهاينة إلى كامل المشروع بعدم إكتراث وبعداء. وقلما تطرق الكتاب الصهاينة إلى ذكر المؤتمر. الحقيقة أن

(١) التامس، ٨ تموز ١٩٣٨.

محاولة أفيان كانت غير منسجمة بتاتاً مع الروح الصهيونية»^(١). والواقع أن القوميين اليهود لم يفعلوا شيئاً أكثر أو أقل مما فعله سياسة الدول الكبرى بالنسبة للخطر النازي. ورغم أن النازيين قد أوضحوا بجلاء عن إستعدادهم لتنفيذ أقصى ما يمكن تصوره من أساليب للتخلص من اليهود، فإن حياة الضحايا وسلامة مصيرهم تحولت إلى مجرد مناوشات دولية وعمليات مالية ومناورات لبناء وطن جديد. وبهذا المعنى تكلم كزاليث، أحد النواب البريطانيين المتعاطفين مع الصهيونية فقال للبرلمان، «أن أول شيء على المنظمة التي جرى تأسيسها أن تفعله هو أن تتوصل إلى صفقة مع ألمانيا بالنسبة لأموال اللاجئين وممتلكاتهم التي يحق لهم أن يخرجوها معهم. أن من الأمور التي لا يمكن تحملها أن يجبر قوم على الهجرة القسرية ثم يجردون من كل شيء يملكونه بعين الوقت»^(٢).

ولا شك أن طريقة تفسير واحتجاز اليهود والأقليات الأخرى أثناء الحرب كانت فصلاً جديداً في كيفية التعامل مع السكان غير المرغوب فيهم. لقرون طويلة إعتاد الأقوياء على إجتياح المدن والقرى وإكتساح من في طريقهم من المجموعات البشرية، ولكن طريقة النازيين في تجزئة العوائل والمجموعات البشرية وإعتقالها وتصفيتها جاءت فريدة من نوعها. وتحت هذه الظروف السوداء ولدت حركة هجرة الشباب اليهودية التي قامت على غض النظر عن الكبار والبطاعين في السن والمرضى... الخ ممن أطلق عليهم وايزمان «رماد البشرية»، والتركيز على إتقاذ الشباب والوصول بهم إلى فلسطين ليكونوا العضلات القادرة والضاربة في الدولة الجديدة..

وبعد تقدم قوات الحلفاء في أوروبا الوسطى، إتضح هول المأساة اليهودية للعالم حول أفران الغاز وفي خيام معسكرات الاعتقال. وكان من أول التصريحات الرسمية في هذا الشأن أن قال هربرت موريسن، السياسي

(١) كرسوفر سايكس، مفترق طرق إلى إسرائيل، لندن، ١٩٦٥، ص ٢٢٩.

(٢) هانسارد، ٣٠ تموز ١٩٣٨.

العمالي البريطاني ورئيس مجلس الحكومة البريطانية، أن على العالم أن يجد مأوى خارج القارة الأوربية لنصف مليون يهودي تشردوا بنتيجة الصراع الدموي^(١). وسرعان ما أصبح مصير هؤلاء التعساء مسألة محرجة للحكومات الغربية لا تدري كيف تتخلص منها بدون أن تتحمل قسطاً من عبأ توطين المشردين غير المرغوب فيهم.

وعمد الأمريكان الذين لم يريدوا أن يروا وجوه هؤلاء اليهود تطرق أبوابهم، إلى تأليف لجنة بالاشتراك مع الانكليز. وقامت اللجنة الأنكلو أمريكية بزيارة معظم التجمعات اليهودية في أوربا، باستثناء أوربا الشرقية طبعاً، ونشرت تقريرها في ٣٠ نيسان ١٩٤٦. وذكرت في هذا التقرير أنها وجدت ٣٩١,٠٠٠ يهودياً بدون مأوى في أوربا، ثم دعت جميع الدول إلى المساهمة في توطين هؤلاء اللاجئين وأوصت بأن تمنح الحكومة البريطانية ترخيصات بدخول ١٠٠,٠٠٠ لاجيء منهم إلى فلسطين، مع إعطاء الأولوية للكبار والأطفال والمرضى. . وكان التوجه الأساسي للجنة هو أن تبعد هؤلاء الناس من سواحل بريطانيا وأمريكا. والواقع أن الولايات المتحدة رفضت حتى الاقتراح البريطاني بأن تضم دراسات اللجنة دولاً أخرى بالإضافة إلى فلسطين. ولم يشر الرئيس ترومان في كتابه إلى كلمت أتلي، رئيس الوزارة البريطاني، إلى إمكانات الولايات المتحدة في إستيعاب اللاجئين. ورغم أنه أشار في مذكراته إلى التهمة التي وجهت إلى أمريكا في حرصها على إستبعاد اللاجئين اليهود، فإنه لم يحاول إعطاء أي جواب على التهمة^(٢). ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن كثيراً من أولئك اليهود الذين رفعوا أعلاماً إسرائيلية في نيويورك تفوق في عددها مجموع الأعلام التي رفعت في إسرائيل في ١٥ مائس ١٩٤٨ قد عارضوا أيضاً دخول أخوانهم إلى الولايات المتحدة بوجه عام، كما إتضح من الاستفتاء الذي نظمته مجلة فورتن وكشفت فيه

(١) هانسارد، ١٣ تموز ١٩٤٦.

(٢) هاري ترومان، مذكرات هاري ترومان، لندن، ١٩٥٥، ج ٢، ص ١٥١، ١٥٩.

أن ٣٠٪ من يهود أمريكا كانوا يعارضون دخول اللاجئين اليهود إلى بلادهم.

وقد كتب المراسل اليهودي الأمريكي، موريس غولدبوم فقال في ذلك الحين، «لقد كان كثير من نواب الكونغرس المتحمسين لهجرة اليهود إلى فلسطين يتحمسون بدرجة متساوية لتحديد الهجرة إلى الولايات المتحدة (١). وقد سألوا دين أشسون، وكيل وزير الخارجية عن رغبة الولايات المتحدة بإعطاء قذوة للدول الأخرى بالسماح للمهاجرين اليهود. وأجاب المسؤول الأمريكي قائلاً أنه يأمل أن تستنفذ الترخيصات الاعتيادية المقررة للهجرة من أوروبا الوسطى إلى الولايات المتحدة والبالغة ٣٩,٠٠٠ وأضاف بأن قوانين بلاده لا تسمح لمنح أكثر من ١٠٪ من هذا الرقم في أي شهر واحد (٢). ومنذ ذلك الحين إستمرت معركة ضارية ضد بريطانيا شنها الصهاينة ومعادو السامية في وجه وزير الخارجية أرنتست بفن لإرغامه على فتح أبواب فلسطين للمائة ألف لاجيء.

وكما واجه تشامبرلن وبلفور والفون كوربر ودوق بادن الكبير والأمير ستورديزا، أمير رومانيا، وغيرهم ممن أُرهبهم شبح الهجرة اليهودية إلى بلادهم فتنبوا الحركة الصهيونية، شعر هاري ترومان وكثير من نواب الكونغرس الأمريكي بالذعر من مرأى نفس الشبح، فجنحوا إلى تأييد الصهاينة في مشروعهم الطموح.

لقد ترعرع من مشكلة التهجير والهجرة اليهودية جمهور غفير من ساسة العالم الغربي ومفكره وكتابه الصحفيين الذين لاحت لهم الحركة الصهيونية كمنحة ربانية تخلصهم من هذا الفائض غير المرغوب فيه من السكان اليهود. ومن مثل هؤلاء الساسة نذكر أرل هاريسن الذي كان لتقريره أثر عميق على

(١) إقتباس في سايكس، ص ٣٥٧.

(٢) التاميس، ٤ مايس ١٩٤٦.

الرئيس ترومان فيما يتعلق بالأشخاص المشردين وضرورة توطينهم في فلسطين. وكان هاريسن قد مثل حكومة الولايات المتحدة في اللجنة الحكومية المتداخلة المسؤولة عن اللاجئين. وتولى هذه المهمة بعد فترة طويلة من الخدمة مع لجنة الولايات المتحدة للهجرة والتجنس. وكان الغرض الرئيسي لهذه اللجنة الحد من تدفق المهاجرين إلى الولايات المتحدة. وتلقى خلال هذه المهمة دروسه في تفادي اللاجئين اليهود. ومن الشخصيات الأخرى الجديرة بالذكر في هذا الشأن، جيمس مكدونالد، أول سفير للولايات المتحدة في إسرائيل. وقد تعاطف هذا تعاطفاً قوياً مع المخططات الصهيونية. ويمكننا أن نتقفاً جذور هذه العواطف من عمله مع اللجنة العليا للاجئين التابعة لعصبة الأمم وكذلك في مؤتمر أفيان كمستشار للممثل الأمريكي. وفي بريطانيا كان السياسي العمالي رشارد كروسمان من الرجال الذين كسبتهم الحركة الصهيونية بنتيجة عضويته في اللجنة الأنكلو أمريكية للتحريات^(١).

وعليه فإن الانفجار السكاني الذي حدث في أوروبا وهز مجتمعاتها وأربع ساستها وخبرائها افترض على المسؤولين في حقبة ترعرع الصهيونية ضرورة إزاحة عدد من السكان إلى المناطق الأقل إزدحاماً، وكانت بصورة عامة في عالم المستعمرات الذي أضيفت إليه فلسطين فيما بعد. ولما عجزت الحكومات عن إغراء شعبها بإحتضان فكرة الهجرة على نطاق واسع كاف، إلتجأت إلى التهجير القسري الذي طبقته في حق القطاعات غير المرغوب فيها كالمجرمين والعاطلين والمشردين والعاهرات ومتعاطي الدعارة والمخدرات. وضم إلى هؤلاء فيما بعد اليهود كعنصر لا يقل عن هؤلاء خطراً وإجراماً في نظر معادي السامية وكشعب غريب لا ينتمي إلى جنسية الأمة السائدة. وبعد أن عمدت روسيا القيصرية إلى الارهاب والتضييق لإرغام اليهود على الهجرة، تبنّت الحكومة البريطانية أول مشروع عملي على مستوى الدولة لتأسيس وطن

(١) رشارد كروسمان، بعثة فلسطين، لندن، ١٩٥٠.

قومي لليهود في تنغانيكا ثم العريش . وعند تصاعد ضغط مشابه في أوربا الوسطى في الثلاثينات تبنت ألمانيا مشروع مدغشقر كوطن لليهود من ناحية، وشجعت الهجرة إلى فلسطين من ناحية أخرى . وبفعل هذا الضغط استطاع الصهاينة أن ينقذوا مشروعاتهم الذي أوشك على الانهيار في أواخر العشرينات فبعثوا فيه حياة جديدة على نطاق واسع . وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية واجهت الولايات المتحدة نفس المحنة، فكان أن تبنت المخططات الصهيونية تفادياً لتدفق اليهود إلى موانئها .

وأثناء كل هذه التطورات، ظهرت مدارس سياسية مختلفة تأثرت بالفلسفات التشاؤمية . بصدد تكاثر السكان فكان من ذلك معادو السامية وأنصار العنصرية وحماة الاستعمار الكولونيالي ، ودعاة الهجرة، وقدم كل من هؤلاء مساهمته في إعادة الحياة بالنزوع الصهيوني نحو مسرح المأساة القديمة، فإزدهرت وتفاقت الحركة الصهيونية .

-

الفصل الثالث

معاداة السامية

العلاقة بين الصهيونية ومعاداة السامية علاقة كثيفة وحيوية إعترف بها الصهاينة ومعارضو الصهيونية على السواء ومنذ أول نشأة الحركة الصهيونية. وإعترض اليهود المناوئون للحركة على برنامجها لأنهم إعتقدوا بأنها ستعزز شكوك الأغيار بولاء بني إسرائيل وتثير مشكلة الازدواجية، فيما توقع وتأمل الصهاينة أن تصاعد معاداة السامية سيعزز النزعة القومية في نفوس اليهود ويدفعهم إلى بناء وطنهم الخاص بهم. وفي الوقت الذي شعر فيها الصهاينة في بريطانيا باليأس من حركتهم قبل الحرب العظمى ولم يجدوا تأييداً يذكر، كتبت الصحيفة الناطقة بلسانهم «ذي زا يونست» عن الموضوع وعبرت بأسى عن الفشل في العثور على أي منفذ للحركة فقالت: «أية قوة نستطيع أن نعطي هذه النتيجة؟ بأية وسيلة يمكن تغيير روح الطوائف اليهودية في أنكلترا بحيث يخف عدد متزايد من أبنائها إلى الانضواء تحت لواء الصهيونية؟ هناك وسيلة واحدة يمكن لها أن تجري هذا التغيير، ألا وهي معاداة السامية»^(١). وبعدما يقرب من نصف قرن، أوردت صحيفة يدشر كامبغر اليهودية الصادرة في نيويورك فقالت في ١١ تموز ١٩٥٢ أن بن غوريون صرح في أحد الاجتماعات بأنه لو كانت بيده السلطة لأرسل عدداً من الشبان اليهود إلى

(١) ذي زا يونست، تشرين الأول ١٩١٢.

بلدان الشتات ليتكروا كمعادين للسامية ويضطهدوا اليهود هناك ويحملوهم على الهجرة إلى إسرائيل. وقد أثار التقرير موجة من الاستياء اضطرت الزعيم الصهيوني إلى التنصل منه وإسناد التصريح إلى زعيم صهيوني آخر هو إبراهيم شارون. وبعد أن إعتبر معظم قادة القومية اليهودية بمن فيهم ثودور هرتزل عداء العالم لليهود كعنصر أساسي لوجود القومية اليهودية، أصبحت معاداة السامية جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الحركة الصهيونية.

إن مما يميز معاداة السامية عن الأنماط الأخرى من اضطهاد الأقليات هو تاريخها الطويل وعالميتها مما نتج بالطبع عن تشتت اليهود وطول تاريخهم. وقد ذهب فرويد إلى حد القول بأن الشريعة الموسوية تمثل الأنا الأعلى للإنسانية ككل وأن معارضة اليهودية تمثل تمرد الإنسان على إستعباد الأنا الأعلى له^(١). وقد طور هذه الفكرة سمل الذي رأى أن المعادي للسامية يشطر السلطة الأبوية التي أخذت طابعاً خارجياً إلى شطرين، الهول هو الزعيم. أو القائد الذي راح يعبد، والثاني هو اليهودي الذي راح يكرهه. وبمهاجمته لليهود، يعمد المعادي للسامية إلى مهاجمة ذلك الشطر من الأنا الأعلى الذي يحمله^(٢). وأمام هذا السجل الطويل من الاضطهاد والمعاداة، طور الصهاينة هذه المقولة إلى التأكيد على أبدية «معاداة السامية المرتبطة بالأشياء»، تلك المعاداة التي تدن اليهود له أي كره أو إستحسان شخصي يشعر به الآخرون نحوهم. وفي ضوء الطروحات النفسية التي وردت في الفصل الأول، يبدو أن مثل هذا الاعتقاد وجيه نظراً لعدم وقوع أي تعديل أو تكيف بخلص الحياة القومية من سورتها النفسية. طالما بقي اليهود مصرين على رفض شريعة الحياة والموت وتعاقبهما، لم يعد بإمكانهم تقبل حقيقة زوال مملكة يهودا وتفهم الأسباب الموضوعية المؤدية لسقوطها الحتمي، ومن ثم التخلص من مشكلة الإثم. وكما لاحظ ليوبنسكير، أصبح من المحتم لهذا

(١) موسى والتوحيد.

Simmel, E., Anti-Semitism, A Social Disease, New York, 1946

(٢)

الشبح القومي أو القومية الشبحية القائمة على حياة شاذة منعزلة عن بقية البشر وتاريخ الإنسان (وهو ما صرح به المنظرون الصهاينة في عدة مناسبات) أن تشير الخوف والاعتراض من الآخرين. وقد عبر آرثر بلفور بالضبط عن مثل هذا الخوف من حكمه على إنعزالية المهاجرين اليهود بقوله: «... شعب منفصل ولا يكتفون بالإيمان بدين مختلف عن الأكثرية الساحقة من زملائهم من بقية المواطنين، بل يتزوجون أيضاً فيما بينهم فقط»^(١).

ومع ذلك، فبعد شيء من التفكير الكافي في هذا الضرب من الاضطهاد، كشفت ثغرات مختلفة في مقولة عالمية وأبدية معاداة السامية. تكاثفت هذه الظاهرة بتكاثف المنافسة التجارية والرأسمالية والمهنية. وأول ما يلفت النظر هنا هو أن الاصطلاح نفسه «معاداة السامية» ظهر في اللغة السياسية في ألمانيا لأول مرة عند التوسع الرأسمالي لهذه الدولة في أواخر القرن التاسع عشر. وجاء معظم الأعراض المتصلة به في إطار العلل النمطية المنبثقة من المجتمع البرجوازي لهذه الفترة. «التنافس غير الشريف» من أول النعوت الانتقادية التي صبت على اليهود منذ تلك الأيام. وقد شرح قاموس أكسفورد الانكليزي الجديد كلمة «يهودي» بأنها «إسم ذم أو نقد، وخاصة تستعمل لوصف المراي أو مسلف المال لجشع أو الاستغلال، أو لوصف تاجر يعقد صفقات سيئة أو يتعامل بمكر». أما الكونت ولته، وزير مالية روسيا القيصرية، فقد تحدث إلى هرتزل عن اليهود في ١٩٠٣ فقال: «هناك غرور متميز فيهم. ومع ذلك فأكثرهم فقراء، ولكونهم فقراء تراهم قذرين ويتركون في النفس إنطباعاً كريهاً. وهم يزاولون أيضاً أنواعاً مختلفة من الأعمال المشينة كسمرة الدعارة وأخذ الربى»^(٢). وكانت المساهمة الرئيسية لهتلر في هذا الميدان (وإن لم تكن في الواقع من إختراعه) وصفه اليهود بالطفيلية. قال: «الحياة التي يحياها اليهودي لطفيلي... أدت إلى تكوين

(١) يوميات هرتزل، ج ٤، ص ص ١٥٢٩ - ١٥٣٠.

Nathan, P., Psychology of Fascism, London, p.39.

(٢)

تلك الشخصية المتميزة التي وصفها شوبنهاور ذات مرة عند حديثه عن اليهود بقوله أنهم أساتذة فطاحل في الكذب»^(١).

وهكذا أصبحت نعوت الدعارة والقذارة والمرضى وتجارة الدقيق الأبيض والاستغلال والسيطرة والغش والتزوير وعدم الأمانة والطمع والطفيلية والمنافسة غير المشروعة النعوت التي راج إستعمالها في وصف اليهود. وقد توصل بيتر ناتان في دراسته عن الفاشية إلى إستنتاجات مشابهة نوعاً لما توصل إليه في الواقع البيان الشيوعي لماركس أنكلز. إن غمو المجتمع الرأسمالي الذي طوح بالألهة القديمة وأقام من محلها آلهة المال وفائض الغيمة قضى على القيم الأخلاقية والروحية التي ساعدت على تقويم التوازن النفسي للمجتمع. وبالتهالك على الكسب والاثراء إنطلقت قوى شريرة عجيبة من عقالها. وفي محاولة الأنا الأعلى لإعادة سلطانه وتعزيز مركزه بردع هذا الانهماك الجنوني، عمد الناس إلى حرف طريقه وتحويل غضبه نحو الأقليات وتجسيم شرور المجتمع فيها. وبرز اليهود كأحسن أقلية يمكن إسناد كل التفسخ والاستغلال واللاأخلاقية إليها. وحتى شذوذ اللواطه الذي كان شائعاً في ألمانيا بسبب الحياة العسكرية، سمي بالبواء اليهودي الأصيل^(٢). وعلى نفس الغرار أسندت الفعاليات اليسارية والثورية التي أصبحت جزءاً من الحياة السياسية الأوروبية إلى اليهود ومخططاتهم التخريبية.

نشوء معاداة السامية

قد نشعر في هذه الأيام بتطابق في المصالح وتعاون بين الرأسمالية الغربية واليهود، بيد أن الواقع لم يكن كذلك حتى عهد قريب. لقد تميزت البرجوازية الأوروبية بكره عميق ضدهم إمتد منذ فجر الرأسمالية. لقد منع على اليهود منذ عهد الرومان وعبر القرون الوسطى إمتلاك الأراضي أو

(١) هنارد، وقائع جلسات البرلمان البريطاني، ١٣ تموز ١٩٤٦.

(٢) أنظر كاوتسكي.

الانتماء إلى النقابات الحرفية guild، ولم يبق أمامهم غير التجارة والصيرفة والرب. وبالنظر لتعرضهم باستمرار إلى الطرد المفاجيء ومصادرة ممتلكاتهم أو نهبها، فقد ركزوا إهتمامهم على ما صغر حجمه وكبر ثمنه وتيسر نقله، أي النقد والذهب والمجوهرات. وبالنظر لإمتناع المسلمين والمسيحيين من مزاوله الرب، فقد وجدوا في هذه الحرفة خير ملاذ لهم. وإعتمدت الأرستقراطية الأخذ بالفقر والافلاس على قروض اليهود في دعم حكمها المتداعي، وحول هذا بني إسرائيل إلى حلفاء للأرستقراطية وأعداء للرأسمالية التي كانت في صراع مع النظام الاقطاعي. وفي تفسيره للضعف النسبي الذي تميزت به معاداة السامية في بريطانيا، قال وليم غاهر، الزعيم الشيوعي السكوتلندي في البرلمان البريطاني أن ذلك الضعف يعود بكل بساطة إلى أن تجارة أنكلترا نمت وتطورت في عهد لم يكن فيه لليهود وجود في أنكلترا بعد طردهم منها^(١).

وبتعاظم حاجة الأمراء إلى المال، أصبح تزويد هذا المال مسألة حياة أو موت بالفعل لليهودي الذي إقتضى عليه عندئذ إنتزاع أقصى ما يمكن من المال بشكل فوائد من عملائه. وهكذا ظهرت صفة الاستغلال والجشع وعبرة «رطل اللحم» التي إرتبطت بشخصية اليهودي بين الأغيار.

ومع ذلك فهناك من الأدلة والوثائق ما يشير إلى وجود معاداة السامية في محيط التجارة في العصور الأولى من المسيحية كما يستدل من كلمات القديح والإهانة التي إستعملت في وصف اليهود كتجار وصيارفة^(٢). ورأى بولياكوف، الخبير الفرنسي في معاداة السامية، أن الصراع بين اليهود والمسيحيين جرى أولاً حول المنافسة للحصول على معتقنين جدد لديانتهم^(٣). وينفي هذا القول طبعاً إدعاء القوميين اليهود بأن اليهودية لم

Poliakov, L., The History of Anti-Semitism, p 21.

Cohen, I., The Zionist Movement, London, 1946, p 21

(١) أنظر

(٢) بولياكوف، ص ٢٥٥.

(٣)

تقم بحملة تبشير أو إحتضنت أعداداً كبيرة من الأغيار المتهورين^(١). وبعد تدمير أورشليم ثانية، عمد بنو إسرائيل إلى التبشير وجعلوا من التوسع الديني وسيلة للتوسع الاقتصادي تماماً مثلما جعل مبشرو الكنائس الأوروبية مثل ذلك وسيلة للتوسع الاستعماري في أفروآسيا. وحدث الصدام الكبير عندما أصبحت طرق التجارة بين أوروبا وآسيا تحتل أهمية كبيرة وتمر عبر المراكز التجارية للامبراطورية الإسلامية التي برز فيها اليهود. وعلى الطرف الآخر من البحر المتوسط ظهرت طبقة جديدة من التجار الطموحين في موانئ أوروبا الجنوبية كالبنديقية. وكان اليهود حتى ذلك الحين يحتكرون بالتعاون مع العرب تجارة البحر المتوسط، وهذا هو الاحتكار الذي قرر التجار الأوروبيون كسره. وحاولوا ذلك في عدة عمليات كانت الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر من أهمها وتركزت على الوصول إلى البحر الأحمر بالاستيلاء على فلسطين وطرد اليهود منها وإخضاع سكانها. ومما يذكر أن حكومة البندقية أصدرت في عام ٩٤٥ مرسوماً يقضي بمنع اليهود من إستعمال السفن المتوجهة إلى الشرق. وبنتيجة ذلك إضطروا إلى إستعمال الطرق البرية لتجارهم ورد التجار المسيحيون على ذلك بإتهامهم بالتجسس للعرب فأججوا الغوغاء في كل مكان ضدهم والاعتداء على سفرياتهم. وكانت الحماية الوحيدة التي حصلوا عليها قد جاءت من الأمراء والنبلاء، وهكذا ولد هذا التحالف غير المتكافئ بين الطرفين. وحسب إجتهاد بولياكوف، ظهرت الأفكار الرئيسية لمعاداة السامية والتصورات المتعلقة بشخصية اليهودي الذميمة في هذا العصر.

وبالفعل صدرت في هذا العصر بالذات أول كراسة أصبحت من الأدب الكلاسيكي لمعاداة السامية وجاءت بقلم الناطق الروحي للبرجوازية الفتية، الدكتور مارتين لوتر الذي نشرها في ١٥٤٢ بعنوان «ضد اليهود وأكاذيبهم».

(١) Pulzer, P.G.J., The Rise of Political Anti-semitism in Germany and Austria, New York, 1964, p 144

وقد أطلق لوثر طلقة أولى للحركة الصهيونية بقوله: «لا أحد يريدكم. المسالك والطرق مفتوحة أمامهم. بإمكانهم أن يعودوا إلى بلادهم إذا رغبوا. وسيسرنا أن نقدم لهم الهدايا للتخلص منهم». وعلى كل فقد عمد الألمان إلى الحد من شأفة اليهود الاقتصادية بمنعهم من الأسواق المالية فيما إلتجأ الانكليز إلى نفيهم من الجزر البريطانية. وعندما قرر كرمويل السماح لهم بالعودة، شنت البرجوازية البريطانية حملة ضد القرار بحجة أن اليهود سينشرون الغش وعدم الأمانة في عالم التجارة.

في ظل الرأسمالية

كما بقيت معاداة السامية محدودة في أنكلترا لنشوء الرأسمالية بدون وجود اليهود، بقيت كذلك في بولندا لوجود اليهود بدون برجوازية رأسمالية بيد أن هذا الوضع تغير بعد ١٦٤٨. فالظاهر أنه حيثما إلتقى الرأسمالي المسيحي باليهودي حصل الانفجار. وكان أن كتب بولياكوف في هذا المعنى: «من المميزات ذات الدلالة في الأيام الأولى من إختراع الطباعة عندما شاعت عادة الطعن باليهود ووصف رذائلهم من الكتب والكراسات في سائر أنحاء بولندا كما في أنحاء أوربا ككل، لم يصدر أي منشور من ذلك بقلم أحد من النبلاء. وكان المعتاد أن يكتب هذه المواد رجال من البرجوازية المسيحية». كثيراً ما صرح الصهانية بأن معاداة السامية تنفجر حيث ما كثر اليهود. ويصدق هذا الكلام تماماً عندما يضاف إليه شطره الثاني وهو «ونشطت البرجوازية». وبينما لم تستطع البرجوازية أن تتصور عالماً بدون الرأسمال، لم يستطع الصهانية أن يجدوا عالماً بدون معاداة السامية.

ويمكن تتبع العلاقة بين الطرفين بتتبع مد وجزر الرأسمالية طوال القرن التاسع عشر. لقد جاءت الموجة الأولى من معاداة السامية الحديثة مباشرة بعد الحروب النابليونية عندما حدثت أول نكسة وأزمة ضخمة للرأسمالية في عام ١٨١٩. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت معاداة السامية صرخة الحرب للبرجوازين الخاسرين والمتضررين. وفي ألمانيا ظهرت لأول مرة أسواق ونواد

وجمعيات «غير مسموع لليهود» Judenrein في معظم المدن. وفي ١٨٤٧ بدأت بالتداول الكراسات الداعية لطرده اليهود. ومن هذه الكراسات «روتشيلد، ملك اليهود» التي نشرت في فرنسا لمهاجمة عائلة روتشيلد و«ملوك العصر المراهبين» بأسلوب رخيص من زاوية اشتراكية فجّة. بيد أن الحركة لم تصل زخمها الكامل حتى الأزمة الخانقة لعام ١٨٧٣ عندما راحت البيوتات التجارية والمالية تنهار كقصور من الورق بسبب الإفلاس والعجز عن التنفيذ وبيعت ألوف المزارع بالمزادات العلنية لعجز أصحابها عن التسديد. وبدأ للعقول الساذجة أن الانهيار الاقتصادي أثبت بدون شك تلاعب وخبث اليهود الذين لم يتأثروا بالأزمة وخرج منها آل روتشيلد أقوى مما كانوا. وفي نفس السنة تم انتخاب جورج رترفون شوئرر لمجلس الرايخشتاغ حيث قدر له أن يلعب دوراً خطيراً في تاريخ معاداة السامية. وكان أن دعى الفون شوئرر إلى وضع حد لتأثير اليهود على الحياة العامة وتقدم في ١٨٨٧ بلاتحة إلى المجلس لمنع قبول المهاجرين اليهود.

وسرعان ما إكتسبت معاداة السامية كساء جديداً يتماشي مع العصر الحديث فأعطيت وزناً علمياً زائفاً يقوم على نظريات عرقية وبايولوجية واهية كما حصل في كتاب يوجين دهرنغ «المسألة اليهودية» الصادر في ١٨٨١. أصبح الحديث عن معاداة اليهود بلغة الدين والاعتبارات المسيحية شيئاً بالياً وقائماً على الخرافات والمفروض في الإنسان المتنور أن يرفض اليهود لا على تلك الأسس وإنما على أسس العلم الحديث الذي أظهر أن الساميين عرق منحط وينبغي عزله وتخليص الأمة منه. وكذلك يجب إيقاف عملية تحرر اليهود ومساواتهم وغسل أدمغة العاطفين عليهم من الأحرار السذج. على الدولة أن تمنع الزواج المختلط باليهود وتسيطر على ممتلكاتهم. ومن النشطين الآخرين في معاداة السامية في ذات المرحلة كان أدولف ستوكر ولكنه اختلف عن دهرنغ في نظريته الدينية فدعى إلى تنصير اليهود وتعميدهم، الدعوة التي ترددت كثيراً في القرن التاسع عشر. أما الأستاذ ترشكه فقد مثل الطائفة المثقفة الجامعية من معادي السامية فنشر مقالات وأبحاثاً عديدة

أصبحت من الأدبيات الكلاسيكية في هذه الحركة. وإليه يرجع شعار «اليهود مصيبتنا». وظهرت أحزاب سياسية معادية للسامية في شتى أنحاء أوروبا الوسطى والغربية حتى وصل الأمر في ١٨٨٢ إلى عقد المؤتمر الدولي الأول ضد اليهود في درسدن.

وفي سنة ١٨٨٦ نشر إدوارد درومو «فرنسا اليهودية»، الكتيب الذي ترك أثراً كبيراً في معادي السامية في فرنسا. وظهرت لأول مرة فكرة المؤامرة اليهودية لتقويض العالم المسيحي في كراسة من تأليف الأب شابوتي وزعت على نطاق واسع في فرنسا وأصبحت بذرة لمطبوعات مشابهة مختلفة منها بروتوكولات حكماء صهيون الشهيرة. ووصلت الحركة ذروتها في فرنسا في قضية الضابط اليهودي دريغوس التي لفتت في ١٨٩٤ ضده بتهمة التجسس لألمانيا وفضحها أميل زولا في حملته الشهيرة.

لقد تعرض اليهود كما قلنا لحق البرجوازية لمساندتهم للأرستقراطية وتعاضم هذه الحق العام ضدهم في القرن التاسع عشر لدخولهم هذه المرة عالم المنافسة الرأسمالية ذاته، وكانت الباب التي دخلوا منها نفس بابهم التاريخية: المال. وربما نجد في ذلك سر التهمة التي ألصقت بهم في العصر الحديث بصورة خاصة، تهمة الكوزموبوليتانية (الكونية) واللاوطنية. لقد كانت الصناعة ولا سيما في مراحلها الأولى وطنية محلية في حين كان المال عالمياً يتخطى الحدود في قروضه وانتقاله السريع. وبينما كان أصحاب الصناعة يريدون النقد يبقى تحت تصرفهم محلياً لتغذية معاملهم وأسواقهم المحلية، كان أرباب المال يريدون تحقيق أعلى الفوائد وأضمن القروض في أية دولة كانت. وعندما اشتد الصدام بين طرفي التركيبة الرأسمالية، عانى اليهود من وقع التصادم. وفي أنكلترا حيث كانت الصناعة قد سبقت ووقفت على أقدامها، وجد التمويل اليهودي أرضاً خصبة يانعة رحبت به. أما في بقية أجزاء القارة الأوروبية، حيث كانت الصناعة في مراحلها الأولية، اضطرت الدولة إلى القيام بكثير من المشاريع الكبيرة التي إحتاجت إلى

الأموال اليهودية ذات المصادر المحلية والأجنبية. وهنا وجدت البرجوازية الأوروبية الناشئة عدواً لها في اليهود الذين أصبحوا يساندون الحكومة، أو القطاع العام، ضدها بعد أن كانوا يساندون عدوهم القديم، الأرستقراطية بالأمس. وقد إعتبر ماركس إنتصار أرستقراطية المال بعد ثورة تموز (يوليو) التي نصبت لويس فليب ملكاً على فرنسا وتثلث بشعار الجنرال لافاييت: «من الآن وصاعداً، الحكم بيد البنك» سبباً للسخط الذي شعرت به البرجوازية الصناعية والبرجوازية الصغيرة. «إن الدمار الذي لحق بالصناعة والتجارة بسبب الوباء الاقتصادي أثار مزيداً من النقمة ضد إستبداد أرستقراطية المال. وقد ألحت البرجوازية المعارضة في كل مناسبة مطالبة بالإصلاح الانتخابي الذي يضمن لها الأكثرية في المجلس ويطوح بوزارة البورصة»^(١). وقد احتدمت المشاعر ضد «ملوك الرب المعاصرين» إلى الحد الذي أهاب بيوجين بونتو في ١٨٧٨ إلى تزعم عدد من أرباب المال الكاثوليك لإقامة مصرف يونين جنرال بانك كمشروع كاثوليكي يتحدى نشاطات الأموال اليهودية في عموم أوروبا، بيد أن هذا البنك إنهار بعد أربعة أعوام واضطر مؤسسه إلى الهرب إلى أسبانيا حيث ألف كتاباً شرح فيه كيف تأمرت اليهودية على تحطيم المشروع.

ومن رجال الأعمال الفرنسيين الآخرين الذين أصيبوا بخسائر كبيرة وتحولوا إلى النشاط المعادي للسامية كان الماركيز دي نور. وفي سنة ١٨٩٦، التأم مؤتمر ليون للحركة الديمقراطية المسيحية المعادية للسامية ودعى إلى فرض حظر على اليهود في مقاولات للجيش، وهي العملية التجارية المفرطة الربح في كل الأزمنة والأمكنة^(٢). وروج المؤتمرون الادعاءات الشائعة بأن اليهود جواسيس ويمدون الجيش بتجهيزات فاسدة ومغلوبة.

(١)، ماركس، النضال الطبقي في فرنسا، الأعمال المنتخبة لماركس أنكلز، موسكو، ١٩٥١، ج ١، ص ١٣٢.

(٢)، Byrnes, R.F., Anti-Semitism in Modern France, New Jersey, 1950, p 216.

ومع ذلك فمن الضروري عدم الخلط بين العلاقة بين معاداة السامية والرأسمالية ومعاداة السامية كما هي بين الرأسماليين ذاتهم، ولا سيما في عصر الامبريالية المتقدم. ففي أواخر القرن التاسع عشر ظهر شيء من التخصص في النشاط الرأسمالي فترك التمويل والتسويق بأيدي اليهود والصناعة الثقيلة بأيدي المسيحيين في أوروبا الغربية. ومع تطور هذه الظاهرة، غمت العلاقة ذات المصالح المشتركة بين البنوك والاستثمارات الصناعية. وبنفس الوقت ساعد «الفائض» من السكان اليهود على خلق بركة من الأيدي العاملة العاطلة مع ما تبع ذلك من إنخفاض في الأجور. وبمفعول هذه التطورات اللاحقة أخذ نبلاء الرأسمالية ودهاقتها بتخفيف غلوئهم ضد اليهود، كما أشار بيتر بلسر وكما إنعكس على سلوك حزب الأحرار البريطاني. وساعد نفس العامل على الحد من تحمس ملوك الربى والمال اليهود للصهيونية. أن القول بأن الحركة الصهيونية من عمل رجال المال قول فيه كثير من التجني وتناقضه الوقائع، على الأقل في المراحل الأولى. وكان ثيودور هرتزل من أول من وقعوا بهذا التصور الخاطيء وظل عبثاً يطرق أبواب أغنياء اليهود. لقد لمع من سماء التراث اليهودي إسمان، الأول آل روتشيلد والثاني آل دي هرش، وكانت كلتا العائلتين تعارضان بشدة القومية اليهودية. وكذلك لم نجد أي طرف مالي مسيحي كبير يعنى بالمشروع الصهيوني وإمكاناته. لقد بدأت معاداة السامية بنقل ثقلها تدريجياً من الطبقة الرأسمالية إلى طبقة البرجوازية الصغيرة، وفي محيط هذه الطبقة من المهنيين كالمحامين والأطباء والصحفيين والفنانين والمؤلفين، وصلت المنافسة حداً لا ينتهي عند أي رادع خلقي.

أما الاصطلاح نفسه «معاداة السامية» فيرجع من أصله إلى وليم ماد الذي نشر في ١٨٧٣ كراسته «إنتصار اليهودية على الجرمانية» وأسس رابطة معادي السامية، وكانت أول منظمة تستعمل هذا الاصطلاح في سنة ١٨٧٩. ومن المهم أن نلاحظ أن نقمته على اليهود تمتد إلى تاريخ طرده لصحفي من الجريدة بنتيجة تأمر «الصحافة اليهودية» ضده. ومن المهم أن

نلاحظ أن معظم البيانات المعادية للسامية من مقررات مؤتمر ليون في ١٨٩٦ إلى برنامج الحزب النازي دعت دائماً إلى فرض حظر على إستخدام اليهود في السلوك المدني والعسكري. وكان العاملون في الطب يروجون الاعتقاد بأن الأطباء اليهود يقتلون بعض المرضى الأغيار كجزء من واجهم فصرحت مثلاً كلية الطب في فينا بأن القواعد المهنية للطبيب اليهودي تفرض عليه قتل واحد من كل عشرة مرضى أغيار. ورفعت كلية الطب في إسبانيا هذه النسبة إلى واحد من كل خمسة^(١). وعلى الجانب الموازي، راح الصحفيون المسيحيون يتهمون اليهود بقتل روح المواطنين بسيطرتهم على الصحافة وحشرها بالسموم. وفي ١٩٣٩، إستجاب أدولف هتلر لمثل هذه المعتقدات والشعارات بإصدار قوانين نورمبرغ التي قضت بمنع اليهود من المهن الحرة ولحق ذلك موسوليني في ١٩٣٨ بتشريعات مشابهة. وكانت بولندا قد سبقت ذلك بإتباع سياسة تمييز ضد التجار والحرفيين اليهود بالاصرار على تطبيق نسب معينة. وأدى هذا إلى إخراج ألوف الرجال من أعمالهم وإضطرابهم إلى الهجرة إلى الخارج بحثاً عن الرزق.

إن من أهم التناقضات الأساسية بين عالم اليهود وعالم الصناعة الحديثة تدور حول الطقوس الدينية لليهود. لقد إعتد هؤلاء خارج نطاق المال والصيرفة على الحرف اليدوية الصغيرة الفردية. وجاءت الصناعات الحديثة لتقتضي بالضبط على هذه الحرف وتترك الحرفي اليهودي بين الارتقاء إلى مصاف الرأسمالي أو الهبوط إلى مصاف البروليتاريا. وبالمطبع لم يكن بإمكان الجميع أن يصبحوا رأسمالين أثرياء وإقتضى على غالبيتهم أن تجدها محلاً في المعامل والورشات بين ألوف العمال الآخرين، بيد أن هذا الخيار لم يكن ممكناً لليهودي بالنظر لإلتزاماته بإحترام يوم السبت وأيام الأعياد وقواعد الطعام (الكشروت) والممارسات الدينية اليومية^(٢). وفي بريطانيا تأسس

(١) بولياكوف، ص ١٥٠.

(٢) أنظر. Ruppin, The Jew in The Modern World.

مكتب الاستخدام وإحترام السبت الذي أصدر أول نداء له للتغلب على المشكلة في صحيفة الجويشي كرونكل في ٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٢١. وكما نعلم، ليس بإمكان المتمسك بالفردية والتميز بخلاجات نفسية أن يكيف نفسه لنظام المعامل الرتيب والجماعي الذي يسبك البشر كما يسبك البراغي والصمولوات في قوالب رتبية مقررة.

وحاول فقهاء الدين وبذلوا جهودهم للوصول إلى تفسيرات (تكنوت) للتغلب على العقبات الدينية. أما الجماهير اليهودية فقد راحت تتخبط في الظلام، كل على عاهله، في سعيها للتأقلم للحياة الجديدة وكانت النتيجة سلسلة من المتناقضات والشجون. إستطاعت أقلية من الموهوبين والمحظوظين من التسلسل إلى الطبقة المهنية في حين ظلت الأكثرية تواصل أعمالها القديمة تحت ظروف قاسية ومعادية. إن وصف المعادين للسامية لليهودي بكونه نشازاً misfit هو في الواقع ما يراه الرأسمالي في الاسكافي الحرفي أو بائع الملابس المستعملة. ويعكس الجدول التالي الميزة المناقضة للحياة الرأسمالية التي تميزت بها البروليتاريا اليهودية كما تجلى ذلك في إنصرافهم عن المنشآت الصناعية الكبيرة في منطقة بوكوفينا في ١٩٢١^(١٥):

معامل تستخدم	مجموع العمال	عدد العمال اليهود	نسبة العمال اليهود
١ - ٥ عامل	٢٠٢١٣	١٩٤٢٥	٪ ٩٦,١
٦ - ١٠ عامل	٧٧٦٨	٦٨٥٩	٪ ٨٨,٣
١١ - ٢٠ عامل	٥٦١٤	٤٠٢١	٪ ٧١,٦
٢١ - ٥٠ عامل	٨٤٨٥	٣٥٢٠	٪ ٤١,٥
٥١ فأكثر	١٠٤١٩	٢١٩٩	٪ ٢١,١

ويظهر الجدول كيف أن نسبة اليهود تتضاءل بتعاظم حجم المؤسسة.

وفي هذا المضمون، تصبح الصهيونية خط التراجع لليهودية من معركة

ضد الرأسمالية التي طوحت بضرباتها صرح الأديان المختلفة. وبهذا المعنى بالذات جاءت أطروحة غولد رايخ في كراسته «سحر الصهيونية» عندما شرح بأن البرنامج الصهيوني يعطي الملاذ الوحيد لليهودي من الصناعات الأوربية. وعلى الطرف الآخر رأى المسيحيون أن الحل العملي لحسم المعضلة هو التنصر، أو بعبارة أخرى قبول شروط العمل المقننة للمعامل في ضوء التقاليد المسيحية. ولمن رفض كلا الحلين، لم يبق في الميدان غير المهن الحرة، فتدفق إليها أبناء اليهود بحماس كبير مع ما نتج عنه من معاداة سامية متطرفة شنها أبناء البتي برجوازية المسيحية. وبالطبع زادت المشكلة خطورة بنتيجة تكاثر السكان اليهود المفرط مما عاجلناه سالفاً.

نظريات معاداة السامية

أخذت معاداة السامية ألواناً وأشكالاً متعددة. كان منها كره المسيحيين لليهود بإعتبارهم المسؤولين عن رفض المسيح وصلبه، وهو أبسط الأشكال وأقدمها. وبتقلص الإيمان الديني، توجهت الأنظار إلى العلوم وخاصة الأنثروبولوجيا والوراثة لدعم الحملة ضد الساميين. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حلت محل كل ذلك النظريات المنبثقة من الداروينية وفكرة التطور وتنازع الأنواع وبقاء الأصلح. وهكذا كتب وليم مار في ١٨٨٠: «ينبغي هنا تحاشي أي محاجة تقوم على التحامل الديني في هذا الموضوع الذي يتعلق بالعرق وتعتمد فيه الفروق على ما يجري في الدم»^(١) ولا شك أن هذا الاتجاه وصل ذروته على يد النازيين الذين قدموا مئات البراهين «العلمية» على إنحطاط الساميين وخبثهم العرقي.

وقد أكدت الكتابات المعادية للسامية على تفاقم النفوذ اليهودي والتضامن اليهودي العالمي، وورث الصهاينة كثيراً من هذه المقولات وإهتزوا لها وكان هرتزل من أول من سعى وراء هذا السلاح وظل يؤكد في خطباته

(١) بلزر، ص ٥٠.

ويوميته على فكرة أمراء المال اليهود والقوة اليهودية . وكانت خيبته عظيمة عندما وجد في ذلك التاريخ إنسداداً في هذا الطريق . وأصيب بيأس مر عندما عجز عن الحصول على مليون ونصف من الجنيحات من دهاقنة اليهود لرشوة السلطان وشراء فلسطين منه . وكذلك إلتقى الصهاينة بمعادي السامية في الإيمان بوحدة الشعب اليهودي والقومية اليهودية . وكان أن أشار تقرير اللجنة المركزية للمؤتمر الصهيوني العشرين إلى أن معاملة الحزب النازي لجميع اليهود كمجموعة واحدة ساعد على دعم الوحدة الصهيونية بينهم .

وفي أوروبا الوسطى حيث تصاعدت المشاعر القومية ضد الاحتلال الفرنسي النابليوني، إتجهت الآراء الوطنية إتجهاً معاكساً لمبادئ الثورة الفرنسية، بما فيها مبدأ تحرير اليهود ومساواتهم . وعلى هذا المستوى إندمجت معاداة السامية بالأفكار القومية في مناهضة اللبرالية والتحررية . وفي ١٨٧٧ إنهزت الحكومة اللبرالية في ألمانيا بعد الانهيار الاقتصادي المدمر في ١٨٧٣ الذي تمخض عن كوارث إقتصادية ومالية ضخمة أثارت في صدور الجمهور حينئذ إلى الأنظمة القديمة وطرق الحياة قبل الثورة الصناعية، عندما ساد الاستقرار والانسجام الاجتماعي حول الريف والزراعة وعرف كل امرئ مكانه وقدره . وشارك معادو السامية في هذه المشاعر وشعارات التمسك بالتقاليد وحجر المرأة في البيت وتشجيع الزراعة . وساهمت كل هذه الأفكار في صياغة الصهيونية كجزء من الحركات القومية للقرن التاسع عشر . ومن أحسن الأمثلة على ذلك الشعار الصهيوني «العودة إلى الأرض» . وبليه المثال الآخر المتعلق بإعطاء المرأة مكانة ثانوية محدودة في قيادات النشاط الصهيوني (١) .

وأصبح علم الأنثروبولوجيا الشغل الشاغل للرائد الصهيوني موسى هس والباحث الشهير في علم الاجرام لومبروزو، الذي ساند الحركة الصهيونية

(١) خالد القشطيني، الجذور التاريخية للعنصرية الصهيونية، بيروت .

وأصبح محط إعجاب ماكس نوردو، القائد الصهيوني، الذي استخدم نظرية لومبروزو العرقية في الانحطاط والأنماط الأصلية في أبحاثه النقدية في الأدب والفن. وقد أعرب عن موقفه بجلاء في وصفه للإشتراكية والتحرر بأنها «زيف فارغ» مرجعه عصاب ألمانيا mania وثقافة الضعفاء والعاجزين^(١). وكان ممن تتلمذوا على أفكار نيتشه أحاد هاعام الذي نقل فكرة الرجل الأرقى (سوبرمان) إلى مفهوم الصفوة من رجال الروح، وكذلك ميكاح جوزيف مردشفسكي الذي طبق فكرة نيتشه عن تحول القيم transvaluation of all values على التاريخ اليهودي. وإهتدى هرتزل بالنيثوية فرأى أن «الصراع أمر جوهري» و«القوة تسبق الحق» في معرض طروحاته في كراسته «الدولة اليهودية». وذهب ليونبسكر إلى أن نقاء العرق و«النسل غير المختلط» من أروع مزايا اليهود. وأصر الصهاينة على أن الزواج المختلط عيب ينبغي تحاشيه، وإشترك في هذا الرأي الملحدون منهم والمؤمنون. وأصبحت عبادة الطبيعة ورفض التطورات التي صاحبت القرن التاسع عشر والانجازات التي جاء بها العلم الحديث^(٢) والعودة إلى عصر فتوة الأمة في الأزمنة الغابرة من الأفكار العرقية لمعادي السامية التي تركت أثرها في القوميين اليهود.

ووضعت فكرة «الشعب المختار»، التي إعتبرها فرويد سبب معاداة السامية^(٣)، القوميين اليهود في موضع إيديولوجي طبيعي يعطيهم التميز والارتقاء على غيرهم من عالم التفرقة العنصرية يفوق موضع خصومهم من معادي السامية حسب تلك الأطر السائدة في ذلك الوقت والقائمة على الاعتزاز القومي والادعاءات العلمية الزائفة، فبينما تحدث هتلر في كفاحي عن الشعر الأسود المتجدد للأقزام اليهود كصفة مشينة، تحدث عن نفس

(١) Nordau, M., Degeneration, London. 1896. pXVIII.

(٢) أنظر ملاحظات سوكولو عن فشل الاكتشافات العلمية والحاجة للعودة إلى الحضارة الأصلية القديمة في مقدمته لتاريخ الصهيونية، ص ١٨.

(٣) موسى والتوحيد، ص ١١٦.

الصفة موسى هس ولكنه إعتبرها من آيات الجمال. وفيما وجد لومبروزو في اليهودي غط الرجل الذي يحترم القانون، وفي الغجر الأناس الذين يمثلون النمط الاجرامي (١)، وجد النازيون من كلا الطائفتين، اليهود والغجر، النمط المنحط الذي لا يصلح لغير أفران الغاز.

ومن الغريب، أن الصهانية لم يعبأوا حتى بتغيير صورة المعادين للسامية عن اليهودي، في بعض الأحيان، كما فعل هرتزل الذي لم يترك فرصة تمر دون أن يسخر من شخصية اليهودي ويذمها. فحذر مثلاً أتباعه من شرور هذه الشخصية. وعبر في يومياته عن أساء في أن الله لم يخلقه خارج الطائفة اليهودية، وعن إعجابه العميق من أرستقراطية الأغنياء ومؤسساتهم ومنجزاتهم، وعن شكوكه في قدرة اليهود على القتال أو حكم أنفسهم بأنفسهم بشكل منظم سليم. وكان من أفكاره التي تحلم بها، قيادة اليهود في موكب هائل واحد إلى روما ليتم تعميدهم وتنصيرهم على يد البابا. وإعتاد هرتزل أن ينظر باستمرار نظرة إستخفاف وتقزز إلى الجماهير اليهودية الكادحة. وفي إحدى المناسبات، تطلع إلى زواج اليهود بالأغنياء ليتخلصوا من صفاتهم «القيحية» - كما قال - بصورة تدريجية. وبعد أمسية قضائها في الخارج عاد ليكتب إلى والده: «كانت هناك حفلة ليلية فاخرة في الترايباتيل. ثلاثون أو أربعون من اليهوديات واليهود القصار والقيحي المنظر. كان مشهداً لا يسر الناظر تماماً» (٢). ولعلنا نستطيع تصور مدى تأثر القوميين اليهود بالأفكار المعادية للسامية من التصاوير الكاريكاتورية والملاحظات السينمائية عن اليهودي بإعتباره قصير القامة، معقوف الأنف، أجعد الشعر، أشعث وأسود اللحية. وقد قبل لومبروزو بالفكرة الشائعة بأن اليهود يميلون إلى التزوير والتزييف والسمسرة والدعارة كصفات موروثة فيهم (٣). والواقع

Lombroso, C., Criminal Man

(١) لومبروزو، الرجل المجرم.

Bein, A., Theodor Herzl, London, 1956, p 49.

(٢) -

(٣) لومبروزو، الرجل المجرم.

أن اليهودي المعادي للسامية ليس بالشخصية النادرة. وهناك عدد كبير من اليهود والصهاينة الذين تعاونوا مع النازيين لا كخونة أو إنتهازيين لا غير، وإنما كمؤمنين بالطروح المعادية للسامية. وفي عام ١٩٦٦، تبين أن جمعية جون برتش المعادية للسامية بشكل مفرط ضمت نحو ألف يهودي بين أعضائها في الولايات المتحدة، كما ذكرت الجوش كرونكل في ١٧ حزيران ١٩٦٦. وفي نفس السنة، طلب حزب النهضة القومية (حزب النازية الجديدة) في الولايات المتحدة من أمينه العام روبرت بوروز الاستقالة من الحزب بعد أن إنفضح أصله اليهودي. وإذا شعرنا بشيء من الاستغراب تجاه هذه الوقائع، فيمكننا إزالة العجب في ربط الموضوع بعقدة الائم المتأصلة والتشرب بالتنظير العنصري لمعاداة السامية.

وطالما واجهنا في تاريخ الرأسمالية ذلك المثلث الذي يتكون من زوايا الانقباض الاقتصادي، والتفجر الراديكالي التحرري، ورد الفعل العنصري. وحدث أن غشيت القارة الأوروبية الأزمات الرأسمالية المتعاقبة بكل مميزاتها العالمية، سوية مع سلسلة الثورات التي وقعت في آن واحد. وقد أعمت هذه الظاهرة البرجوازية الناشئة عن حقيقة الصفة العالمية الجديدة لرأس المال ودفعتها إلى التفكير في الجانب الآخر الثوري والاعتقاد بوجود مؤامرة عالمية لتقويض النظام. وبينما تمثل الجانب العالمي من المشكلة في العوائل اليهودية المالية الكبيرة على المستوى الأعلى، تمثل «نفس الجانب في الفقراء اليهود الذين انخرطوا في الحركات الاشتراكية الأمية على المستوى الأسفل. وكانت الأزمة التي مسكت بخناق أوروبا في الثمانينات، مثلاً جيداً لما نقول، ولا سيما بعد وقوعها غداة الأحداث الثورية الخطيرة التي إتصلت بقيام كومبونة باريس. في عام ١٨٨٩ شهد العالم قيام الأمية الثانية في العاصمة الفرنسية وأول إضراب شامل لعمال الموانئ في لندن وعمال الفحم في الروهر. وبموازاة ذلك، إرتفع في نفس العام عدد الصحف المعادية للسامية في فرنسا إلى ٢٠ صحيفة، في حين لم تكن هناك غير صحيفة واحدة معادية للسامية

كمعدل سنوي بين ١٨٧٩ و ١٨٨٥^(١) . وفي ١٨٨١ نشر الأب شابوتي كتابه عن المؤامرة اليهودية العالمية وتبعه درومو في ١٨٨٦ بكتابه الكلاسيكي «فرنسا اليهودية» . وعقد في ألمانيا المؤتمر الدولي المناهض لليهودية في ١٨٨٢ ، وهي السنة التي شن فيها الروس مذابح (بوغروم) نجني - نوفغورود التي شهدها مكسيم غوركي ووصف أهوالها أروع وصف . وما أطلت التسعونات حتى إهتز العالم بنشر بروتوكولات حكماء صهيون في روسيا . ومن الملاحظ أن هذه الحملات المعادية للسامية مزجت غالباً التحريض ضد الاشتراكية بالتحريض ضد اليهودية .

وتجلت العلاقة بين هذه التطورات والحركة الصهيونية في الانطلاقات التي غذت الحركة ومن ذلك إصدار ليوبنسكر كراسته الشهيرة التي وصفت بكونها أول نداء إنطلاق للحركة الصهيونية في ١٨٨٢ . وبعد سنتين فقط تم تأسيس حركة أحباء صهيون Choveve Zien بمؤتمر كاتوفتز . وفي العقد التالي ولدت الصهيونية السياسية الحديثة بعد نشر كراسه «الدولة اليهودية» في ١٨٩٥ وإنعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في باسل في ١٨٩٧ .

ولتصور مدى الحساسية ضد اليهود، نشير إلى أن خبر مقتل القيصر الكساندر الثاني لم يكذ يعلن في ١٨٨١ حتى دوت الصيحة بأن اليهود قد قتلوا القيصر، ولم تسمع أصداء هذه الصيحة حتى تعالى نداء «إضربوا اليهود» وإستجابت الجماهير بكل ما في قلوبها من حقد وغضب فتكررت المذابح الفضيعة في نحو ١٦٠ مدينة وقرية نهبت فيها ممتلكات اليهود، وإغتصبت أعراضهم وذبح رجالهم ومزقت جثثهم^(٢) . ومما يذكر أن القوى الرجعية دأبت منذ سقوط الباستيل على إسناد الانتفاضات الثورية والاضطرابات الاجتماعية إلى نشاط اليهود والماسونيين . وبينما إتهم الفرنسيون

(١) بيرنز، ص ١٥٥ .

(٢) Wolf, L. Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question, London, 1919, p. 27.

اليهود بالتجسس لحساب الألمان إتهمهم الألمان بالقتل في عضد ألمانيا. وبعد إندحار المحور في الحرب العظمى وإنهيار المارك، سارع النازيون إلى إتهام اليهود بما حدث وكان تفسير هتلر لما لم يجرؤ على تفسيره موضوعياً هو أن «اليهود ومجرمي نوفمبر» هم المسؤولون.

ولاحظ الأغيار أن كلا من كارل ماركس ولاسال وكاوتسكي وروزه لكسمبرغ وتروتسكي وغيرهم الكثير من الثوريين كانوا من اليهود فوصلوا إلى ما بدا لهم كإستنتاج منطقي. وفي عام ١٩٠٦، إقترحت وزارة الخارجية الروسية في مذكرة سرية (نشرت الحكومة البلشفية بعد الثورة) بعث بها الكونت لامسدروف إلى نظرائه من وزراء خارجية ألمانيا وفرنسا لتأسيس اتحاد ثلاثي لمراقبة النشاطات اليهودية. وإتهمت المذكرة اليهود بالتآمر على المسيحية والنظام الملكي والحكم القائم وتهريب الأسلحة والأموال للتشجيع على الثورة^(١). وبعد ثورة أكتوبر البلشفية، أيقن المحافظون بفكرة المؤامرة اليهودية والتخريب اليهودي بعد أن رأوا العدد الكبير من اليهود بين قادة الثورة والمتحمسين لها^(٢). والواقع أن الإيمان بشبح المؤامرة اليهودية ضد أوروبا المسيحية إنسجم مع الوجود الشاذ لهذه المجموعة من البشر وأصبح الحجر الأساسي للايديولوجية المعادية للسامية. وعلى كل فقد إتفق الصهيوني والمعادي للسامية من الأغيار على المستوى الواقعي بأن حركة التحرر المعاصرة هي عدوها الحقيقي، وبقياً إلى عهد قريب جداً ينظران إلى الاشتراكية الأمية نظرة الخوف والريبة، حتى أن المعادين للسامية في فرانكفورت أعطوا أصواتهم في إنتخابات ١٩٠٣ إلى يهودي بدلاً من خصمه الديمقراطي الاشتراكي.

وإلتقت الصهيونية بمعاداة السامية أيضاً من حيث تشربها هي كذلك،

(١) أنظر Greenbaum, A., *Soviete Jewry during the Lenin-Stalin, Period*, Soviete Studies, University of Glascow, Vol. XVI, No 4.

(٢) برنز، ص ١٦٥.

ورغم ما سلف قوله، بلون من الاشتراكية. في عام ١٨٨١، نشر دهرنغ كتابه الشهير، Die Judenfrage als Racen-sitten und Kulturfrage الذي أصبح دستوراً للاشتراكية الوطنية وهاجم فيه إستغلال اليهود للبرالية. ودعى شونرر إلى التأميم بينما طالب درومو في فرنسا بمصادرة جميع الثروات المجمعة من المضاربة التجارية والمالية. وقد علق روبرت برنز تعليقاً جديراً بالاستشهاد: «رغم أن الواجب كان يقضي على معادي السامية كإشتراكي أن يعني بشدة بأحوال العمال، فإنه قد كتب وناضل في الواقع للعمال فقط عندما كان هناك إضراب أو كارثة في شركة للسكك الحديدية أو معمل أو منجم من ملك اليهود أو تحت سيطرتهم»

والطريف في الأمر أنه في الوقت الذي إتهم فيه اليهود بالترويج للثورات، إتهمهم الثوريون بتعزيز الرأسمالية. وهكذا كتب ماركس: «لقد تحول رب اليهود إلى إله دنيوي وأصبح رباً لهذا العالم. الكميالة هي الرب الحقيقي لليهودي. وربه هو فقط تلك الورقة الوهمية»^(١). وقد نظر الاشتراكيون بصورة عامة إلى اليهود كأعمدة للنظام الرأسمالي وإعتبروا نشاطاتهم غير الانتاجية والقائمة على المضاربة والصيرفة أمثلة غمطية للنشاط الرأسمالي. «المال هو الإله الحريص لإسرائيل الذي لا يتخذون بجانبه إلهة أخرى»، كما قال برونو باود^(٢). وفيما نظرت البرجوازية إلى ماركس كيهودي يحض الأوربيين على الثورة، نظر الماركسيون إلى روتشيلد كيهودي يتربع على عرش الاستغلال الرأسمالي. وكانت نظرة واحدة على بوكوفينا مثلاً قبل الحرب العظمى حيث تفاقت معاداة السامية، تكفي لإكتشاف أن اليهود فيها تملكوا معامل البيرة الثلاثة الكبرى وجميع مصافي النفط الستة و ٢٨ من أصل ٣٤ معملاً كبيراً للخشب. ولم يمكن بنفس السهولة معرفة أن ١٠ - ١٥ ٪ فقط من اليهود النمساويين عاشوا في الأحياء المترفة من فينا

(١) كارل ماركس، حول المسألة اليهودية.

(٢) Marx, Bruno Bauer, The Capacity of the Present Day Jews and Christians to be Free.

وظلت البقية تعيش حياة الفقر والحرمان في مقاطعات بوكوفينا وغاليسيا، حيث قدرت الاحصائيات أن بين خمسة إلى ستة آلاف يهودي كانوا يموتون جوعاً فيها كل سنة (١).

والطريف أيضاً أن الاشتراكية ومعاداة السامية توصلتا إلى حلول مشابهة بالنسبة لليهود فاتفقتا رغم كل خلافاتها على أن من الضروري للكتلة اليهودية المتماسكة أن تختفي من الساحة الأوروبية بالنصر أو الهجرة كما رأى معادو السامية أو بالأمية واللادينية، كما رأى الاشتراكيون. ولم ينبثق إعتراض هؤلاء على اليهود من الزاوية الدينية وإنما من ظاهرة قيام اليهود بالأعمال التي يعتبرها الاشتراكيون غير إنتاجية وجمع الثروة ومقاومة الاندماج والتجانس.

وعلى كل فإن كافة الاتجاهات قد تضافرت ضد اليهود بحيث وجد بتر ناتان ما يكفي من الوقائع ليدحض المفهوم الفرويدي عن صراع - الابن - الأب ليقول: «يتم إسقاط جميع الجانب المخيف من الذات، الجانب المكروه من الأب على عدو منفرد. ويعزى عندئذ سائر الشر إلى ذلك العدو. وفي وقت السلم يكون هذا العدو اليهود... فإذا كنت معادياً للرأسمالية تعتقد بأن الرأسمالية من إختراع اليهود. وها هو ذا جميع الرأس مال في العالم بيد اليهود. أما إذا كنت معادياً للشيوعية، فستجد أن جميع الاشتراكيين والشيوعيين من اليهود، كما هو الحال في ماركس وتروتسكي وهابنه وتولز وإذا فقدت إبنك في الحرب فاليهود هم الذين سببوا الحرب. وإذا إعتبرت الصلح مخلاً بشرف الأمة ومصالحها، فاليهود هم الذين رتبوا الصلح» (٢). ودعمت هذه الطروحات الموقف الصهيوني وإدعائه بأن معاداة السامية شيء أبدي. وألقت بنا بنفس الوقت في الطريق التي سلكناها في هذا البحث للتفكير في الموضوع على مستوى التشنجات النفسية والعصابية. وأشارت

(١) بلزر، ص ١٤.

(٢) ناتان، ص ٥٠.

السهولة في تنقيح الموقف اليهودي وإعادة تصوره وتصويره إلى الشذوذ اللامتناهي المرتبط بهذا الموقف.

عصر الانعتاق

ترتبط الصهيونية ومعاداة السامية إرتباطاً وثيقاً بقصة التحرر والانعتاق في العصر الحديث. ورغم نداء موسى مندلسن، زعيم الإصلاح الديني اليهودي، للإندماج وإنتشار العقلائية، إستمر اليهود في حياتهم المنعزلة الانطوائية حتى إنتصار الثورة الفرنسية التي إحتضن شعارها «الحرية والمساواة والاخاء» جميع الطوائف الدينية وأوحى لكريموتونر، أحد أعضاء الجمعية الوطنية بإعطاء تصريحه الشهير: «لا شيء لليهود كشعب، وكل شيء لليهودي كفرد». وفي عام ١٨٠٧، دعى نابليون لعقد مؤتمر السانهردين لليهود القارة الأوروبية لبحث المسألة اليهودية وتقرير ما إذا كان عليهم أن يقبلوا بفرنسا كوطن لهم وبمواطنيها كأخوان مقابل إنعتاقهم الكامل. وقد أجاب المؤتمرون على السؤال بكلمة جامعة: «أجل وحتى الموت». وحيثما زحف نابليون، بادر إلى تحرير اليهود وتهديم أسوار الفيتو. وطوال القرن التاسع عشر، توالى التشريعات القانونية لرفع القيود عن بني إسرائيل وقبولهم في شتى المؤسسات السياسية والمهنية.

وكمعظم المبادئ التي جاءت بها الثورة الفرنسية، لم يكن من السهل على ذوي الشأن وجماهير الشعب أن تهضمها وتطبقها. وحتى أنكلترا التي تميزت بأقل ما يمكن من معاداة السامية بين الدول الأوروبية، لاقى تحرير اليهود مقاومة شديدة. وعندما طرح موضوع السماح لليهود بدخول البرلمان كأعضاء، كتب اللورد أشلي (وكان أكثر سياسي بريطاني إهتم بالصهيونية وعودة اليهود إلى فلسطين) في مذاكرته بأن ذلك سيكون «إهانة للمسيحية»^(١). وإعتمد معارضو تحرير اليهود سياسياً على النبوءات التوراتية

(١) هودر، ج ١، ص ٢٣١.

لمتعلقة بتفريق اليهود وإعادة تجمعهم في فلسطين، فقالوا أن منحهم حقوق المواطنة الكاملة بكل حقوقها السياسية يعني تثبيت وجودهم في الشتات مما يتناقض مع تلك النبوءات ويتضمن كفراً بالكتاب المقدس. وبالفعل قدمت عريضة جماعية إلى البرلمان بهذا المعنى عندما طرح الموضوع للمناقشة. وقاد هذه الحملة في البرلمان السير ر. إنغليس ورد عليه في ١٠ مارت ١٨٤١ اللورد رسل، الناطق بإسم الأحرار، بأن موضوع التنبؤات الدينية يخرج عن اختصاص البرلمان^(١). بيد أن اليهود فازوا في الأخير بالمساواة وراحت الحكومات المختلفة تشرع واحدة بعد الأخرى لإزالة القيود عن اليهود، كما جرى في بروسيا في ١٨٦٢ وبادن في ٨٨٦٢ وفرتمبرغ في ١٨٦٤.

بيد أن هذا التحرر أثار كثيراً من المشاكل، فإن أبناء اليهود المتعطين للمجد والبروز والمناصب بعد قرون من الارهاق والاذلال، وبعد تسليحهم بالمعرفة الغزيرة والنظر الثاقب والحدق في المنافسة مما يكتسبه الإنسان تحت ظروف الاضطهاد الطويل ومواجهة الأذى والموت، وإنكباهم على الدرس والتفكير والقراءة مما إرتبط بالحياة التقليدية اليهودية، إفتحوا قلاع العلوم والفنون والمهن المرموقة. ولم يتوقع محرروهم الأغيار أن يصل عددهم في هذه الميادين تلك النسب المفرطة بين عشية وضحاها كما ذكرنا سابقاً في هذا الكتاب. وقد شعر اليهود بعد هذا التطور شعوراً عميقاً بالاعتزاز بالنفس والتفوق على الغير بعد أن بزوا الأغيار حتى في المهن التي كانت من إحتكار الأغيار لقرون. وراح اليهود يتباهون بمنجزاتهم وممتلكاتهم وترفهم كما يفعل أي تاجر حرب حديث النعمة.

وأثارت هذه المظاهر وعلائم الغرور والشمخرة إمتعاض المسيحيين ولا سيما عندما بدت نابية وفي غير محلها وأصبحت عبارة «الغرور اليهودي» من العبارات الشائعة ومضرب الأمثال. وتألقت في ألمانيا جمعيات لمكافحة الغرور اليهودي وشعر كثير من الأغيار بالرغبة «لتأديب» اليهود ووضعهم عند

(١) مناقشات البرلمان البريطاني، هنسارد، ١٠ مارت ١٨٤١.

حدهم . وإن دلعت المشاعر في الأوساط الجامعية في ألمانيا والنمسا وتألفت عدة جمعيات طلابية في هذا الميدان إشتهرت منها جمعية البيا في فينا، الجمعية التي إنتمى إليها في الواقع هرتزل نفسه . وأدت المشاحنات والاهانات المتبادلة المستمرة إلى سلسلة من المبارزات بالسيف والمسدسات ، إستغلها معادو السامية لخبرة الأغيار في هذه الميادين وعدم معرفة اليهود بإستعمال السلاح وخر كثير منهم صرعى نتيجة ذلك . وإضطرت التلامذة اليهود إلى تعلم المبارزة وفعل هرتزل مثل هذا وخاض بنفسه إحدى المبارزات . وإقترح على اليهود أثناء تفكيره بحل المشكلة اليهودية بتعلم المبارزة وإجراء سلسلة منها تغسل العار عن بني إسرائيل . وما أن أتقن اليهود إستعمال السيف حتى أمرت الجمعيات المعادية للسامية أعضاءها برفض منازللة اليهودي لأن المبارزة تتصل بالشرف واليهود لا شرف لهم . وأصدر التلامذة النمسيون في مؤتمر ١٨٩٦ القرار الشهير المعروف بقرار فيدهوفن بهذا النص : «اليهودي مجرد عن الشرف بحكم طبيعته ويعتبر مخلوقاً ناقصاً غير قادر على التمييز بين الحق والباطل . أي إتصال باليهود يعتبر مشيناً وينبغي تحاشيه . اليهودي مخلوق لا يمكنك إهانته ولا يمكنك الرد على ما يصدر منه من إهانة» (١) .

ويمكننا أن نتصور مدى تأثير هذه التطورات على تحريك الوازع الصهيوني من عدد الزعماء الذين إنخرطوا في الحركة بعد مرورهم بتجارب شخصية حركت فيهم أفعالاً إنعكاسية عصبية أدت إلى تبرمهم بمطامح المساواة والتحرر والاندماج . ومن ذلك ما ذكره موسى هس في «روما وأورشليم» من إيمانه الأولي بالاندماج والاشتراكية ثم تحوله عن ذلك بعد أن وضع لحناً للنشيد الوطني «لن يقع بيد أحد، الراين الألماني الحر» ثم بعث باللحن إلى المؤلف الشاعر . وبعد أيام أعيدت إليه رسالته مكتوباً عليها «إنك يهودي» . وبعد أن حكم عليه بالاعدام لإشراكه بثورة ١٨٤٨ ، تزعرع كل إيمانه بالعدالة المسيحية . وعانى بربور وخوف ، القائد المؤسس للصهيونية

(١) ذي زابونست، أغسطس ١٩١٢ .

الاشتراكية Poale Zion من ظلم من نوع آخر عندما رفضوا منحه الوسام الذهبي أثناء الدراسة بسبب أصله اليهودي . وقد هزته خيبته إلى الحد الذي جعله يقرر عدم الدخول في الجامعة كلياً . وتروي مسرحية ماكس نوردو «الدكتور كوهن» قصة عالم رياضيات بارع لم يستطع الحصول على منصب الأستاذ بسبب أصله اليهودي . وبعد بضع سنوات أصبحت هذه المسرحية حقيقة واقعة عندما عانى الدكتور حاييم وايزمان، أول رئيس جمهورية لإسرائيل، في ١٩١٣ من تجربة مشابهة في جامعة مانشستر فكتب في يومياته: «والحق أنني عانيت من خيبة عظيمة واحدة في مهنتي الجامعية عندما لم أحصل مطلقاً على مناصبي كأستاذ كامل». وجعلته هذه التجربة يقرر الانضمام إلى المنظمة الصهيونية في برلين، ولكنه لم يلتحق بها هناك (١). أما موثي للنبloom فقد وصف كيف إهتزت فرائضه أثناء مذبحه ١٨٨١ عندما كادت الغوغاء تقضي عليه وعلى سائر عائلته وكيف تحول بنتيجة التجربة من الاشتراكية إلى الصهيونية. «وبدأ هرتزل مذكراته ببداية بليغة فيروي كيف تعرض كصحفي من الطراز الأول ومن عائلة مرموقة إلى السخرية والاستهزاء في أحد النوادي الليلية في مدينة مينز عندما صرخ وراء أحد الجالسين بكلمات «هب، هب» (كلمات المسبة التقليدية ضد اليهود) بين ضحك الجالسين والمارين. وفي مناسبة أخرى صرخ في وجهه أحد المارة: «يهودي قدر» بينما كان في مركبته (٢). وإكتمل تحول هرتزل إلى الصهيونية أثناء تغطيته لقضية الضابط دريغوس وما شهدته أمامه من الاذلال والاهانة التي وجهت علناً لهذا اليهودي البريء.

كان رفع التقييدات عن اليهود أشبه بإزالة سد أمام خزان غاص بالمياه. لقد إنهالوا إنهال التيارات المتدفقة لتلتهم كل شيء في طريقها. ومن المرجح

(١) حاييم وايزمان، التجربة والخطأ، ص ١٦٥ وأيضاً الجويش كرونكل ١٤ تشرين الأول ١٩٦٦

(٢) يوميات هرتزل، ج ١، ص ص ٦ - ١١.

أن جزء كبيراً من ذلك يرجع إلى نفس دافع الشفعية الابتلاعية التي تتصل عادة بمشكلة الكآبة مما تعرضنا إليه في الفصل الأول. وقد شبه جابوتنسكي اليهود بالصبي أوليفر توست في قصة دكنز عندما ردد أمام الأكل: «أريد أكثر، أريد أكثر». ويعطينا فلم «عربات النار» القائم على قصة حقيقية وثائقية، مثلاً جيداً لهذا التهالك على المزيد من كل شيء وبز الناس من كل شيء حتى في ألعاب الميدان. هارولد إبراهيم شاب من عائلة فقيرة هاجر والده معدماً من لتوانيا وجمع ثروة طائلة في لندن من التجارة والرب. وبهذه الثروة أعطى ابنه أحسن ثقافة ومكانة، ولكن الابن لم يكتف بدخول كيمبرج والتفوق بدراسة القانون والحصول على أجمل نجوم المسرح والتمتع بأرخی عيش، وإنما أراد أيضاً أن يصبح أسرع عداء ويفوز ببطولة العالم في الركض. ولهذا الغرض سخر ثروة أبيه للحصول على أحسن مدرب. ولم يهدأ له بال حتى فاز بالفعل بالمالية الذهبية وأصبح فيما بعد رئيس الاتحاد الرياضي البريطاني. وقد أثارتها كله على الفوز وبز الآخرين والالتجاء إلى التدريب المهني إعتراض الجامعة وحفيظة التلاميذ الآخرين.

وتلخص قصة هارولد إبراهيم المشكلة من عدة جوانب وتضعها في إطار دائرة مفرغة. لقد أعطت الحساسية الكآبية اليهود إرهافاً مفرطاً يجعلهم يدخلون في مأتم من الأشجان والانكماش والشعور بالرفض والاهانة عند أول بادرة لتحدي أمانيتهم، وعندما يزال هذا التحدي من طريقهم ينطلقون بطاقة جنونية للحصول على الأكثر وإنجاز الأكثر، وسرعان ما يؤدي ذلك إلى إثارة المشاعر ضدهم ومن ثم تحدي إنطلاقتهم وإعادة الدورة كرتها الأولى. إن من أهم مظاهر الكآبة عجز صاحبها عن تحقيق التوازن الهاديء في سلوكه والمحافظة على مسيرة متوسطة مستقرة. وفي الأخيرة قد لا يجد حلاً غير التمرکز والتفوق في كيانه الخاص به.

وقد عبر الحاخام لوبافنشر في عام ١٩٠٣ عن المحنة التي جابهها أبناء طائفته في التعامل مع المجتمع اللبرالي المسيحي بما تضمنه من معاداة للسامية

وتحرير للأقليات بنفس الوقت في بيانه التاريخي عن الموضوع: «في كل زاوية توجه فيها اليهود نحو أعيان البلاد وأمرائها ممن عرفوهم وتطلعوا إلى أخذ أماكنهم بينهم، نظر الناس إليهم كغرباء فأبعدوهم وعزلوهم. كان لهؤلاء اليهود الرغبة والإرادة في أن يصبحوا بصورة خاصة على نفس المستوى مع أمراء البلاد وحكامها. وبقدر ما منعوا عن ذلك، سعوا بمزيد من النشاط إلى الارتقاء والزهو بأنفسهم والتباهي بثرواتهم ومعارفهم».

وإستعملوا في هذا السعي المحموم، شتى الوسائل المتوفرة لهم وعلى رأسها الاعتماد على التضامن الطائفي التقليدي، بيد أن هذا التضامن الذي أخذ شكل المحابة لأبناء الطائفة، أصبح من أهم المنغصات ضدهم وساعد على تعميق مشاعر الأغيار المعادية للسامية. وقد عبر عن هذا الموقف بصورة متوازنة الأستاذ ثيودور مومسن من جامعة برلين الذي بذل جهوداً كبيرة لمقاومة معاداة السامية في ألمانيا في عهد تریتشكه

«... إن العدد الكبير من الجمعيات اليهودية الخاصة التي توجد في برلين مثلاً تبدو لي شريرة بالتأكيد، بالقدر الذي لا تكون فيه مقتصرة على الأمور الدينية. إنني لن أنضم إلى جمعية تؤلف لغرض مساعدة سكان هولشتاين فقط. ومع كل إحترامي لمنجزات هذه الجمعيات وتطلعاتها، فإنني لا أرى فيها غير مخلفات الوضع القديم للمجموعة اليهودية المحمية. وإذا كان من الضروري التخلص من هذه المخلفات من جانب، فيجب التخلص منها أيضاً من الجانب الآخر. هناك كثير من العمل ما زال على الطرفين القيام به. هناك ثمن يتعين دفعه من قبل كل من يصبح جزءاً من هذه الأمة العظيمة. لقد وافق سكان هانوفر وهسه وشلزفغ هـ اشتاين على دفعه، ولو أننا هنا في شلزفغ هولشتاين شعرنا بأن جزءاً من كيانتنا الذاتي قد ضحينا به. لقد قدمنا هذه التضحية من أجل أرض وطننا المشترك. ليس لليهود موسى آخر يقودهم ثانية إلى أرض الميعاد. وسواء أكانوا يبيعون السراويل أو يؤلفون الكتب، فإن واجبهم أن يقاوموا هذه الخصوصية في وجودهم ويهدموا كافة

الأسوار التي تفصلهم عن بقية زملائهم من المواطنين، بقدر ما كان ذلك لا يتعارض مع ضميرهم»^(١).

ومع ذلك فقد قدر لهذا التضامن الطائفي أن يستمر بل وأن يتعاظم نتيجة الضغوط المتزايدة والارهاب الذي قضى على محاسن ومطامح التحرر والانعتاق. وفي هذا الوضع إستمرت المسؤولية الجماعية للطائفة وأوصدت أبواب الخلاص من القوى النفسية القديمة وإزداد تلاحم الجماعة بفعل المد الرأسمالي الجديد الذي أظهر رغم روحه الفردية، أن منافسته القاتلة تقتضي في كثير من الأحيان التكتل بشكل كارتيلات وإتحادات وإحتكارات ونواد، وهل من ناد أوثق وأغزر تجارباً وأرسخ تاريخاً من هذا النادي العالمي للطائفة اليهودية الذي أصبح موضع حسد كل العاملين في ميادين المال والتجارة والصناعة؟

وللحد من العدد الضخم من اليهود في المهن الحرة، إلتجأت بعض الحكومات إلى تطبيق قاعدة النسبة العددية numerous clausus التي حددت عدد اليهود الداخلين في معاهد هذه المهن وكلياتها ونقاباتا بنسبة عددهم من مجموع السكان، وأدى هذا إلى حرمان كثير من الموهوبين والمجدين من الاستفادة من قدراتهم وتحقيق أحلامهم. وما يذكر أن المنظمة الصهيونية قررت في العشرينات تحديد المقبولين للدراسة في الجامعة العبرية بمواضيع العلوم والتقنية نظراً لكثرة الأطباء والمحامين والكتاب والفنانين بين المهاجرين إلى فلسطين. وقد أدى ذلك إلى موجة من الاحتجاج بين الشبان. «لماذا إذن جئنا إلى هذا الوطن القومي؟». وكما تطلع الشاب ليصبح محامياً وصحفيًا، تطلع المحامي والصحفي ليصبح وزيراً وسفيراً ونائباً في الكنيست. فمن الواضح أن مثل هذه الامكانيات ظلت محدودة بالنسبة لليهودي الطموح، وإضطّر مثل هذا - كما فعل الموسيقار ماهرل - إلى التنصر ليكسب لنفسه

(١) استشهاد من مجلة أشيوز، لسان حال المجلس الأميركي لليهودية، ج ٢٠/٤ عدد ١٩٦٦.

المكان والاحترام اللازمين. وفي خارج هذا الاطار، لم يبق للطموحين اليهود غير أن يقيموا دولتهم الخاصة بهم. وهكذا ولدت النكته عن اليهودي الألماني الذي سأله عن رأيه في الدولة اليهودية. «هذا مشروع جدير فيه سيمكنني أن أكون سفيرها في ألمانيا».

عندما أطل القرن العشرون على أوروبا، جاءت في ركابه تحولات جديدة نحو الاشتراكية راحت معاداة السامية تتراجع أمام مدها، ولا سيما بعد النصر الذي حققه الديمقراطيون الاشتراكيون في ألمانيا في إنتخابات ١٩١٢. وقد عبر فرتش، الزعيم المعادي للسامية، عن الشعور بالخيبة: «إنها لحقيقة مؤلمة. لقد خسرت الحركة المعادية للسامية حملة». وأصبح الصراع بين قوى التقدم والقوى الرجعية مباشراً وعنيفاً. وجعل إنهزام ألمانيا في الحرب العظمى الموقف حالكاً بالنسبة للمحافظين وقدر لجمهورية فايمار التي تلت سقوط قيصر ألمانيا أن تضم بين قادتها عدداً كبيراً من اليهود إستلموا مناصب الوزارة ورئاسة الوزارة. وأعاد إنبهار المارك والاقتصاد الألماني عامة إلى الأذهان ذكريات أزمة ١٨٧٣. وبدأ للمحافظين أن الوضع يتطلب إجراءات متطرفة في طرقها للحيلولة دون وقوع ألمانيا كلياً في أيدي البلشفية واليهودية. وبذلك إكتسبت معاداة السامية فرصة جديدة وإعترافاً بالجداوة والوجاهة وعلى قمة هذه الموجة وصل هتلر إلى الحكم، الموضوع الذي عولج في كتب عديدة. وكذلك أصبح وصول النازيين إلى الحكم وأثر ذلك على المصير الصهيوني وفلسطين من المواضيع المعروفة، حتى قال ألفريد للثال، اليهودي الأمريكي المعادي للصهيونية، أن نجاح هذه الحركة يتلخص في كلمة واحدة هي «هتلر». وفي الفصل السابق أتينا على ذكر تأثير ألمانيا النازية على الهجرة إلى فلسطين وإعتراف الأوساط العالمية بالقومية اليهودية كموضوع ذي صدد. وبفعل هذا التأثير، إرتفع عدد المهاجرين إلى فلسطين من ٤٠٧٥ منهم ١٪ فقط من ألمانيا في ١٩٣١ إلى ٦١٨٥٤ منهم ٩٪ من ألمانيا في ١٩٣٣. وإنعكس تغلغل الصهيونية بين الأوساط اليهودية بإرتفاع مقدار دافعي الشكيل (العملة الصهيونية) من ٤٢٣٥٣٣ في ١٩٣١ إلى ١٤١٦٢٨٠ في

١٩٣٩. وما نظننا في حاجة إلى معالجة آثار الحرب العالمية الثانية ومحاولة النازيين تنفيذ شعار «الحل النهائي» للمشكلة اليهودية على الضمير العالمي من ناحية وعلى اليهود المنكوبين من ناحية أخرى.

ولادة اليهودي الجديد

لم تساعد المجازر الروسية على تقوية الحركة الصهيونية بدفع اليهود إلى الهجرة وحسب بل بغرس روح المقاومة والقتال فيهم أيضاً. كانت العادة حتى تلك الأيام، أن يسارع اليهودي عند سماعه بمجزرة إلى بيته وإيصاد أبوابه وتحصين شبائكه، تاركاً البقية لرحمة الله ووصول قوات الأمن المتأخر دائماً. وفي السنين المتأخرة التي إنتشرت فيها الحركات الثورية، عمدت الحكومة إلى إستعمال مجازر البوغروم وإبقاء قوات الأمن في أماكنها. وفي بوغروم كشنيف الشهير أمر الفون بليهيف، وزير الداخلية، في ١٩٠٣، حاكم المنطقة بمنع الشرطة من التدخل. وقد أصاب هذا البوغروم اليهود بصدمة قاسية عبر عنها الشاعر الصهيوني بياليك في قصيدته «مدينة المذبحة»:

من الفولاذ والحديد، البارد والصلب والأخرس،
أطرق لنفسك قلباً وتعال أيها الإنسان،
وامش في مدينة المذبحة.

أنظر بعينين متيقضتين والمس يدين شاعرتين،
على الأسيجة، على الأعمدة، على الأبواب،
على أرصفة الشوارع، على الأرضيات الخشبية،
الدم الأسود اليابس،
مختلطاً هنا وهناك، بالمش وشظايا العظام.

كانت النتيجة قائمة طويلة من الضحايا التي سارت إلى المجزرة كالخراف. لم تعد مجرد مأساة بل أصبحت مذلة ومهانة، ومضى بياليك ليعبر عن هذا الجانب من الحق والشعور بالكرامة المهدورة:

ما الذي يصلون من أجله؟ . . . قل لهم : إحتجوا!
إرفعوا أيديكم في وجهي وأطلبوا العدالة!

هكذا وإستجابة لمثل هذه الصرخات، عمد اليهود إلى تنظيم أنفسهم وتشكيل فرق من المحاربين للدفاع عن ديارهم. وكان أول درس على نطاق عسكري واسع تلقوه في بوغروم ١٩٠٨ في أوديسا عندما إنطلقت فرق الدفاع لتصنع القدرة اليهودية على القتال في التجربة بعد أكثر من ألفي سنة من العطل. وحدث أن هاجر إلى فلسطين عدد من رجال هذه الفرق نخص بالذكر منهم جابوتنسكي الذي نظم وحدات أوديسا ثم شن حملة مركزة لتشكيل الكتيبة اليهودية ضمن الجيش البريطاني في الحرب العظمى لتصبح نواة لها غانا فيما بعد وأخيراً الجيش الاسرائيلي. وبعد الثورة البلشفية وحرب التدخل، تضاعفت حاجة اليهود لتأليف مثل هذه الفرق. وعمد الاشتراكيون منهم إلى تأليف وحدات خاصة بهم ضمن الجيش الأحمر، بينما بعث اليمينيون منهم جابوتنسكي للتفاوض مع الجنرال بتلورا، المسؤول عن تنظيم مجازر البوغروم ضد اليهود، لتأليف وحدات يهودية ضمن جيشه. وقد أثارت المفاوضات ضجة بين الجناح العمالي الذي طالب بإجراء تحقيق في الموضوع^(١). وما أن إندخرت قوات المديرية وجيوش التدخل على يد البلشفيك، حتى قام عسكري هذه القوات بنفث غضبهم في سلسلة من المجازر ضد اليهود بكلمات «اليهود شيوعيون» التي تردد صداها في شتى أنحاء أوكرانيا. وتحدث أحد التقارير عن الموضوع فقال: «جرت بوغرومات في أماكن عديدة وإستمرت لعدة أيام حتى أبيد اليهود فيها كلياً» وبلغ عدد الضحايا المسجلة رسمياً حتى أيلول ١٩١٩ نحو أربعين ألف شخص^(٢).

وإلى الغرب، أنهم البولونيون اليهود في ميدان مختلف بمساعدة النمساويين بينما إتهمهم هؤلاء بمساعدة الروس. وفي كل الحالات، أذاقوا

(١) كوهن، ص ١٧٢.

(٢) تقرير عن البوغرومات اليهودية، لجنة إسعاف بوغروم كييف، ١٩ أيلول ١٩١٩.

اليهود إنتقاماً قاسياً. وأمام زوال الحماية التقليدية وإنهيار صرح القانون الدولي والأمن العام غداة الحرب العظمى، إقتضى على اليهود تولي مسؤولية الدفاع عن أنفسهم، وفي كثير من الأحيان بموافقة السلطة الشرعية. ففي كراكاو مثلاً، لصقت إعلانات تقول: «بالاتفاق مع لجنة التصفية البولونية، تتولى اللجنة العسكرية اليهودية مهمة تنظيم فرق الدفاع عن النفس عن طريق الضباط والجنود اليهود لغرض حماية الأرواح والممتلكات اليهودية في كراكاو والمحافظات... وبناء عليه فإننا ندعو جميع الضباط والجنود اليهود أن...»^(١) ولم تكن ثمرة تنظيم هذه المليشيات اليهودية محصورة في بعث الروح العسكرية والتدريب على القتال عند اليهود بل علمتهم القيام بذلك كيهود وفي تضامن مع اليهود الآخرين. ومن آخر الدروس التي تلقوها في هذا الميدان إنتفاضة الفيتو اليهودي في وارشو أيام الاحتلال النازي. وهكذا أدى طريق معاداة السامية في الأخير إلى غرس روح الثقة بالنفس والاعتماد عليها في الدفاع والتدريب على إستعمال السلاح مما أصبح جوهرياً فيها بعد لتنفيذ المخططات الصهيونية بالقوة.

وعلى الجانب الآخر، ساعدت هذه البوغرومات المعادية للسامية على إعادة النظر في الاعتراضات الدينية ضد الصهيونية. لقد رأى اليهود الأرثوذكس أن إقامة الدولة اليهودية بالعمل السياسي والعسكري للإنسان كفر وزندقة. فالله وحده هو الوكيل بإقامتها وسيفعل ذلك في الوقت المحدد وبعد ظهور المسيح. وهذا هو الاعتراض الذي ما زال يتمسك به عدد من اليهود الأرثوذكس، وخاصة جماعة نتوري كارتا في القدس. بيد أن توالي البوغرومات والتذبح، أعطى الفرصة للحاخامين الصهاينة ليجتهدوا ويقولوا أنه طالما أجاز الدين تجاوز القواعد والنواهي لفرض إنقاذ حياة يهودي، إذن فيمكن توسيع الفتوى بحيث يحل تأسيس إسرائيل لغرض إنقاذ المجموعات اليهودية من القتل.

(١) تقرير عن البوغرومات في بولندا، من منشورات المنظمة الصهيونية، لندن، ١٩١٩.

«لحماية أنفسنا من اليهود، لا أجد أمامنا غير وسيلة واحدة وهي أن نستولي على أرض الميعاد ونرحلهم إليها»، قال فخته، أبو القومية الألمانية، معبراً في الواقع بشجاعة عما عبر عنه الآخرون من معادي السامية بمكر ورباء في تأييدهم للبرنامج الصهيوني. وبقدر ما دفعت معاداة السامية من يهود إلى الصهيونية دفعت من الأغيار إلى تأييدها وتبنيها. وكان «الحزب الديني» الذي أشار إليه بالمرستون، رئيس الوزراء البريطاني في كتابه المؤرخ ٤ أيلول ١٨٤٠، من أول المجموعات المسيحية التي عملت لإعادة اليهود إلى فلسطين بحجة تحقيق نبوءات الكتاب المقدس وأصبحت مسؤولة عن إقامة عدد من المستوطنات الزراعية اليهودية حول القدس للمهاجرين من روسيا. وفي المناقشات البرلمانية في بريطانيا بشأن حقوق اليهود في التمثيل البلدي والبرلماني، تحدث عدد من النواب في معارضة الاقتراح على أساس ما ورد في النصوص المقدسة. وعلى رأس هذه الجماعة كان اللورد أشلي الذي ملأ يومياته بالصلوات الخاشعة لمجيء اليوم المبارك الذي يقضي فيه الرب بإعادة شعبه المختار القديم إلى الأرض التي وعدهم بها.

ومن المسيحيين الورعين الآخرين الذين مهدوا للصهيونية كان القس هكلر، مطران السفارة البريطانية في فينا الذي توصل بموجب حسابات غيبية إلى أن عصر إعادة اليهود إلى الأرض المقدسة قد حل. وبأدر إلى إعطاء هرتزل تأييده التام في مسعاه، بعد أن عبر عن رأيه بأن اليهودي ليس سوى لص و«شوك كبير فوق تل من الروث» وتوصل مسيحي آخر هو الأب أغناتيوس إلى أن «الصهيونية هي يهودية الرب»، العبارة التي ردها الكثير من بعده. ويعطي هرتزل في يومياته قائمة طويلة بأسماء «أوطأ معادي السامية» ممن أيده في مسعاه. وضمت القائمة قيصر ألمانيا، والدوق الكبير لبادن، وجوزيف تشامبرلن والكونت بليهف. وهناك المعادي الصريح للسامية الكاتب الفونس دوديه على فكرة الصهيونية «ما أروعها! ما أروعها!» قال

له. وبعد نشر كراسته «الدولة اليهودية بقليل أورد في يومياته بتاريخ ٤ مارت ١٨٩٦: «أكد مؤيد لي حتى الآن هو إيفان سيموني معادي السامية الشهير في برسبرغ الذي أمطرنى بمقالاته الافتتاحية في مدح المشروع وبعث لي بنسختين من كل عدد». وأعطت صحيفة لا بارول ليبر المعادية للسامية صفحاتها لمقالات هرتزل وقدمتها بثناء جزيل عليه وعلى فكرته.

وكان الاعجاب متبادلاً في الواقع. ونجد مثلاً لتقدير الصهاينة لمعادي السامية في ملاحظات هرتزل عن هذه الشخصيات التي إلتقى بها، ولا سيما عند مقارنته الوزيرين الروسيين الكونت فيتة والكونت بليهيف. فبعد زيارته لهما في ١٩٠٣، وجه حجم سخريته وإنتقاده للأول الذي إشتهر بعطفه على اليهود وبذل طاقته لمنحهم الحقوق الليبرالية المعتادة، ولم يبد أي حماس لتقبل البرنامج الصهيوني. أما بليهيف، وزير الداخلية المسؤول الأول عن بوغروم كشنيف وعدائه السافر للسامية فقد لقي مكانه المرموق في قلب هرتزل بعد أن قال له «إنك تتحدث لواحد من أنصارك». وأجاب هرتزل بقوله: «وأنا أيضاً يا سيادة الوزير يسعدني أن ألتقي بالسيد دي بليهيف الذي يتحدث عنه كل أوروبا... وبالنحمة الذي جعلني أقول لنفسي لا بد أن يكون هذا الرجل رجلاً عظيماً بكل تأكيد^(١)».

وبعد خمس سنوات زار الزعيم الصهيوني ولفسن رئيس الوزراء الروسي، ستولين، وعاد من بتروغراد بنفس التأكيدات على المساندة^(٢). وقبلها بخمس سنوات أعطى القيصر الألماني تأييده المعادي للسامية عندما أعرب عن إعجابه بهرتزل وقال له: «هناك بعض العناصر بين شعبك ممن سيكون من الصالح تماماً إبعادهم إلى فلسطين. إنني أفكر مثلاً بولاية هسة، حيث يعمل المرابون بنشاط بين السكان الريفيين»^(٣).

(١) يوميات هرتزل ج ١ ص ٣٤٢.

(٢) كوهن، ص ٨٩.

(٣) يوميات هرتزل، ج ٢، ص ٧٢٨.

الوصف المعتاد الذي يعطيه الصهاينة لأي معادٍ للسامية يتعاطف معهم هو أنه يبدي «فهماً جيداً» للموضوع. ويروي حاييم وايزمان في يومياته كيف ألقى رئيس شرطة نكولايف القبض عليه بعد خطاب ألقاه في الكنيس. وبعد دقائق قليلة من الشرح علق الضابط على ما سمعه قائلاً: «هذه فكرة جيدة أن تأخذوا جميع اليهود إلى فلسطين» وبادر فوراً إلى إطلاق سراح وايزمان وحصل منه على ذلك المديح «إنه لرجل طيب» و«رجل رقيق القلب» (١).

حذت بولندا حذو ألمانيا النازية وتقدمت إلى عصبة الأمم بطلب يلح على تخصيص أرض ينقل إليها يهود بولندا. وأبدت الحكومة البولونية إستعدادها للإستجابة لنداء بن غوريون بتزويد السلاح وقامت بالفعل سراً بشحن كميات من رشاشات وبنادق موزر إلى المستوطنين في فلسطين إبان الثورة الفلسطينية من ١٩٣٧ (٢). وقد أوصى جابوتنسكي خيراً بالحكومة البولونية الفاشية: «التي أعتقد بأن صدق الحكومة البولونية وأية حكومة أخرى تحذو حذوها كما أتأمل ينبغي ألا يصبح موضعاً للتشكك، بل على العكس يتعين الاعتراف به وإستحسانه بشكر وإمتنان» (٣).

ومن الأغيار الذين ناضلوا بحماس من أجل الصهيونية، كما أسلفنا، كان العقيد ماينركز هاغن الذي كشف عن جذور صهيونيته المتطرفة من مذكرة رسمية بعث بها إلى القيادة العامة في القاهرة في ١٦ أيلول ١٩١٩: «إن ميلي نحو اليهود عموماً يرجع إلى غريزتي المعادية للسامية التي تطورت على الدوام بإتصالاتي الشخصية» (٤). ومضى هذا الضابط السياسي في التوكيد على ميوله المعادية للسامية في مناسبات مختلفة من يومياته. وسرعان ما إكتشف حليفاً له في شخص هتلر حالما إلتقى به فقال «إنه رجل مخلص

(١) التجربة والخطأ، ص ١٠٢.

(٢) Edelman, M., Ben Gurion, London, 1964, p. 107.

(٣) إفادة جابوتنسكي للجنة الملكية البريطانية، شباط ١٩٣٧.

(٤) ماينرتز هاغن، ص ٢١.

وصادق تمام الصدق ويرغب في صداقتنا» .

وإنحاز لويد جورج، الذي أصدرت حكومته وعد بلفور، إلى جانب الصهيوني وأصبح من المتحمسين للحركة، بسبب ميول مشابهة معادية للصهيونية. وتحدث عنه لفارد شتاين، صاحب الكتاب الشهير عن وعد بلفور، بهذه الكلمات: «كأي واحد من مؤيدي الصهيونية البارزين الآخرين، كان للويد جورج شعور مزدوج تجاه اليهود. ونجد في بعض خطبه عن الحرب في أفريقيا الجنوبية ونتائجها شيئاً من معاداة السامية البذئية والدارجة»^(١). ورغم كل ما إدعى به من العطف على الطائفة اليهودية فيما بعد بين الحربين العالميتين، فإنه لم يستطع أن يتخلص من الاعتقاد الشائع بسلطة اليهود ونفوذهم ومؤامرتهم العالمية عندما بحث في أصول وعد بلفور في كتابه «حقيقة معاهدات الصلح». ونستشف تأثير بروتوكولات حكماء صهيون في مثل هذه الفقرة: «لقد كان اليهود الروس يعملون سراً لحساب دول أوروبا الوسطى أولاً. وأصبحوا الوكلاء الرئيسيين في روسيا للدعاية الألمانية المضادة للحرب. وفي ١٩١٧، قاموا بالكثير في التحضير لتقويض المجتمع الروسي عموماً، فيما عرفناه فيما بعد بالثورة»^(٢).

ومن الصهاينة الأغيار الذين لعبوا دوراً مباشراً في إصدار وعد بلفور كان السر مارك سايكس الذي أثنى عليه ناحوم سوكولو أحر الثناء^(٣). وكان سايكس من الكاثوليك المتحمسين لإيمانهم ومن كانوا يعتبرون الاشتراكية مرادفاً للإباحية الجنسية. ويمكن ضمه أيضاً إلى الحزب الديني الذي أشار إليه بالمرستون. ولا يترك مؤرخ حياته أي شك في معاداته للسامية. «لقد كان محط إعجابه التركي القديم الطراز بينما كان يمتق في شبابه الأرمن واليهود واليونانيين والروس بشكل متساو». وفي رسالة

(١) يورد شتاين أمثلة من معاداة لويد جورج للسامية. أنظر ص ١٤٣.

(٢) لويد جورج، حقيقة معاهدات الصلح، ص ١١٢٢.

(٣) سوكولو، ج ٢، ص ٢٥.

بعث بها من أفريقيا الجنوبية إلى الفريد داولنغ في ١٩٠٠، كتب قائلاً: «آرائني هي كالتالي: البوير حيوانات. المستوطنون البريطانيون إما كذابون أو يهودا»^(١)! وفي عام ١٩٠٤، تمنى لو أن اليهود في لندن عادوا إلى لبس ملابسهم التقليدية القديمة (وكانت على العموم الملابس التي فرضها عليهم الحكام المسيحيون). وهلل سوكولو لهذه الأمانة وإعترافها دليلاً صادقاً على حبه لبني إسرائيل ووقوفه المشرف ضد أولئك اليهود المهجنين الذين تنكزوا.

ولم يكن أدوين مونتاغ، الوزير اليهودي المسؤول عن شؤون الهند، والذي قاوم إصدار وعد بلفور حتى آخر لحظة، بعيداً عن الحقيقة عندما أعطى مذكرته السرية إلى الحكومة من ٢٣ أغسطس ١٩١٧ عنوان «معاداة السامية للحكومة الحاضرة». وإتهم في هذه المذكرة لويد جورج بإتباع سياسة معادية للسامية ستصبح أساساً عاماً لجمع معادي السامية من جميع أنحاء العالم ومضى ليقول: «من السهل لي أن أفهم محرري صحفيي المورننغ بوست والنيووتنس أن يكونوا صهاينة. ولا أندش مطلقاً من أن أرى غير اليهود في أنكلترا يرحبون بهذه السياسة. لقد أدركت دائماً مدى الكره الذي يكنه الناس لطائفتي بشكل يفوق بكثير ما يتصوره البعض»^(٢).

بالطبع لم يعبأ كل الأغيار الصهاينة في شرح حقيقة دوافعهم، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك فقد فكر رشارد كروسمان، الوزير العمالي البريطاني والمؤيد القوي لقيام إسرائيل وتوسعها، في مشاعره الصهيونية فقال: «أستطيع أن أفهم ذلك اليهودي الذي تخلّى عن يهوديته ليصبح مواطناً عادياً، مثلي تماماً. وأستطيع أن أفهم اليهودي الذي قرر أن ينضم إلى شعبه في فلسطين. ولكن من هم بالضبط أولئك الناس الذين يدعون بأنهم إنكليز ويهود في عين الوقت...؟» ومضى كروسمان لشرح ما عناه بالمواطن العادي فقال أنه من يتخلّى عن يهوديته ويتزوج امرأة غير

Leslie, S., Mark Sykes, London, 1923, p. 57.

(١)

(٢) المذكرة في دائرة الوثائق العامة، لندن، كاب ٢٤/٢٤.

يهودية، وهو المفهوم الذي تمسك به عموماً معادو السامية وأشار الوزير البريطاني أيضاً إلى عقدة الاثم التي اعتبرها على ما يظهر سبب شقاء اليهود وعذابهم، بيد أنه فكر في الاثم في إطار «إثم صلب المسيح».

وكما كان معادو السامية متحمسين بالنسبة للصهيونية، نجد أن الصهيونية لم تلق عادة تأييداً يذكر ممن لم يضمّر عداًء للسامية. بينما كان لويد جورج معادياً للسامية ومتعاطفاً مع المخطط الصهيوني، كان سلفه على دست الحكم، أسكويث معارضاً له بشدة ولقي من شتاين هذا الوصف: «كان آخر رجل يمكن أن يضمّر تحاملاً ضد اليهود»^(١). وإذ لقي هرتزل تأييداً من الفونس دوديه، عجز عن الحصول على أي تأييد من الكاتب الإنساني تولستوي الذي عارض برناجه^(٢). وكاد يكون جميع الديمقراطيين الاشتراكيين والأمميين والإنسانيين في القرن التاسع عشر وجميع من لم يلتفت إلى القومية والعنصرية قد وقفوا ضد الحركة. وللجواب على المقولة بأن معادي السامية كانوا هم الذين أيدوا الصهيونية، قال سوكلو: «حقاً نقول لك: هذا ليس من شأننا. البواعث الشخصية لا تهمنا في شيء»^(٣).

وكما ذكرنا في الفصل الثالث، إرتبطت معاداة السامية بالانفجار السكاني لأوروبا وأصبحت الوسيلة الأيديولوجية لإخراج الفائض السكاني بالتهجير. وكانت لائحة قانون الأجانب البريطانية وغيرها من التشريعات التي سنتها أوروبا وأمريكا لمنع المهاجرين اليهود من الدخول تعبيراً عن نفس الاتجاه. وتحول معارضو هذه الهجرة إلى إعتناق معاداة السامية والصهيونية كوسائل إضافية للسياسة، وكان من هؤلاء آرثر بلفور نفسه. ولا شك أن توافي الحماس البريطاني للصهيونية في العشرينات يرجع إلى إنقطاع سيل المهاجرين

(١) شتاين، ص ١١٢.

(٢) يوميات هرتزل، ٢٩ مايس ١٨٩٦.

(٣) سوكلو، ج ١، ص ١٩.

من أوروبا الشرقية بعد ثورة أكتوبر، وهكذا حدث عندما ناقش مجلس اللوردات في حزيران ١٩٢٢ موضوع الوطن القومي اليهودي فلم يصوت بجانبه غير ٢٩ عضواً في حين عارضه ٦٠ عضواً. ولكن هذا الموقف إنقلب إنقلاباً جذرياً عندما نوقش الموضوع في البرلمان في شباط ١٩٣٦، بعد وصول هتلر إلى الحكم وعودة الهجرة اليهودية إلى التدفق، هذه المرة من ألمانيا بدلاً من روسيا. لم يتكلم غير عضو واحد ضد الوطن القومي من مجلس اللوردات وغير عضوين في مجلس العموم عندئذ. وأشار جميع المتكلمين الرئيسيين إلى الهجرة اليهودية وعارض بشدة فكرة السماح للمهاجرين بدخول أنكلترا العقيد وجويد، أحد مناصري الصهيونية قائلاً: «لا نستطيع أن نقوم بالكثير هنا الآن، ولكننا على الأقل نحكم فلسطين وهناك فرصة، ربما الفرصة الوحيدة فيها للشعب اليهودي»^(١).

ومثل كروسمان المجموعة التي يمكن أن نسميها مجموعة المثالبين من معادي السامية، وكثروا بين الشعوب الأنكلوسكونية التي تميزت بهذا النوع من الرياء، وكان بإمكانهم أن يتاجروا بذلك. أما المعادون للسامية في بقية القارة الأوروبية، فقد كان الموضوع أكثر إلحاحاً بالنسبة لهم ولم يجدوا أمامهم من سبيل غير العمل المباشر بإخراج اليهود دون أن يفكروا أين سيذهبون. وهكذا استسخر هتلر البرنامج الصهيوني ولم يعره في «كفاحي» غير إشارة عابرة متشككة: «ليس لديهم أقل نية بإقامة دولة يهودية في فلسطين لغرض العيش فيها. ما يستهدفونه حقاً هو إقامة تنظيم مركزي لأغراض غشهم وخداعهم العالمي». وعليه فلم يجد هؤلاء القادة وسيلة غير الاضطهاد المركز الذي وصل حد الإبادة في أوروبا الوسطى للتخلص منهم. ومع ذلك فإن النازيين الألمان شاركوا الروس قبل الثورة بتمني كل الخير والنجاح للمخطط الصهيوني. وبينما كانوا يضيّقون على كافة مظاهر الحياة اليهودية في ألمانيا، مدوا يد التعاون للإتحاد الصهيوني وشجعوه على مواصلة نشاطه وعينوا

(١) مناقشات البرلمان البريطاني، ٢٤ مارس ١٩٣٦.

أيجمان لتقديم الاستشارة له . وعندما منعوا كافة الصحف التي يمتلكها اليهود وكافة المقالات التي يكتبونها من النشر، إستمرت اليودشة رندشا والصهيونية في الصدور وإستيعاب الصحفيين اليهود العاطلين الذين إضطروا بحكم الموقف إلى تضيق رؤياهم في حدود القومية اليهودية والمخططات الصهيونية . وقد إستمر الحوار النازي - الصهيوني حتى الأشهر الأخيرة من الاحتلال النازي لأوروبا وبموازاة نشاطات الإبادة الجماعية في أفران الغاز . ولا شك أن هذا التعاون قد تعثر وتستر بسبب المحاولات النازية لكسب العرب وإثارتهم ضد الوجود البريطاني في فلسطين والعالم العربي . ويشعر الصهاينة بحساسية فضيحة لدى أي ذكر لتلك الصفحات المخزية من تاريخهم وببذلون قصاراهم لكبت أي معلومات أو وثائق في الموضوع .

لقد ساهمت معاداة السامية بتحريك تركيبة الاضطهاد وعقدة الإثم في إطار جديد من الأحاسيس والمخاوف والقلق والشعور بالإحباط والرفض فإزدادت النفس الجماعية توتراً وتعرضاً للنوازع والقوى القديمة والحديثة، والشعورية واللاشعورية .

ومع ذلك، فعلى مستوى السياسة العملية، ما زال المسرح ينتظر عنصراً آخر لتكتمل الحبكة وتأخذ مجراها .

الفصل الرابع

الاستعمار يدخل الميدان

بدخول الاستعمار الغربي بشكليه الكولونيالي والامبريالي منطقة الشرق الأوسط تكون مكونات الصهيونية قد إجتمعت وحولت الفكرة الخيالية والنزعة النفسية إلى مشروع عملي. وطالما إتهم معارضو القومية اليهودية هذه الحركة بإعتبارها ليست سوى أداة بيد الاستعمار حتى أصبحت هذه العبارة من الكلمات الدارجة إلى حد السخف في الميدان السياسي. وكان جمال عبد الناصر قد وصف إسرائيل بالسرطان الاستعماري، ووجد بوتغليفة، وزير الخارجية الجزائري السابق، صورة أخرى فشبها بحصان طروادة الاستعماري، في حين دأب الناطقون العرب بصورة عامة على ترديد كلمات أحمد سعيد من إذاعة القاهرة بوصفها كرأس جسر للاستعمار. وكان الماركسيون من أول من ردّدوا بإستمرار إتهام الحركة الصهيونية بكونها مجرد مطية في يد الامبريالية العالمية، منذ أن أصدر موسى هس كتابه «روما وأورشليم». والواقع أن قطاعات كبيرة من الحركة الصهيونية ذاتها إهتمت حتى حايم وايزمان بكونه صنيعة للإستعمار البريطاني. وإعترف الصهاينة أنفسهم بخدمتهم له، وكان من فلك ما قاله آدموند دي روتشيلد إلى نورمان بنتوش في ١٩٣٢ من أن اليهود في فلسطين يقومون بخدمة صادقة للغرب وأن على أنكلترا وفرنسا أن تتحالفا مع أولئك اليهود لدعم النفوذ الأوربي في

الشرق^(١). والحقيقة أن المشروع الصهيوني كان آخر مشروع إستعماري واسع النطاق يضطلع به الغرب، ولربما يفسر ذلك الصعوبات الكبيرة التي صاحبت تنفيذه والمشاكل التي ترتبت على نتائجه.

ظلت أوروبا منذ عهد الرومان تطمع بفلسطين وتشن الحملات للإستيلاء عليها بذريعة أو أخرى كما حصل في الحروب الصليبية.

وفي القرن الثامن عشر إحتدم الصراع بين الدول الأوروبية للسيطرة على الطرق التجارية إلى أسواق آسيا ولا سيما بين فرنسا وبريطانيا اللتين إصطدمتا في الأخير على أبواب مصر أبان غزوة نابليون. ومنذ ذلك الحين أخذ نجم سلطان آل عثمان بالأفول وبدأ النقاش والصراع على تقسيم تركية الرجل المريض وأصبحت فلسطين من القطع المعروضة للإستملاك. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر إتحدت ألمانيا وبدأت تتطلع كقوة كبرى وورشة صناعية ضخمة إلى طريق الهند. وكدولة داخلية محرومة من القوة البحرية، راحت تمد أظافرها براً عبر تركيا وتبني سكة حديد بغداد برلين. وسرعان ما توج القيصر نفوذه في المنطقة بحجيجته إلى القدس، في حين سبقته فرنسا بشق قناة السويس على الجانب الآخر من فلسطين. وعليه يمكننا تقسيم الاندفاع الاستعماري الغربي نحو هذا البلد إلى خمس مراحل، المرحلة الأولى المرحلة الفرنسية والمرحلة الثانية المرحلة البريطانية، والمرحلة الثالثة المرحلة الألمانية، وتعود بريطانيا إلى المرحلة الرابعة المهمة، وتظهر الولايات المتحدة في المرحلة الخامسة الأخيرة بعد الحرب العالمية الثانية. ونعالج في الصفحات التالية أدوار هذه الدول بالتفصيل وكيف أدى كل منها إلى تنشيط النزعة الصهيونية ودفعها أكثر فأكثر نحو تحقيق هدفها في الأخير وخدمة المرحلة الاستعمارية المعينة بنفس الوقت.

Bentwich, N., *Wanderer Between Two Worlds*, London, 1941, p 212

(١)

فرنسا تضع قناع الصهيونية

بالنظر لغيرة الدول الامبريالية من بعضها البعض فقد تعذر عليها الوصول إلى تقسيم نهائي للممتلكات العثمانية حتى الحرب العظمى، واكتفت بإنتزاع سلسلة من التنازلات capitulations من السلطان. وكانت فرنسا سبابة في ذلك إذ حصلت منذ القرن السادس عشر على تنازل يعطيها حق الاشراف على الأماكن المسيحية المقدسة. وإستطاع لويس الرابع عشر أثناء توسعه شرقاً أن يحصل على تنازل آخر يعطيه حماية منفردة على الكاثوليك الشرقيين وتم تأييد وتوسيع هذا الامتياز في عام ١٧٤٠. ومع ذلك فالفرنسيون المتشبهون بطبيب العيش وجمال الطبيعة، آثروا الاستيطان في لبنان بدلاً من الأرض المقدسة وحولوها إلى قاعدة تجارية للتوغل في الجهات الأخرى من الهلال الخصيب. ولم يلتفتوا إلى اليهود أو عودتهم إلى أرض الميعاد حتى الغزوة النابليونية على مصر وزحفه عبر سيناء نحو فلسطين. ويظهر أن ابن الثورة الفرنسية لم يجد من المقبول أو المنطق أن يتجاهل عقلانية ولا دينية الثورة ويكرر نداء الصليبيين. لقد بدأت المسيحية تفقد سحرها ومصادقتها كمبرر سياسي، وبدلاً من المسيحيين، وجد نابليون في اليهود وسيلة أنجح. وفي ٢٠ نيسان ١٧٩٩، أصدر نداءه إلى يهود العالم ليخفّوا ويساهموا في إعادة بناء «مملكة اورشليم القديمة». بيد أن نداءه هذا تناقض مع بيانه الآخر الذي أصدره في نفس الفترة عندما قال «اورشليم لا تقع في خط زحفي»^(١)، وترك بالفعل القدس إلى يمينه وراح يهاجم المواقف التجارية. وعلى كل فقد كان نداؤه أول تصريح من مسؤول كبير في العصر الحديث يدعوفيه إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين تحت حماية دولة إمبريالية.

بيد أن نداء نابليون تلى في الواقع نداء آخر نشر في السنة السابقة

ونسب إلى يهودي فرنسي بدون إسم دعى أخوانه في الدين إلى العودة إلى وطنهم القديم وتحريره من «الصوص اللثام» الذين دنسوا المدينة المقدسة. وضم هذا النداء شمال مصر ضمن الدولة اليهودية المقترح إقامتها تحت رعاية فرنسا. ونصت الرسالة على ما يأتي أيضاً:

«يعرض المجلس على الحكومة الفرنسية، إذا أعطتنا المساعدة الضرورية لتمكيننا من الرجوع إلى بلادنا وتوطيد قبضتنا عليه:

- كل تعويض مالي.

- المشاركة في تجارة الهند والصين مع تجار فرنسيين فقط^(١).

ويرى إسرائيل كوهين، مؤرخ الحركة الصهيونية، أن نداء نابليون يرجع إلى تأثير تلك الرسالة المغفلة التوقيع، وأمعن سوكلو في الخيال فرأى إعادة بناء الدولة اليهودية كانت «الفكرة الأساسية» لحملة نابليون^(٢). أما الحقيقة فهي أن نابليون كان مجرد قائد مأمور بتنفيذ خطة سرية وضعتها الحكومة في ١٧٩٨، أو سنة نشر الرسالة المغفلة للإستيلاء على شرق البحر الأبيض المتوسط مع إقامة وطن يهودي في فلسطين بإسم مشروع صهيوني زائف كجزء من المخطط^(٣). وتثير ظروف نشر الرسالة ما يدفع إلى الاعتقاد بأنها كانت في الواقع طبخة حكومية وبقلم شخص مكلف. وذهب بعض الرأي إلى أن نابليون كان يرجو من ندائه كسب الوزير اليهودي لحاكم عكا، حاييم معلم فرحي. وعلى أي حال، فإن يهود الشرق لم يلتفتوا قط إلى المناورة الفرنسية لا لشكوكهم بالجنرال بوناپرت كما إدعى سوكلو، وإنما لعدم إيمانهم في المخطط الصهيوني كلياً، كما إكتشف هرتزل وزملاؤه فيما بعد. وبدلاً من إعادة البناء اليهودي من الأرض المقدسة، كال جنود نابليون أسوأ العذاب ليهود فلسطين في غزة وطبرية وصفد.

(١) النص في سوكلو، الملحق، ص ٢٢٢.

(٢) كوهن، ص ٤٤، سوكلو، ج ١، ص ٦٦.

(٣) وولف، ملاحظات على التاريخ الدبلوماسي للمسألة اليهودية، ص ١٠٤.

ومن الممكن أن نستشف بسهولة مدى جدية نابليون في فكرته مما قام به بعد سنوات قليلة عندما أبرمت حكومته إتفاقية concordat مع اليهود حذفوا بمقتضاها أي إدعاءات بقوميته الخاصة وتعاهدوا على إعطاء كل ولائهم للامبراطورية الفرنسية ووضعوا شريعة موسى في الدرجة الثانية بعد شريعة نابليون. وحذفت الصحيفة الرسمية بهدوء نشر نداء نابليون لعام ١٧٩٩، ومعه سقط من اللغة الدبلوماسية الفرنسية كل ذكر لـ «مملكة اورشليم القديمة»، بعد فشل المخططات الفرنسية لشرق البحر المتوسط.

لقد أصبح واضحاً لفرنسا أنها لا تستطيع تبني اليهود والكاثوليك في آن واحد في منطقة سوريا وعمدت التركيز على المجموعة الثانية في لبنان والمتكونة أساساً من المارونيين. وترك بذلك مصير الوطن القومي اليهودي لدولة إستعمارية أخرى بدأ نجمها بالصعود في سماء الشرق الأوسط بعد أن دمرت الأسطول الفرنسي في ذي قير وطردت جيش نابليون من مصر وأخذت بريطانيا عندئذ بالتقاط الوليد اليهودي الذي خلفه الفرنسيون على أبواب البحر المتوسط. وحدث أثناء الحرب بين السلطان العثماني ومحمد علي الذي زحف جيشه على سوريا، أن تبنى الفرنسيون جانب مصر التي إتبعته عندئذ سياسة إنظوت على نكهة في إتجاه الوحدة العربية والقومية العربية، وكذلك كان ميل المسيحيين في سوريا الكبرى التي تبنت حقوقهم فرنسا كما قلنا. وبالطبع تعارض هذا الاتجاه القومي مع الاتجاه الصهيوني وكان منافساً له في التطلع إلى الأراضي المقدسة. وربما يفسر ذلك هبوط حماس فرنسا وطائفاتها اليهودية نحو الأمان الصهيونية. وما يذكر أن القنصل البريطاني في القدس شكى إلى وزارة الخارجية في ٨ كانون الثاني ١٨٤٤ من الاشارات إلى عودة اليهود إلى الديار المقدسة قائلاً: «أن نشر كثير من الآراء التأملية في هذا الموضوع قد يؤدي إلى إثارة كثير من المشاعر ضدنا في نفوس المسيحيين الكاثوليك والأرثوذكس»^(١).

(١) وثيقة وزارة الخارجية البريطانية F.O-78/581.

ومع ذلك، فلا شيء يحدث في التاريخ بدون أن يترك أثراً، مهما صغر. وفي الستينات نرى فرنسا تعود إلى سابق مغازلتها لفترة قصيرة عندما تبنت أوساطها الامبريالية مشروع قناة السويس الذي إفتتح في عام ١٨٦٩. وحدث عندئذ أن إلتفت سكرتير يونابرت آخر، نابليون الثالث، وزوجة الامبراطور إلى المشروع القديم وتجاوبا مع الأمانى الصهيونية. وفي عام ١٨٦٠ قام أحد الزعماء البارزين للطائفة اليهودية، جوزيف سلفادور بنشر كراسة «باريس، روما، أورشليم» التي دعى فيها إلى إعادة بناء دولة اليهود في فلسطين عن طريق قرار دولي. وبعد سنتين فقط نشر موسى هس كتابه الذي أشرنا إليه أكثر من مرة «روما وأورشليم»، الذي جاء بشكل مجموعة من الرسائل تشرح المخطط الصهيوني. وفي الرسالة الثانية عشر عالج المؤلف دور الاستعمار الفرنسي في دفع المشروع: «ستكون المستعمرات اليهودية على طريق الهند والصين على أهمية عظيمة بالنسبة لأوروبا. وفي ذلك على اليهود أن يعتمدوا على فرنسا لأن الفرنسيين الذين حرروا الشعوب الأخرى سيحررون اليهود أيضاً». ولذلك فينبغى على اليهود ألا يترددوا في إتباع فرنسا في كل الأمور، ومشاريع الرأسمال الفرنسي هي جزء من نبوءات الكتاب المقدس! ألم يتنبأ النبي حزقيال بفتح قناة السويس كمقدمة ضرورية لإعادة اليهود إلى أرض ميعادهم عندما قال: «ستسوى الصحراء لتصبح طريقاً لربنا»؟ وعلق الفيلسوف الألماني أرنولد روج على أفكار موسى هس فإعتبرها مطابقة لشهادات الاستعمار الفرنسي.

وربما يمكن أن نجد أكبر مساهمة قدمتها فرنسا في هذه المرحلة في تأسيس منظمة الأليانس Alliance Israélite Universale الشهيرة في ١٨٦٠، لهدف «العمل في كل مكان لتحرير اليهود وتقديمهم المعنوي». وكان تأسيس الأليانس تعبيراً ثقافياً للسياسة الامبريالية التوسعية لنابليون الثالث. وقامت المؤسسة بدون شك بخدمة كبيرة لمد النفوذ الفرنسي والثقافة الفرنسية في عدة أجزاء من العالم. والطريف من أمرها أنها قامت بتأسيس مدارس في سوريا (حيث النفوذ الفرنسي ومطامعه الامبريالية) أكثر مما قامت به في العراق

وإيران (حيث وجد عدد أكبر من اليهود ومن حاجة أعظم للتعليم)^(١).

ورغم معارضة الأليانس للصهيونية، فإنها ساعدت الحركة بدعم الوجود اليهودي في فلسطين وتمهيد الطريق للإستيطان بإقامة المراكز الثقافية المختلفة في البلاد، ومنها مدرسة مكفه إسرائيل، أول مدرسة زراعية يهودية في البلاد أقيمت في ١٨٧٠ قرب يافا. وعندما أعلنت الحرب العظمى كان هناك نحو ٥٠ مدرسة أو مؤسسة تعليمية فرنسية يعود لها الفضل في جعل اللغة الفرنسية من اللغات الرئيسية المستعملة بين المستوطنين اليهود.

وخلال نفس الفترة أيضاً تقدم البارون أدموند دي روتشيلد فأنقذ المستوطنات اليهودية التي أفلست وأخذها في رعايته بكلفة مفرطة، ثم مضى فأقام مستوطنات جديدة كان منها مستوطنة عكرون في ١٨٨٤. وخطط لتأسيس صناعة نبيذ ضخمة بسعة للتصدير إلى أوروبا حول مستوطنة ريشون لزايون التي ضمت عنابر روتشيلد الشهيرة بمخزونها من البراندي والنبيذ حصيلة أكثر من مليون ونصف المليون كرمة من غرس البارون. ولاقت معاصر النبيذ مشكلة تسويق الناتج في هذه المنطقة الإسلامية التي لم تعد على إستهلاك هذه المادة، وهي المشكلة الاستعمارية النمطية المعتادة والتي تكررت فيما بعد في الجزائر. والصناعة الأخرى التي لا تقل مهزلة في تجاهلها للظروف المحلية، كانت صناعة العطور في هذا البلد الجائع إلى الخبز.

وإستعمل البارون دي روتشيلد سياسة دكتاتورية في إدارة المستوطنات وأدى ذلك بإستمرار إلى منازعات ومشاحنات مع المستوطنين. ووجه نقد من عدة أطراف لأساليب وكلائه حتى إضطر في ١٩٠٠ إلى تحويل إدارة شؤون المستوطنات إلى إتحاد الاستيطان اليهودي. وقد كره الصهاينة في الواقع أسلوبه الخيري. وكره هو أسلوبهم وأفكارهم السياسية، مما أنتج تشككاً متبادلاً بين الطرفين. ولربما يمكن تفسير ذلك في إطار المخططات الامبريالية

(١) أنظر الأرقام في الموسوعة اليهودية.

التي كان البارون يمثلها. لا بأس بفلسطين كملجأ ومنفى لليهود غير المرغوب فيهم والمطرودين من أوروبا، أما أن تصبح كياناً سياسياً يزاحم التفاهم المسيحي الفرنسي في سوريا الكبرى فلا. ومع ذلك، فإن البارون دي روتشيلد إستمر حتى النفس الأخير يتحدث عن اليهود كحماة للمصالح الغربية في الشرق. ومن الجدير بالملاحظة أنه ركز جهوده الاستيطانية ومستعمراته إلى الشمال من فلسطين وعلى مقربة من منطقة النفوذ الفرنسي في لبنان، كما في مستعمرات متولة. وبالفعل أصبحت هذه المستعمرات فيما بعد ذريعة لفرنسا للمطالبة بها وضمها إلى سوريا عند تخطيط الحدود بين القطرين في ١٩١٩.

ولم يدم شهر العسل لستينات القرن التاسع عشر طويلاً بعد أن إشتريت بريطانيا أسهم الخديوي إسماعيل في ١٨٧٥ وأصبحت المساهم الأكبر في شركة قناة السويس. وفي ١٨٨٢، نزلت القوات البريطانية في مصر وفقدت فرنسا آخر أمل لها في السيطرة على طريق الهند. وبنفس الوقت أطاحت بروسيا بالعرش الامبراطوري بدحرها للجيش الفرنسي ووضعت حداً للأحلام البونابرتية.

ومن الناحية الأخرى إعترفت بريطانيا في مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨ بوقوع سوريا ضمن منطقة المصالح الفرنسية في الشرق الأوسط. ولهذا النقطة أهميتها بالنسبة للعلاقات الأنكلو فرنسية نظراً لأن بريطانيا سبقت وإعترفت في ١٨٤٠ بأن فلسطين تعتبر جزء من سوريا. ولم يعد بإمكان فرنسا في هذه الزاوية أن تتبع سياستين متناقضتين أحدهما مع المسيحيين العرب والأخرى مع اليهود الصهاينة في نفس الاقليم. وهكذا راحت الدبلوماسية الفرنسية تبتعد من الخطوط الصهيونية وتركز جهودها على دعم نفوذها في لبنان. وعندما إندلعت الحرب العظمى وإبتدأت القوى الكبرى في البحث عن أنصار وحلفاء، عمدت بريطانيا إلى تأليف الكتيبة اليهودية ضمن الجيش البريطاني في مصر بينما ألقت فرنسا في قبرص الكتيبة الشرقية من المسيحيين.

ويمكن القول على هذا الأساس أن الفرنسيين لم يقعوا بما وقعت به أنكلترا من التناقضات في الشرق الأوسط. وتحول عزوف الفرنسيين عن المشروع الصهيوني إلى شكوك مستأصلة ضد القومية اليهودية وتحركاتها في فلسطين، ولا سيما بعد أن وقعت الحركة في قبضة الألمان واتخذت المنظمة الصهيونية برلين مركزاً لها، مع ما تمتعت به تلك العاصمة من نفوذ وتأثير في إسطنبول. وبلغ عدااء الفرنسيين للصهيونية حد تحريض السلطان ضد السماح لليهود بالهجرة إلى الأرض المقدسة، كما ذكر الوزير المفوض الأمريكي في إسطنبول، أوسكار ستراوس. وإنكشف هذا الموقف بصورة علنية أثناء الحرب العظمى. وبينما كانت الصحافة العربية في مصر حائرة إزاء البرنامج الصهيوني، عبرت الجورنال دي كايرو الفرنسية عن رأي معاد صريح بشأنه. وذكر المسؤولون البريطانيون في المنطقة، أن الفرنسيين كانوا وراء الهيجانات والنشاطات العربية المعادية لليهود في فلسطين ويغذونها من معارقلهم وراء الحدود في سوريا. ودون العقيد ماينرتز هاغن في يومياته أنه واجه الفرنسيين بالحجج الوثائقية عن أعمالهم التحريضية. ووعدوه بوقف الحملة الدعائية^(١). وعبر الصهاينة عن رأي مشابه فاتهموا فرنسا بحبك مؤامرات كاثوليكية فرنسية لتشجيع المعارضة العربية، كما جاء في خطاب زانغويل في لندن بعد الحرب مباشرة^(٢). وبينما تساهلت تركيا في السماح للتجهيزات والمواد الغذائية بالوصول إلى المستوطنات اليهودية أثناء الحرب، تشددت فرنسا على ما يظهر في منع وصول مثل هذه التجهيزات، وبلغت في ذلك حد احتجاج البحرية الفرنسية للباخرة الأمريكية فلكان المحملة بمثل هذه المواد الحيوية من أمريكا إلى المستوطنين اليهود في فلسطين ولم يسمح لها إلا بعد مفاوضات طويلة على مستوى عال.

(١) ماينرتز هاغن، ص ٥٨.

(٢) زابنست بلتن، أيلول، ١٩١٩.

وساعد الموقف الفرنسي المعادي للصهيونية على تقوية الاتجاه الاندماجي لليهود وإضعاف الحركة الصهيونية في فرنسا عبر السنين وحتى الآونة الأخيرة. وبقيت فرنسا من الدول الأوروبية القليلة التي إنفقرت إلى اتحاد صهيوني. وعندما ناقشت المنظمة الصهيونية الوضع في فرنسا في مؤتمرها الخامس والعشرين، وجدت أمامها تقرير اللجنة المركزية يقول: «وعلى كل، فإن تنظيم الصهيونية في فرنسا بقي ضعيفاً نوعاً ما ولم تستغل إستغلالاً كافياً العواطف الجديدة التي حصلنا عليها»^(١). وبلغ موقف القوميين اليهود من الضعف والهزال أن الأستاذ سلفين ليفي، ممثل الصهاينة لدى مؤتمر الصلح تكلم في ١٩١٩ إلى المؤتمرين فهاجم في الواقع الوطن القومي اليهودي في فلسطين. وإنتهز رئيس الحاخامين في فرنسا فرصة عيد التوبة في ١٩٢٠ ليهاجم بعنف الحركة الصهيونية. لقد عانى اليهود الفرنسيون من معاداة السامية أكثر مما عاناه أبناء طائفتهم في بريطانيا، ولكنهم لم يستطيعوا بفعل هذه الظروف غير المؤاتية للصهيونية أن يعطوا ردود فعل في اتجاهها. ويظهر أن معاداة السامية، ريبة الرأسمالية، إقتضى عليها أن تسمع صوت الأخت الأكبر، الامبريالية، وتدعن لمتطلباتها.

وكانت الشكوك والمخاوف متبادلة، فقد كان الصهاينة بدورهم - كما أورد الكابتن أورسبي غورفي تقريره عن الموضوع، يخشون الاتجاه الاندماجي في العالم الفرنسي^(٢)، كما ثبت فيما بعد بالنسبة ليهود تونس والجزائر بصورة خاصة. وعلى عكس الانكليز الذين إعتادوا في إستعمارهم على ترك المواطنين المحليين على لغتهم وثقافتهم الوطنية، دأب الفرنسيون على فرض ثقافتهم وحضارتهم التي يعتزون بها بشكل مفرط، على الشعوب الأخرى. وكان من

(١) تقرير اللجنة التنفيذية إلى المؤتمر الصهيوني الخامس والعشرين، ص ٤٦٢.

(٢) الصهيونية والكتائب اليهودية المقترحة، مذكرة الكابتن أورسبي غور، ١٤ نيسان

١٩١٧، وثيقة رقم Cab 24/10 PRO.

طبيعة هذا الموقف أن يفرض على يهود فلسطين بخلفيتهم السلافية ولغتهم العبرية وتقاليدهم اليهودية تحدياً ثقافياً من فرنسا خبره اليهود من قبل وعانوا منه في مواجهة حضارة الاغريق والرومان .

وبقي الموقف كذلك على هذا الحال حتى النصف الثاني من هذا القرن، ولم يبدأ بالتغير حتى إندلاع حرب التحرير الجزائرية التي أيدها العرب إلى حد أقص مضاجع الاليزيه . وإزدادت المشاعر توتراً بعد تأميم مصر لشركة قناة السويس . وقد حول العامل الأول فرنسا إلى حليف لإسرائيل ضد العرب وأعاد العامل الثاني إلى الحياة الفكرة القديمة المتعلقة بإستعمال الوجود اليهودي في فلسطين لحماية المصالح الغربية وطريق أوربا إلى المحيط الهندي . وأصبحت الصهيونية مرة أخرى حركة محترمة لا تتناقض مع المصالح الوطنية فتفتحت قلوب اليهود الفرنسيين للترحيب بها تدريجياً . وفي عام ١٩٥٣ ، قام رجل الصناعة اليهودي الكبير وصاحب معامل الطائرات المنتجة لطائرة المراج ، مارسيل داسو بتعريف شيمون بيريه بنائب رئيس الوزراء بول رينو وغيره من علياء الأوساط السياسية والعسكرية . ومن صفقة شراء معدات وطائرات عسكرية ، تطورت العلاقة حتى أدت إلى القيام معاً بحملة السويس المشتركة في ١٩٥٦ ، والتي أصبحت نقطة تحول بارزة في الموقف من الصهيونية . أخذت شكلها الواعي في البيان الذي أصدرته مؤسسة الكونستري المركزية - وهي المنظمة الفرنسية اليهودية المعروفة بمعارضتها للقومية اليهودية - وعبرت فيه عن تعاطفها مع الحركة الصهيونية لأول مرة وناشدت شعوب العالم المتمدن ، بالوقوف إلى جانب إسرائيل . وفي نفس الوقت ، إنكبت وزارة الصناعة والتجارة على التخطيط لمد خط أنابيب للنفط من إيلات حيفا لربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط بكلفة ٢٠ . ٠٠٠ مليون فرانك ، إنه مشروع دي لسبس مرة ثانية ولكن بثياب عصر النفط . شيئاً فشيئاً ، بدأت الحركة الصهيونية بالاستيلاء على معادل الرأي العام ووسائل الاعلام وجر الجماهير اليهودية إلى جانبها وإحياء البواعث القديمة

ألمانيا - قيصر في القدس

بثبيت فرنسا لأقدامها في لبنان وسوريا وسيطرة بريطانيا على حوض النيل وقناة السويس بعد ١٨٨٢ ، إنصرفت أنظار الدولتين الاستعماريتين الكبيرتين عن فلسطين والحركة الصهيونية . وبقيت ألمانيا ، القوة الاستعمارية الحديثة العهد في الميدان ، تفتش عن جسور في الشرق الأوسط بعد أن توحدت تحت قيادة بروسيا الضاربة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبرزت كقوة إمبريالية متعطشة للتعويض عما فاتها من النهب الاستعماري . وفي المسح السياسي للشرق الأوسط ، إلتفتت الأنظار إلى فلسطين فكتبت صحيفة دراورنيت في هذا الخصوص قائلة : «لدينا هنا بلد . . . أحسن وأغزر ثماراً ، وأفضل مكاناً للتجارة من العديد من أجزاء العالم الأكثر شهرة»^(١) . وسرعان ما إكتشف الألمان أن عليهم أولاً للتغلغل في بيوت المشرق أن يكون لهم أقرباء فيها . وكسب الفرنسيون نفوذهم بالادعاء بقرابة الكاثوليك والروس بقرابة الأرثوذكس وتبني الانكليز حقوق الدروز - ولكن بدون عائد مهم يذكر واتجه الألمان في هذا الميدان إلى تبني الطائفة البروتستانتية فعمدوا في ١٨٤١ إلى تأسيس أسقفية القدس البروتستانتية بالاشتراك مع الانكليز ، ولكن هذه الأداة لم تظهر كثيراً من النجاح فلم يكن في فلسطين عندئذ غير نفر محدود من البروتستانت - الأمر الذي حدا بالانكليز إلى إضافة الدروز إلى مظلتهم ، وأيضاً بدون نجاح محسوس . وأسرعت بروسيا في ١٨٤٣ إلى الاحتذاء ببقية الدول الأوروبية فأقامت لها قنصلية في القدس .

لم تتسم السياسة الاستعمارية الألمانية بالحدق والخبرة والمزاج الذي

(١) إقتباس من سوكولو ، ص ١١٤ .

إتسمت به السياسة البريطانية ومكنتها من حكم خمس العالم بأقل عدد من الجند وبأخس التكاليف. وتوصل الألمان في الأخير إلى إستعمال أسلوب الكولونيالية الاستيطانية وأنشؤا بالفعل عدداً من هذه المستعمرات والمستوطنات في أفريقيا وأمريكا اللاتينية. وإتجه التفكير إلى إتباع أسلوب مشابه في العراق والأناضول. أما في فلسطين فقد عمد نفر من المسيحيين اللوثرين إلى إقامة أول مستعمرة أوربية في الديار المقدسة تعتمد على الزراعة في عام ١٨٦٧، أي عندما كان الفرنسيون منكبين إلى الغرب في حفر قناة السويس. وكان هؤلاء المزارعون الألمان قد توصلوا إلى حسابات غيبية تنبأ بظهور المسيح ثانية في فلسطين بعد آونة قصيرة وأرادوا أن يكونوا على مقربة من هذا الحدث الجليل. ولكنهم لم يجلسوا القرفصاء وينتظروا طرده على الباب، بل أظهروا نشاطهم المعروف عن أمتهم فأسسوا عدداً من المستوطنات التي إنهمكت في الزراعة بجهد وتعلموا اللغة العربية. وأثبتوا فائدتهم للامبريالية الألمانية في الحربين العالميتين وعمل بعضهم لحساب المخابرات النازية عندما أطبقت جحافل هتلر على الشرق الأوسط.

وساعدت مستوطنات هذه الطائفة التي عرفت بالتمبلر Templer الحركة الصهيونية في توجيه النظر إلى النطاق العملي إلى إمكانات الاستيطان الزراعي الأوربي في فلسطين وبعين الوقت أغنت المهاجرين اليهود بالخبرة والمعرفة العملية في فلاحه التربة الفلسطينية والتعامل مع السكان الأصليين. ومن ذلك مثلاً أن الصهاينة إقتبسوا من التمبلرين أسلوب الزراعة المختلطة القائم على المزج بين الاعتماد على المحاصيل الزراعية ومنتجات الألبان، الأسلوب الذي طوره النمبليرون بصورة خاصة في مستعمرتي سارو^{١٠} وفلهلم. وجارى الألمان أسلوب الفرنسيين في تأسيس الأليانس فأسس اليهود منهم معهد الهلفسفيرن Hilfsverein Jer Deutschen Juden لتنمية الثقافة الألمانية في فلسطين. وأضافت إمبراطورية النمسا مساهمتها بتأسيس دار اللاميل للمعلمين ومدرسة البنين تستعملان اللغة الألمانية وثقافتها في التدريس.

عرف النصف الثاني من القرن التاسع عشر في ميدان المواصلات بالعصر الذهبي للسكك الحديدية عندما ظهرت الشركات الكبرى للسكك واحتلت مكانة تضارع في نفوذها السياسي شركات النفط في جيلنا هذا، وتساندها على نفس الفرار حكوماتها وجيوشها الوطنية في الحصول على الامتيازات والعقود مما إرتبط عادة بالمخططات التوسيعية لدولها إلى الحد الذي إعتبره لينين من المميزات الأساسية للامبريالية^(١). وفي هذا الميدان، يمكن أن نلمس بصورة بارزة إنحسار إهتمام بريطانيا بفلسطين وحلول ألمانيا محلها في التوغل في هذه الفترة، بتحويل إمتياز سكة حديد الحميدية من البريطانيين إلى الألمان. وفي عام ١٩٠٨، بدأ العمل ببناء خط سكة حديد الحجاز للحج الإسلامي، ثم حصل الألمان بعد قليل على إمتياز بناء الجزء العراقي للخط الشهير، خط برلين بغداد. ومن المهم أن نتذكر أن الخط الأول الذي ربط دمشق بالمدينة كان قد خطط ليستمر جنوباً بموازة البحر الأحمر إلى اليمن والبحر العربي. إنه بكل وضوح الجواب الألماني البري لقناة السويس والهيمنة البحرية البريطانية وقواعدها في البحر المتوسط وعدن وأفريقيا الشرقية. أما الخط الثاني، سكة حديد برلين - بغداد، فكان الخيار البري الآخر للوصول إلى الخليج العربي والمحيط الهندي.

وفي عام ١٨٨٣، عزز القيصر نفوذه في الامبراطورية العثمانية بإقامة بعثة عسكرية دائمة في الأستانة تحت إمرة العقيد فون در غولتز، بحجة تدريب الجيش العثماني. وإفتتحت في شتى المراكز التجارية العثمانية فروع للبنوك الألمانية. وتم تأسيس بنك فلسطين الألماني Deutsche Palestina Bank في ١٨٩٩ مع فروع له في المدن الفلسطينية الكبرى. وإضطلع هذا البنك بكل النشاطات الاقتصادية الألمانية في الأرض المقدسة. وفي عام ١٨٨٨، حدثت أولى المواجهات الامبريالية الكبيرة بين الألمان والبريطانيين في فلسطين عندما حصل البنك الألماني على إمتياز التنقيب عن النفط والمعادن.

(١) أنظر لينين، الامبريالية كآخر مرحلة للرأسمالية.

وأثار ذلك غيض شركات النفط البريطانية العاملة في الشرق الأوسط إلى حد متفجر في السنوات الأخيرة السابقة للحرب العظمى . ووصلت سياسة الزحف الألماني شرقاً المعروفة بـ Drang nach Osten ذروتها بالزيارة المثيرة التي قام بها الامبراطور القيصر وليم الثاني إلى الأستانة ثم القدس في ١٨٩٨ . ومن نتائج هذه السياسة التي ما زالت منظورة الأبنية الأربعة الثقيلة الشبيهة بالقلع التي بناها الألمان وأحاطوا بها القدس لتقوم بمهمة كاتدرائية ونزل ومستشفى وتذكرنا حتى اليوم بالأحلام الامبراطورية التي عاشتها برلين في أيام عزها وسؤدها .

وتحت هذه الظروف ، إنقشعت الغيوم عن خيار واضح لهرتزل فكتب في يومياته : «سأذهب إلى الامبراطور الألماني . إنه سوف يفهمني لأنه نشأ وترى على فهم عظام الأمور» . وبمساعدة الدوق الكبير لبادن ، المؤيد المتحمس للصهيونية ، استطاع أن يحصل على لقاء مع الامبراطور في ١٨ تشرين الأول ١٨٩٨ في القسطنطينية ولقاء وجيز آخر في فلسطين فيما بعد . وإقترح هرتزل على القيصر إنشاء «شركة يهودية ذات إمتياز تحت الحماية الألمانية» . وقد أبدى القيصر حماساً ملتهباً Feuer und Flamme على حد قول وزيره ألفون بولوف ، تجاه المشروع ولكن هذا الحماس تلاشى بنفس السرعة بعد خروجه من القسطنطينية في طريقه إلى القدس بالنظر للرأي الذي أبداه له القنصل التركي في برلين الذي صاحب القيصر خلال سفرته وقدم له مشورته بشأن مشاعر السلطان وأفكاره كما جاء في يوميات بولوف أيضاً . وأثار تحول القيصر كثيراً من التأمل ، والظاهر أن مستشاريه حذروه من إغضاب السلطان الذي لم يرق له المشروع الصهيوني . وذكرت وزارة الخارجية البريطانية في كراسة وجيزة أصدرتها في ١٩١٩ أن السلطان لم يرتح لفكرة إقامة «فلسطين ألمانية»^(١) . ومن الواضح أن وليم الثاني لم يكن من السداجة بحيث يعرض

للخطر مخططاته الواسعة في الامبراطورية العثمانية من أجل فلسطين
والبرنامج الصهيوني.

وعلى كل، فإن هرتزل لم تلن قناته وإستمر بالضغط على وزارة الخارجية
الألمانية ليدفعها في إتجاه صهيون. وفي مارت ١٨٩٩، كتب إلى الفون بولوف
مذكرة يشرح فيها ما كانت الحكومة الألمانية على تمام العلم به، وهو أن
فلسطين تقع على الطريق البري إلى آسيا وتعطي جواباً شافياً لخطر سكة
حديد عبر سايبيريا الروسية^(١). وفي هذه المرحلة الألمانية، إتخذت المنظمة
الصهيونية برلين محلاً لمركزها الرئيسي وإعتبرت اللغة الألمانية اللغة الرسمية
للمؤتمر وإستمرت اللجنة التنفيذية حتى المؤتمر التاسع عشر لعام ١٩٣٦،
بنشر وقائع جلسات المؤتمرات الصهيونية باللغة الألمانية فقط. وأعرب هرتزل
في الواقع في كتابه إلى الفون بولوف عن حلمه في أن يرى اللغة الألمانية
تصبح لغة المحمية الألمانية اليهودية في فلسطين.

وأن كان الأمر، فإن موضوع لغة الوطن اليهودي، انفجر بعد وفاته
عندما قررت الهلفسفيرن اليهودية الألمانية فتح المعهد اليهودي البوليتكنيكي
في فلسطين. وقد أصر مدراء الهلفسفيرن على إستعمال اللغة الألمانية كلفة
التدريس في المعهد، بيد أن عدداً من التلامذة والمدرسين الروس إعترضوا
على ذلك وأصروا على إستعمال العبرية. وفي ١٩١٣، عقد إجتماع تقرر فيه
ألا يكون للمعهد أية لغة خاصة رسمية على أن تدرس العلوم باللغة
الألمانية. وأمام هذا القرار إستقال أمناء المعهد ممن دعوا إلى اللغة العبرية
وفرضوا بذلك عقد إجتماع جديد تم في السنة التالية وإنهى إلى تبني حل
وسط لمسألة اللغة. وقد أولت الحكومة الألمانية إهتماماً كبيراً للموضوع
بحيث ظل زمرمان، وزير الخارجية فيما بعد، جالساً بنفسه خارج أبواب
القاعة ينتظر نتيجة القرار. وعلى الطرف الآخر، تولى أحاد هاعام قيادة

(١) هرتزل، ج ٢، ص ص ٨٠٠ - ٨٠١.

الكتلة الروسية الداعية إلى تبني اللغة العبرية (١) .

وما إندلعت الحرب العظمى حتى وجدت برلين نفسها في وضع حرج بالنسبة للوطن القومي اليهودي في فلسطين. فأمام رغبة الحكومة التسوية لكسب يهود العالم بتصريح شبيه بتصريح بلفور، وجدت معارضة تركيا لأي خطوة في هذا الاتجاه. ولكن الحكومة إستطاعت رغم هذا التناقض أن تسلك سبيلاً بين القوتين الجاذبتين موالياً للصهيونية ومفيداً لها على المستوى العملي. وإستمر ممثلو المنظمة الصهيونية طيلة الحرب بالضغط على وزارة الخارجية لإقناعها بفائدة اليهود وفائدة الوطن القومي اليهودي للأهداف الألمانية. وما كتبته مثلاً صحيفة يهود تركيا Die Juden der Türkei قولها أن اليهود الألمان ليسوا سوى عنصر شرق أوسطي في ألمانيا، وبهذه الصفة بإمكانهم أن يصبحوا عنصراً ألمانياً في تركيا الشرق الأوسط. وبناء على ذلك، فقد دعت الجريدة إلى تأسيس فلسطين يهودية تحت الحماية الألمانية (٢) . ونشط الناطقون الصهاينة لغرس هذه الأفكار في نفس الحكومة ووسائل الإعلام في كتاباتهم ومفاوضاتهم مع السلطة. وفي عام ١٩١٥ نشر كرت بلومنفلد، عضو مكتب برلين المركزي للمنظمة الصهيونية، مقالة في جريدة البروسشر ياربوشر قال فيها أن ألمانيا وليس بريطانيا ينبغي أن تكون الدولة الحامية للوطن القومي اليهودي، نظراً لأن لبريطانيا علاقات خاصة مع العرب بحكم وجودها وتمتعها بمصالح رئيسية في مصر وقناة السويس. وقال بلومنفلد أنه حالما يتجمع اليهود في فلسطين، سيتمكن الاعتماد عليهم في تطوير المصالح الاقتصادية الألمانية في شتى أنحاء الشرق الأوسط. والطريف في هذه المقالة إشارتها للعرب وتوقعاتها بشأن النزاع الذي ستجره المحمية اليهودية معهم وما سترتب عليه من متناقضات دولية.

(١) تفاصيل قضية النضال من أجل اللغة العبرية في فلسطين، من منشورات لجنة العمل للمنظمة الصهيونية، رقم ٢. لعام ١٩١٤. توجد تفاصيل أخرى في تاريخ التأسيس عن الحرب، ج ١٤، ص ٣٢١.

(٢) أنظر تاريخ التأسيس للحرب، ج ١٤ ص ٣٢٠.

وفتحت الحرب العظمى الأبواب لمساومات ومجازفات دبلوماسية خطيرة أظهر خلالها الصهاينة مهارتهم السياسية في تسخير كل من الطرفين ضد الآخر لمصالح حركتهم. ولم يغفل القوميون في الدول المنهزمة، ملاحظة الموقف القائم الأوروباني الذي إتخذه الصهاينة خلال ذلك الصراع المصري. وكان من أهم المساهمات الألمانية في إنجاح الحركة مجرد إجراء الحوارات بين الحكومة الألمانية والمنظمة الصهيونية الذي أربع الانكليز في إمكانية إصدار الألمان تصريحاً موالياً للصهيونية يستقطب اليهود إلى برلين. وعمل الساسة والاعلاميون الصهاينة في لندن على تعميق هذه المخاوف لدفع الحكومة إلى مسابقة الألمان بإصدار التصريح الانكليزي. ويستدل من يوميات لويد جورج إنه قد تأثر بهذه الاحتمالات فأشار إلى أن الشيء الوحيد الذي منع القيادة الألمانية من تبني الحركة الصهيونية هو عناد الأتراك^(١). وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك المساهمات العملية التي ساعدت الحركة في تثبيت الوجود اليهودي في فلسطين مما كان له أثر كبير على مستقبل الوطن القومي. ومن ذلك توسط الحكومة الألمانية لدى السلطات التركية لضمان إستمرار المستوطنات اليهودية في فلسطين بشكل مريح ومشجع وكف يد الأذى التركية عن سكانها. وبفضل هذه الوساطات، إستمرت هذه المستوطنات على إستلام المعونات والتجهيزات الضرورية من يهود العالم. وإستطاعت المنظمة الصهيونية أيضاً أن تتمتع بتسهيلات وزارة الخارجية الألمانية من حيث الحصول على وثائق السفر وإستعمال الحقايب الدبلوماسية والخدمات التلغرافية الخاصة بها^(٢).

وبعد الوصول إلى الانسداد العسكري في الجبهة الغربية، وحاجة ألمانيا إلى المساندة، إنحدرت وزارة خارجيتها إلى الجانب الصهيوني شيئاً فشيئاً كما إنعكس ذلك على وسائل الاعلام بشتى صبغاتها ومشاربها. ومن العسكريين

(١) لويد جورج، الحقيقة حول معاهدات الصلح، ج ٢، ص ١١٢١.

(٢) شتاين، ص ٢١٠.

الألمان الذين كتبوا باستمرار في الدعوة إلى إصدار تصريح ألماني بتبني الوطن القومي اليهودي كان فرانس كارل أندرز^(١). وفي ١٨١٨ تأسست لجنة بروبالستينا من عدد من المسيحيين الذين دعوا إلى توطين اليهود في فلسطين. وكتب ج. غوثيان في شرح برنامج اللجنة فقال أن من الضروري تفويت الفرصة على الانكليز الذين يوشكون على إصدار وعد لليهود بإقامة وطن لهم في الأرض المقدسة^(٢).

بيد أن هزيمة الألمان والانحيار الكامل لأحلامها التوسعية في الشرق الأوسط، ألغى هذه الاهتمامات بالمشروع الصهيوني، وتبلور هذا التغير في اتجاه الريح بانتقال المكتب المركزي للمنظمة الصهيونية من برلين إلى لندن. أصبحت الحركة الصهيونية في ألمانيا متوانية وحائرة وأخذ زعمائها بالتلاشي والذبول حتى إتهموا بأنهم يزاولون النشاط السياسي بشكل دوام جزئي أو Weekend policy. وعند إجتماع المجلس العام للمنظمة الصهيونية في ١٩٣٠، إحتج كرت بلومنفيلد ضد التفرقة بين فروع الحركة المختلفة وناشد المستمعين بتفهم الوضع الصعب الذي تواجهه الحركة الصهيونية في ألمانيا^(٣).

ورغم أن الصحافة الصهيونية إستمرت بلعب دور بارز في التعريف بالحركة وتنميتها، فيظهر أن النقد الذي وجهه الصهاينة في بريطانيا ضد زملائهم في ألمانيا كان وجيهاً إلى حد كبير. ومن الناحية الأخرى أظهرت إدارة الانتداب البريطاني شيئاً من الشكوك الانكليزية القديمة بشأن علاقة الصهيونية بألمانيا وقيل أنها أثرت في سلوك الموظفين الانكليز، ولا سيما في تفرقتهم ضد اليهود المهاجرين من ألمانيا وهناك أمثلة سافرة تكشف عن هذا الموقف، ومن ذلك إمتناع الإدارة البريطانية عن السماح لبعض رواد

(١) نفس المصدر، ص ص ٥٣٣ - ٥٣٤.

(٢) زابنت رفيو تموز ١٩١٨

(٣) تقرير اللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيوني لعام ١٩٣٠.

الاستيطان الصهيوني كأورباخ وتريدل من الرجوع إلى فلسطين مباشرة بعد الحرب العظمى .

لقد وجهت إلى الصهاينة باستمرار تهمة تجاهل المصالح الوطنية للبلاد التي يعيشون فيها وإستحياء الأهداف العليا للحركة على نطاق عالمي . ولكن والحق يقال، أنهم كثيراً ما اضطروا إلى مزاججة هذه الأهداف في الواقع بأهداف السياسات الامبريالية المختلفة للدول التي عاشوا فيها . وكما دعى الصهاينة البريطانيون إلى إقامة وطن يهودي في أفريقيا الشرقية في إطار الامبراطورية البريطانية والحماية البريطانية ثم في فلسطين بعد وقوعها في قبضة هذه الامبراطورية، دعى الصهاينة الألمان في إحدى المراحل إلى إقامة الوطن اليهودي في العراق بما ينسجم مع التخطيط الامبريالي للقيصر . وكان من العوامل التي كهرت الحركة في إتجاه فلسطين وعطلت أي توجه إلى منطقة أخرى هي أن الحركة ظلت خاضعة عددياً ونوعياً للمهاجرين من أوربا الشرقية، وعلى الخصوص روسيا، ممن لم يشعروا بتلك الاعتبارات الامبريالية التي أثرت في الصهاينة الآخرين من ألمان أو إنكليز .

وعلى كل فإن المساهمة الألمانية الرئيسية في هذا الميدان وكان لها الوقع الحاسم على سير القصة، جاءت في عهد هتلر وفي الإطار السلبي المتمثل بمعاداة السامية المتطرفة، مما هو معروف وتطرقنا إليه في أكثر من مكان واحد .

لندن تمخر شرقاً

أحدث إنسلاخ الولايات المتحدة الأمريكية من الامبراطورية البريطانية بعد حرب الاستقلال صدمة عاطفية بقدر ما كانت مادية، وكان من نتائجها أن أدارت بريطانيا ظهرها للعالم الجديد غرباً وبدأت بتوجيهها الخطير نحو الشرق والعالم القديم، وكان من أول مخططاتها في هذا الشأن السيطرة على البحر المتوسط . وزاد حرصها على ذلك بعد الحملة النابليونية على مصر .

وقامت دبلوماسيتها على أساس المحافظة على الوضع القائم في الامبراطورية العثمانية حتى تحين الظروف المناسبة لإقتسامها والسعي أثناء ذلك لتوسيع نفوذها في إسطنبول والولايات العربية. ولهذا الغرض تحالفت مع الأتراك المسلمين لطرد الفرنسيين المسيحيين من مصر وفلسطين، ثم طرد محمد علي من سوريا وفلسطين. وأدت الخطوة الأخيرة إلى فتح ملف هذين القطرين لنظر القوى الكبرى. وقد وجدت هذه القوى الأرض المقدسة بلداً فقيراً، قليل السكان، كثير الأمراض، شحيح المياه إلى الحد الذي يستبعد التفات أية شركة استثمارية، صناعية كانت أم تجارية أم إستيطانية.

ولكن وجد أيضاً أن المستوطنين البيض الوحيدين الصالحين لهذه الأرض البائسة كانوا اليهود البائسين الذين لا يعبأ بمصيرهم أحد. وظهر الرأي القائل بأن بإمكان بريطانيا أن تثبت لنفسها مركزاً في فلسطين بأرخص وسيلة وأقل كلفة بإقامة مستعمرة يهودية فيها تحت النفوذ الانكليزي. وبرز في هذا الميدان اللورد أشلي الذي أشرنا إليه آنفاً في الفصل الثاني في معرض سعيه لتهجير المواطنين غير المرغوب فيهم كوسيلة لتخفيف الضغط السكاني. وقد كتب في موضوع الهجرة اليهودية مذكرة في أيلول ١٨٤٠ إلى اللورد بالمرستون، وزير الخارجية عندئذ وقال فيها: «إن التفكير في الشخص أو السلطة التي يعهد إليها بهذه الأقاليم بمنحها إياها من قبل الدول المعنية شيء لا أهمية فيه. يفترض المخطط ببساطة وجود دومنيون كفوء ومعترف به، وإقامة صرح القانون وتنفيذه، وحكومة راغبة وقادرة على توطيد السلم الداخلي. هذه الأقاليم الواسعة تكاد تكون مقفرة. وتنخفض واردات منتجاتها من سنة إلى سنة لأن الأيدي التي يقع عليها واجب زراعتها تتناقص. ويمكن إعتبارها عديمة القيمة تقريباً من حيث كونها مصدراً للدخل، على الأقل عند مقارنتها بالثروات التي يمكن للصناعات أن تنتج منها. إنها تحتاج إلى العمالة ورأس المال معاً.

«يبد أن لرأس المال طبيعة حساسة جداً بحيث لا يتدفق بسهولة إلى أي

بلد لا يمكن فيه الاطمئنان على سلامة الممتلكات والحياة معاً. غير أنه إذا ما توافر مثل هذا الضمان الضروري أولاً، سيكون طمع الإنسان حافزاً كافياً وسينتقل بخفة وحذق إلى أية بقعة يمكن فيها تنمية المستثمر بعوائد سريعة أو بليغة»^(١).

ثم مضت المذكرة لترشيح اليهود كأحسن الموجودين لهذه المهمة المضنية بصفتهم «أرخص وأمن» وسيلة لإستعمار هذا البلد. ونجد في يومياته الخاصة تفسيراً يكشف بوضوح أكثر التفكير الامبريالي وراء المخطط: «عن قريب ستصبح هذه الأقاليم الخصة بدون حاكم، بدون قوة معروفة ومعترف بها للمطالبة بحكمها. وينبغي أن يعهد هذا الاقليم إلى شخص أو آخر. يمكن أن يعهد به إلى حاكم متنفذ أوربي؟ إلى أية مستعمرة أمريكية، إلى أي ملك آسيوي أو قبيلة آسيوية؟ هناك طامحون في أفريقيا يبتنون طلباً على هذه الأرض الممتدة من حما إلى نهر مصر؟ كلا، كلا، كلا. هناك وطن بدون شعب، وأرشدنا الله الآن في حكمته ورحمته إلى شعب بدون وطن. شعبه الخاص الذي أحبه يوماً ما، كلا بل الذي ما زال يحبه، أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب...»^(٢). وهكذا ولد الشعار الصهيوني المعروف «الشعب بدون وطن إلى الوطن بدون شعب».

وقد أثار هذا القلق المفاجيء على مصير فلسطين من شبح الطامحين من أفريقيا، محمد علي الكبير في برنامجه لتصنيع مصر في إطار الملكية العامة التي قامت أثناء إحتلاله الوجيز لسوريا بطرد التجارة والمشاريع البريطانية منها^(٣). ومن الناحية الأخرى أثار إحتلال مصر لفلسطين من رأي الخبير

(١) هودر.

(٢) هودر، ٧ مارت ١٨٥٤، أنظر أيضاً معاداة السامية للورد أشلي في الفصل ٣ من هذا الكتاب.

(٣) Miller, W., The Ottoman Empire and its Successors, Cambridge University Press, 1936.

العسكري البريطاني هيربرت سايد بوثم، لأول مرة في التاريخ الحديث موضوع إعادة اليهود إلى فلسطين في الأرض المقدسة وكان منها تأسيس أسقفية القدس Bishopric of Jerusalem وتعيين نائب قنصل لفلسطين في ١٨٣٨. وعلق اللورد أشلي على التعيين فقال: «إن تربة فلسطين ومناخها يناسبان بشكل فريد إنتاج المحاصيل التي تلزم لحاجيات بريطانيا العظمى. يمكن الحصول على أجود القطن بكميات لا حدود لها تقريباً ويعتبر الحرير من المنتجات الأساسية للبلاد وزيت الزيتون ما زال كعده من قبل سمنة هذا البلد». وأضاف أشلي قائلاً أن بإمكان بريطانيا أن تحصل على كل ذلك عن طريق إقامة مستعمرة يهودية تحت الحماية البريطانية^(١). والتناقض واضح في وصفه لفلسطين كأرض فقيرة مقفرة، كما ذكرنا قبلاً، وهذا الوصف الزاهر لخيراتها، وإن دل ذلك على شيء فعلى ضحالة معرفته بالبلاد، الأمر الذي بقي شائعاً بين المسؤولين في وايت هول ووشمنستر، بل فلنقل في العالم الغربي عموماً.

وتولى الغني البريطاني اليهودي الشهير السير موسى منتفوار النشاطات الخيرية لبريطانيا في الساحة الفلسطينية، كما مثل آل روتشيلد النشاطات الفرنسية. وكان منتفوار في الواقع نسبياً لثالث روتشيلد وشريكاً في أعماله، وكانت أموال ناثن هي التي ساعدت بريطانيا على دحر نابليون. وقام موسى منتفوار بست زيارات للقدس قدم خلالها مساعدات مالية سخية لأبناء الطائفة اليهودية وأقام مشروعين رئيسيين لمساعدة الفقراء منهم. وخلال إستيلاء مصر على سوريا، اقترح على محمد علي إقامة سلسلة من البنوك في يافا والقدس وبيروت والقاهرة والاسكندرية. برأسمال قدره مليون باون. ومن مقترحاته الأخرى الحصول على قرية أو قريتين فلسطينيتين بإيجار طويل لمدة خمسين عاماً لإعمارها من قبل اليهود وكتب قائلاً «وينبغي أن تعفى

Sidebotham, H., Great Britain and Palestine, London, 1937, p 44.

(١) .

القرى والأراضي طوال المدة من كل ضريبة ورسوم سواء أكانت للبasha أو حاكم المناطق المختلفة. وتمتع القرى بالحرية في تصريف منتجاتها لأي جزء من العالم»^(١). ومن أفكار موسى مونتفوار الأكثر طموحاً تبنيه للفكرة التي وضعها أولاً العقيد تشني للوصول إلى الهند بواسطة سكة قطار تجري بمحاذاة نهر الفرات مع فرع جانبي إلى مدينة صفد في فلسطين. وفي ١٨٥٩ عرض على اللورد بالمرستون مقترحاته لمد سكة حديدية إلى القدس.

ومن الطريف أن نتذكر هنا أنه في الوقت الذي كان المسيحيون فيه يرددون في كل مكان فكرة عودة بني إسرائيل إلى فلسطين ورغبة اليهود في ذلك، كتب مونتفوار معلقاً على إقتراح فتح العثمانيين أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية فقال أنه لم يكن هناك يهودي واحد في بريطانيا يرغب في الانتقال إلى فلسطين^(٢). ورغم ذلك فإنه حصل في ١٨٥٥ على فرمان من السلطان بالسماح له بشراء أراضي في فلسطين لغرض إستيطان اليهود.

وكتب اللورد بالمرستون، وكان صديقاً للورد أشلي، رسالة إلى نائب القنصل البريطاني في القدس في ١٩٣٩ وتبعها برسالة أخرى في ١٩٤١ مؤكداً على ضرورة إعطاء الحماية البريطانية لليهود وإعتبارهم من التبعة البريطانية^(٣). وفي ١٨٦١ إستشار بالمرستون موسى مونتفوار بشأن إمكانات زراعة القطن في سوريا تحت حماية رجال البحرية البريطانية وبرساميل من منتجي الأنسجة في مانشستر^(٤). أما آراء الممثلين البريطانيين في المنطقة ذاتها فكانت مشوشة وغير مثقفة. فبينما كان نائب القنصل في القدس يتوقع مقاومة المواطنين الأصليين للهجرة اليهودية (أنظر ما سلف ذكره).

(١) مذكرات السير موسى والسيدة مونتفوار، لندن ص ١٨٩٠ (٢٤ مايس ١٨٣٩).

(٢) نفس المصدر، ج ، ص ١٠٧.

(٣) هاتان الرسالتان مع بقية الوثائق البريطانية المتعلقة في الموضوع في كتاب أ. جاييس،

القنصلية البريطانية في القدس، لندن، ١٩٣٩.

(٤) مذكرات مونتفوار.

ويحذر وزارة الخارجية مما أسماه «الأفكار التأملية» في هذا الموضوع، نجد أن الضابط المقيم للحكومة البريطانية في دمشق، العقيد تشرشل يكتب عدة رسائل ويحرض مونتفوار على الضغط على اليهود لإعادة بناء وطنهم في فلسطين. قال «الأمر مرهون باليهود للقيام ببداية. على رجالهم البارزين أن يتقدموا ويضعوا أنفسهم في مقدمة الحركة. عليهم أن يجتمعوا ويتفقوا ويقدموا العرائض. الحقيقة أن من الضروري القيام بالتحريض في وقت واحد في شتى أنحاء أوروبا»^(١).

وقد أثر هذا الموضوع على مستوى الواقع والجد وعلى مستوى الخيال والأدب، فكتبت عدة أعمال أدبية تصور أحلام اليهود وأمانهم تجاه الأرض المقدسة. وكان من ذلك قصة «تاكريد» التي كتبها دزرائيلي نفسه. وفي ١٨٧٩ كتب إدوارد غزالت كراسته «سياسة أنكلترا في الشرق» وحذر فيها بريطانيا من أخطار السياسات الاقتصادية الألمانية ودعا إلى إيجاد خط وصول سهل يربط بين الشرق وأنكلترا بواسطة سكة حديد على إمتداد حوض نهر الفرات. وتوقع الكاتب أن تسقط سوريا يوماً ما في أيدي قوة أوروبية وتظهر الحاجة لحماية المصالح البريطانية بواسطة الهجرة اليهودية المكثفة إلى المنطقة وربط ذلك بمشروع سكة حديد الفرات. وقد أثنى الثناء المعهود على اليهود الذين ستحميهم بريطانيا، وتحدث عن تاريخهم وتعلقهم بإنكلترا وقال «إذا أعيد اليهود إلى بلادهم تحت حماية إنكليزية فسيثبتون إخلاصهم لأمتنا، وتصبح سوريا متحدة بإنكلترا إتحاداً قوياً كما لو كان سكانها من أبناء وطننا»^(٢).

ومن رجال الأعمال المغامرين الانكليز الذين أغرتهم الفكرة الصهيونية لاعتبارات تجارية وإمبراطورية كان ل. أوليفانت الذي قضى فترات طويلة في

(١) وولف، ص ١١٩.

(٢) غزالت، ص ٢٨.

العقدين السادس والسابع متجولاً في الشرق الأوسط . وكانت خطته ترتبط بصورة أساسية بأعمار المناطق القليلة السكان بموجب إتفاقية تتضمن ضمانات كافية للمساهمين .

وقد إكتشف أوليفانت أن اليهود كانوا أفضل خيار نظراً لأن السلطان كان يتشكك في المسيحيين ، وكان المسلمون الذين أخرجوا من بلغاريا وروميليا فقراء ومعوزين إلى درجة لا تؤهلهم لمثل هذا المشروع . وقد لاحظ في كتابه الذي نشره عن الموضوع أن بين اليهود رأسماليين أغنياء ، ولا تطمح أنظارتهم إلى أهداف قومية ولا يعترضون على خضوعهم للغير^(١) . وقد وصفته جريدة الجوش كرونكل اليهودية بأنه كان «أداة من القدرة الإلهية» . وقد شجع دزرائيلي السيد أوليفانت على الحصول على فرمان من السلطان لأغراض الاستيطان اليهودي الذي دعى إليه . وشجع بنفس الوقت أوليفانت البارون روتشيلد على تبني المستعمرات القائمة وإدخالها تحت إدارته . وكان إسمه قد إتصل إتصلاً وثيقاً بحركة أحباء صهيون (شفوفي صهيون) وتدين إسرائيل الحالية بنشيدها القومي (الهاتيكفا) لسكرتيره الخاص الذي كتب النشيد .

نظر الرأسماليون إلى فلسطين فوجدوها سوقاً غير مربحة لا يتجاوز تعدادها نصف المليون نسمة من السكان الفقراء . وذهب ظنهم إلى أن الوسيلة الوحيدة لتحويلها إلى أرض مربحة تكون في مدها بالأموال والأنشطة اليهودية . ومن أول الوثائق التي تكشف عن مثل هذا الرأي النصيحة التي قدمها بالمرستون إلى السلطان عندما قال «أن من الأفضل روف تماماً أن اليهود الأوربيين يمتلكون ثروة عظيمة ويتضح للجميع أن أي بلد يقررون الاستيطان فيه بأعداد كبيرة سيحني فوائده هائلة من الثروات التي يجلبونها

(١) ل . أوليفانت، أرض جلياز، لندن، ١٨٨٠ .

معهم^(١) والواقع أن بريطانيا بدأت فعلاً بجني الفوائد المترتبة على الاستعمار اليهودي حتى قبل صدور وعد بلفور. لقد ذكر الكتاب الأزرق البريطاني عن التجارة في سوريا والصادر في ١٩١١ أن الصادرات إلى فلسطين المارة عبر ميناء يافا إرتفعت من قيمة ٣٨٠,٠٠٠ باوند إلى ما يزيد على المليون باوند وإرتفعت الصادرات من فلسطين من ٢٦٤,٠٠٠ باوند إلى ٦٨٢,٠٠٠ باوند بين عام ١٩٠٠ وعام ١٩١٠ وأشار الكتاب الأزرق إلى أن الميزة الأساسية للنمو الاقتصادي للمنطقة كانت الهجرة اليهودية..

ومع ذلك فباستثناء مسح فلسطين الذي قامت به قوات المهندسين الملكية البريطانية فإن الحكومة البريطانية لم تقم بشيء آخر يذكر في اتجاه إستعمار فلسطين. أدى إخراج محمد علي من سوريا إلى إعادة الوضع التجاري للمنطقة على سابق عهده وقضى على التهديدات الصناعية المصرية. ومن نتائج ذلك فقد مشروع الاستيطان اليهودي جاذبيته كعنصر من عناصر السياسة البريطانية على المستوى العملي^(٢).

ولم ينجح حتى الضغط السكاني الذي انفجر في أوائل القرن العشرين في إعادة الاهتمام بإستعمار فلسطين. ونظرت وزارة الخارجية البريطانية كما نظرت فرنسا نحو ما سمي بالمرحلة الألمانية من الاستيطان اليهودي^(٣) كجزء من الاندفاع الاستعماري الألماني نحو الشرق. وإنصرف التفكير العسكري لتلك المرحلة إلى تحويل صحراء سيناء إلى منطقة فاصلة تكفي لحماية قناة السويس من خطر الأيدي الممتدة إلى فلسطين. وقد إضطّر السلطان العثماني بموجب هذا الاتجاه إلى التنازل عن سيناء في ١٨٩٢ وأيضاً في ١٩٠٦ إلى مصر التي كانت خاضعة لأنكلترا وسحب قواته إلى شرق

(١) من وثائق الخارجية البريطانية، رقم ف. و/٣٩٢/٧٨، بالمرستون إلى السفير البريطاني في اسطنبول.

(٢) سايدبوتم، ص ٤٦.

(٣) سوريا وفلسطين، ص ٤٥.

رافا^(١). ومارس اللورد كرومر، الحاكم البريطاني في مصر، هذه السياسة بمقاومة المقترحات التركية لربط فلسطين بمصر بسكة حديد سيناء التي اعتبرها الملحق العسكري البريطاني في القسطنطينية مضرّة بالمصالح البريطانية العسكرية^(٢). وبعد قبول مشروع الاستيطان اليهودي في العريش قبولاً مبدئياً عاد كرومر إلى إحباط همة الحكومة البريطانية بالنسبة للمشروع المقترح. لقد كانت هذه فترة كثيفة للصهاينة البريطانيين الذين كانوا يحاولون نقل أنظار زملائهم في القارة الأوروبية بعيداً عن فلسطين وتوجيهها إلى مناطق أخرى ضمن النفوذ البريطاني. وبالفعل وصفت إحدى المقالات الافتتاحية لصحيفة الزايونست، لسان حال الاتحاد الصهيوني في إنكلترا حالة الصهيونية البريطانية بكونها شيء لا حياة فيه ولا قوة^(٣).

أدى إندلاع الحرب العظمى ودخول تركيا في الحرب بجانب الألمان إلى تغير جذري آخر في الموقف. وهكذا كتب هيربر صامويل، وزير الداخلية في حكومة أسكوث أثناء الحرب في مذكراته، «في اللحظة التي دخلت فيها تركيا الحرب تغير الموقف كلياً. إذا كان لا بد من مصير جديد لفلسطين فسيهم ذلك بريطانيا العظمى بصورة مباشرة بالنظر لمصالحها الاستراتيجية المهمة في الشرق الأوسط». وحتى ذلك الحين لم تنل الصهيونية أي إهتمام من هربرت صمويل اليهودي الليبرالي المندمج والذي أعطانا مثلاً جيداً لبناء الامبراطورية الناجحين الذين أخرجتهم بريطانيا. ولم يستغرق أي وقت في إستجابته للموقف المتغير فلإنكب على دراسة كل شيء يتعلق بالصهيونية ومناقشة الموضوع مع زعيمها في بريطانيا حليم وايزمان. وإنتهى من كل ذلك بأن إكتشف فجأة «التأثيرات الروحية» للحركة^(٤) وصاغ أفكاره في هذا

(١) الوثائق المتعلقة بالموضوع في ورقة الأمر البريطانية رقم ٣٠٠٢/٩٠٦.

(٢) المذكرة المؤرخة ٩ تموز ١٩٠٣، ف و/٧٨/٥٤٥١.

(٣) ذي زايونست، أيلول ١٩١٢.

(٤) الفايكانت سامويل، مذكرات، لندن، ١٩٤٥، ص ١٣٩.

الشأن بمذكرة تقدم بها ضمت الحلول المحتملة لفلسطين بهذا الشكل^(١):

١ - دمج فلسطين بفرنسا .

٢ - بقاء فلسطين تركية .

٣ - التدويل .

٤ - إقامة دولة يهودية ذات حكم ذاتي .

٥ - حماية بريطانية تتبنى الاستيطان اليهودي .

لقد أصبح الوقت يانعاً للتقسيم النهائي للممتلكات العثمانية الواسعة فتفاوضت بريطانيا مع فرنسا وروسيا سراً لتوزيع كل شيء من التركة العثمانية، فكانت معاهدة سايكس بيكو التي خصصت سوريا للفرنسيين، وحصلت بريطانيا على مطامعها في نفط العراق . وإصطدمت مصالح بريطانيا بالمصالح الفرنسية في فلسطين التي إحتاجت إليها بريطانيا كمنفذ لأنابيب نفط العراق . وإحتاطت معاهدة سايكس بيكو لهذا الغرض بتخصيص ميناء حيفا لبريطانيا وترك الجزء الأكبر من فلسطين لإدارة نظام دولي .

وتبين أن ذلك لم يكن كافياً للاستعماريين الانكليز الذين ضموا بين صفوفهم شركات النفط الكبرى بالإضافة إلى شركات المال والسكك الحديدية . وكان المهندسون البريطانيون قد وضعوا مخططهم الخاص بهم المعروف بمشروع ولكوكس الذي يربط بين بغداد وحيفا بخط سكة حديدية ويمر إلى الجنوب من نهر اليرموك، ولكنه يقع عندئذ ضمن المنطقة الفرنسية . وتنازعت باريس ولندن على السيطرة على الجزء السوري من سكة الحديد، وتطور النزاع إلى صراع إقليمي . وأثار مشروع خط أنابيب نفط كركوك مشكلة أخرى تمكنوا من حلها أخيراً في إتفاقية نفط سان ريمو لعام ١٩٢٠ . وبموجبها حصلت بريطانيا على حقها في الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط عبر الاقليم الواقع تحت الحماية الفرنسية . ولكن شركات النفط لم ترتح

(١) نفس المصدر، ص ١٤٢ .

لذلك ورأت أن من الأسلم لها أن تسلك طريقاً آخر بعد إقامة الإدارة البريطانية في فلسطين وتبني الوطن القومي اليهودي. وآثرت الشركات إتباع الخط البعيد إلى حيفا بدلاً من الخط الأقصر إلى طرابلس تحت الحماية الفرنسية.

وبالإضافة لذلك كشفت الحرب أن اختراع الماكينة ذات الاحتراق الداخلي التي قامت عليها صناعة السيارات قضى على القيمة العسكرية لصحراء سيناء كسور فاصل يحمي قناة السويس من الشرق نظراً لأن السيارات العسكرية أصبحت قادرة على اجتيازه. وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٥ نشرت جريدة المانشستر غاردين مقالة بقلم معلقها العسكري هربرت سايد بوتوم يلفت النظر فيها إلى السهولة التي تمكنت بها القوات التركية من التوغل وإجبار القوات البريطانية على التقهقر نحو القناة. وحذر بنتيجة ذلك من الأخطار المستقبلية على مصر إذا تركت فلسطين بأيدي قوة معادية لبريطانيا. ولتفت الصهاينة إلى أهمية هذه المقالة فأعادوا طبعها وتوزيعها واتصلوا بالكاتب وجروه لتأييد الحركة الصهيونية. وإستطاعوا بمساعدته على تأسيس لجنة فلسطين تحت شعار «إعادة المجد القديم للشعب اليهودي في ظل حرية دومنيون بريطاني جديد في فلسطين». وقد إنتمى إلى هذه اللجنة كبار الشخصيات للامبراطورية البريطانية مثل اللورد روبرت سسل وأورمسي غور وغيرهما من أعضاء البرلمان. وأنيط بالكاتب سايد بوتوم «مهمة تعزيز الترابط بين المصالح البريطانية العسكرية والسياسية والحركة الصهيونية الجديدة»^(١)، بعد أن توصل إلى أن المستعمرة الفقيرة ستصبح عبأً مالياً على الخزانة البريطانية لا يمكن التخفيف من شأنه دون توطيد معمرين مستعدين لتحمل النفقات.

وخلال المناقشات التي أجرتها اللجنة الفرعية من وزارة الحرب بشأن

(١) سايدبوتوم، ص ٤٣.

المطامح الإقليمية البريطانية، أكد الجنرال سمتسن على أهمية فلسطين بالنسبة للدفاع عن مصر والعراق والخليج والسكة الحديدية المخططة لربط بغداد بالبحر المتوسط. «إن الوصول إلى حل مرض لهذه المسألة كان أهم موضوع في المناقشات، بإستثناء موضوع أفريقيا الشرقية». ووافق اللورد كرزن على الاقتراح وأضاف بأن الصهاينة سيعارضون رفع أي علم على فلسطين غير العلم البريطاني. ثم عبرت اللجنة الفرعية في ١٩ نيسان ١٩١٧ عن أملها في أن تصبح فلسطين محمية بريطانية^(١). وفي ٢٥ نيسان عرض لويد جورج فكرة ضم فلسطين وقال: «آجلاً أم عاجلاً، سيعاد النظر في إتفاقية سايكس بيكو^(٢)».

وأخذت الحكومة البريطانية تعتبر إبقاء الفرنسيين وراء جبال حوران من الأهداف المهمة التي لا يمكن تحقيقها بدون بدعة دبلوماسية. وجاء التعهد لليهود بفلسطين كأحسن وسيلة لإبعاد الفرنسيين والتهرب من الالتزامات التي أعطيت لهم. وكانت هذه هي الفكرة التي إبتدعها السير مارك سايكس، خبير وزارة الخارجية البريطانية في شؤون الشرق الأوسط، الذي إدعى بأن المطامع الفرنسية في الشرق الأوسط تتناقض مع الأمان القومي لشعوب المنطقة وأكد على أن بريطانيا ستفاوض من موقع أقوى إذا ضمت «العناصر الوطنية» إلى جانبها^(٣). وأسرع الصهاينة لإستخدام ضغطهم وأبواق دعايتهم على نطاق عالمي مؤكدين بأنه لا تصلح أي دولة لإدارة فلسطين غير بريطانيا. وفي كانون الثاني ١٩١٨، أصر لويد جورج على كلمنصو أن من الضروري منح فلسطين لبريطانيا لغرض تنفيذ وعد بلفور^(٤). ومن الطريف أن إسكويث أشار في مذكراته في ٣١ مارس

(١) محضر الاجتماع الثالث للجنة الفرعية لوزارة الحرب الامبراطورية بشأن المقترحات

الإقليمية في إطار السلام، الوثيقة بي. ر. أو/٧٧/٢١ سي. أ. ب.

(٢) محضر نفس الاجتماع. الوثيقة بي. ر. أو/٢/٣٢ سي. أ. ب.

(٣) الوثيقة البريطانية ١٥٩٥٥٨/٣٠٥٩/٣٧١ أو. ف.

(٤) تمبرلي، تاريخ مؤتمر الصلح، لندن، ج ٤، ص ١٤١.

١٩١٥ إلى خمس لويدي جورج للمشروع الصهيوني بهذه الكلمات، «من الغريب حقاً، أن الشخص الوحيد الآخر الذي خمس لهذا المشروع هو لويدي جورج. وغني عن القول أنه لا يعبأ قيد شعرة باليهود أو ماضيهم أو مستقبلهم، ولكنه يرى أن من الكفر تسليم الأراضي المقدسة بحيث تصبح تحت ولاية فرنسا الملحدة اللادينية»^(١).

كان من نتائج الانسداد العسكري على الجبهة الغربية أن توجهت أنظار الحلفاء، كما قال لويدي جورج، إلى البحث عن ميدان آخر يستطيعون فيه إحراز نصر أسهل، وكان ذلك في الشرق الأوسط. وظهر نتيجة ذلك فريق يدعو إلى حملة عسكرية على سوريا، وكان ونستن تشرشل والجنرال سميتس وبلفور وملز وكرزن ولويدي جورج ممن ذهبوا هذا المذهب، وسرعان ما وجدناهم بعد أشهر قليلة يميلون إلى جانب المشروع الصهيوني بشكل عملي في تلك الأشهر الخطيرة. وعلى الجانب المقابل وقف أسكويث وأدوين مونتاغ والسير وليم روبرتسن وكلهم عارضوا الفكرة الصهيونية بقدر ما عارضوا تبديد الجهود والقوى وتحويلها من الجبهة الغربية إلى الشرق الأوسط. «بيد أن الجميع في الأخير اضطروا لأسباب دبلوماسية وعسكرية على الموافقة على الموضوع. وحتى المستر مونتاغ سحب إعتراضه وقبل بإصدار الوعد (وعد بلفور) كضرورة عسكرية»^(٢).

تضافرت وراء وعد بلفور مجموعة من العوامل، فبالإضافة إلى الاعتبارات الإقليمية والعسكرية الواردة أعلاه، كانت هناك أيضاً الرغبة لكسب تأييد اليهود الأمريكيين ومن ثم جر الولايات المتحدة إلى الحرب في جانب الحلفاء. وكانت هناك روسيا التي نشط يهودها في الدعوة ضد الحرب، وكان هناك الأمل في كسب يهود أوروبا الوسطى إلى جانب الحلفاء،

(١) إيرل أسفورد واسكويث، ذكريات وتأملات، لندن، ١٩٢٨، ج ٢، ص ٦٦.

(٢) لويدي جورج، حقيقة معاهدات الصلح، لندن، ١٩٣٨، ص ١١٣٤.

وتفويت الفرصة على الألمان في إصدار وعد من جانبهم بتأسيس دولة يهودية في فلسطين. كل هذه الاعتبارات وغيرها مما صب في محصلة وعد بلفور مفصلة بصورة وافية في كتاب لنارد شتاين الشهير «وعد بلفور»^(١). ويورد تمبرلي أيضاً معلومات إضافية في «تاريخ مؤتمر الصلح».

والظاهر أن رئيس الوزارة البريطانية كان يخطط لضم فلسطين منذ الأشهر الأولى من الحرب وقام دعوة الفرنسيين للمشاركة في حملة عسكرية على سوريا، اللهم بإستثناء «نصف فوج من الزنوج السود إلى الجنرال اللنبي ليضمنوا عدم سرقة كنيسة القيامة». وقيل إصدار وعد بلفور بأشهر قليلة، أكد لويد جورج على مارك سايكس قبل سفره إلى الشرق الأوسط أهمية إضافة فلسطين إلى المنطقة البريطانية ومقاومة أي تغلغل فرنسي في اتجاهها. وعمل سايكس طوال الحرب على تطوير الولاء الصهيوني لبريطانيا وأصبح فيما بعد من الأقلام التي ساهمت في تحرير وعد بلفور.

ويظهر أيضاً أن الانكليز قد تصوروا وجود النفط في فلسطين، وكانت شركات أمريكية قد بدأت بالتنقيب قبل الحرب. وفي ١٩٢٠ حصلت شركات بريطانية من بعض شيوخ شرق الأردن إمتيازات للتنقيب في مناطقهم. وأثير الموضوع في البرلمان البريطاني بدون الحصول على جواب شاف نحن من الحكومة^(٢). وما إن دخلت القوات البريطانية فلسطين حتى راحت تبحث عن الخبراء الأمريكيين الذين بحثوا عن النفط لتحصل منهم على المعلومات المرتبطة بإكتشافاتهم. وبعين الوقت عمدت السلطات البريطانية إلى مضايقتهم حتى إضطروا إلى الانسحاب^(٣). وكانت بريطانيا قد أشارت في كراستها الرسمية التي أصدرتها وزارة الخارجية أثناء الحرب

(١) شتاين، ص ٣٣٤، أنظر أيضاً د. ذ. جيلون، مقدمات وعد بلفور، دراسات الشرق الأوسط، مايس ١٩٦٩.

(٢) هانسارد، مجلس العموم، ٥ مايس ١٩٢٠.

(٣) س. لونغرغ، النفط في الشرق الأوسط، لندن، ١٩٦١، ص ٤٢.

بعنوان «سوريا وفلسطين إلى وجود النفط أيضاً في الأرض المقدسة .

كان لدخول الولايات المتحدة الحرب ورأسه المستر ولسن لذلك البلد بما عرف عنه من أفكار لبرالية وإنسانية، أثر على التصرفات الدبلوماسية للدول المنتصرة. ولم يعد بإمكانها أن تعلن عن تمرد لها على نقاط ولسن الأربع عشرة، ولا سيما حق تقرير المصير، بذلك الشكل السافر الذي تضم به الأقاليم المفتوحة ضمّاً إستعمارياً صرفاً وصريحاً. ولهذا إقتضى لسانة الدول المنتصرة أن تجد وسيلة تستر بها على عملياتها الامبريالية وتعطيها لونا مقبولا، على الأقل لدى الغربيين. ومن هذه الزاوية، توصل الحلفاء إلى فكرة الانتداب. ووجد الانكليز في وعد بلفور خير وسيلة لتبرير سيطرتهم على فلسطين في المؤتمرات الدولية سواء في باريس أو سان ريمو أو جنيف. وفي هذه المناسبات إستطاعت الحكومة البريطانية أن تستجد بالصهاينة كشهود يؤيدون المقولة البريطانية ويطالبون بوضع مشروعهم تحت حماية أنكلترا دون الدول الأخرى. . وفي الولايات المتحدة بذل اللوي الصهيوني جهوداً كبيرة في إقناع المسؤولين الأمريكيين والرأي العام الأمريكي بفضل الانتداب البريطاني على الديار المقدسة. وكان لحسن حظ بريطانيا والصهيونية أن يكون الزعيم الصهيوني البارز في أمريكا، القاضي براندس، صديقاً حميماً للرئيس الأمريكي. وفي أوروبا، توجه سوكولو، رئيس المنظمة الصهيونية إلى الفاتيكان ووزارة الخارجية الفرنسية ليقوم ببريطانيا بمهمة المحامي عن إنتدابها. ونشطت منظمة بولي صهيون اليسارية بين الأوساط العمالية والاشتراكية لتؤدي نفس الخدمة.

والواقع أن الصهاينة أنفسهم قد وعدوا ببريطانيا بثمار عميمة من تبنيها للمشروع وطالما ذكروا الساسة الانكليز بهذه الثمار وبالخدمة التي تؤديها الحركة لهم. وحتى في عام ١٩٠٣، ذكر هرتزل لوزير الخارجية البريطانية، تشرلن، أن إعطاء العرش لليهود سيؤدي إلى جر فلسطين إلى منطقة النفوذ

البريطاني^(١). لقد كان هرتزل أديباً أكثر مما كان مفكراً سياسياً، ومن لمحاته الشعرية وصفه لبريطانيا بكونها النقطة الأرخيديسية التي تؤثر إلى موضع القوة. وتكلم أحد الصهاينة الانكليز أثناء التفكير بإقامة الوطن اليهودي في أفريقيا الشرقية فقال: «وعليه فإن واجب بريطانيا هو أن تحمي وتقوي مصالحها في الأرض المقدسة لتصبح في مركز أقوى من مركز أي دولة أخرى في حالة وقوع أي مشكلة هناك. وبفعل الظروف، قدر أن يكون اليهود هم هذه العناصر... المصالح اليهودية في أفريقيا الجنوبية هي التي أنقذت الامبراطورية البريطانية. وأجراً على تأييد أن مثل ذلك سيكون الحال في الأرض المقدسة»^(٢).

ومن أهم المطبوعات الإعلامية في هذا الصدد كانت جريدة «فلسطين»، لسان حال لجنة فلسطين التي كرست جهودها لترويج فكرة تزواج المصالح الامبريالية البريطانية بالمصالح الصهيونية، وتنوير الساسة البريطانيين بجدوى المشروع الصهيوني للامبراطورية البريطانية. وبعد سنوات من إصدار وعد بلفور كشف وايزمان في كلمته لجمعية آسيا الوسطى أن أهمية توطين «شعب أوربي» على سواحل فلسطين وبقرب قناة السويس كان الموضوع الذي دار حوله النقاش عند المفاوضات مع الحكومة البريطانية^(٣). ويظهر أن أنطوني أيدن قد حاول بالضبط تجربة هذه الوصفة عندما إتفق مع إسرائيل على غزو قناة السويس.

ورغم إدراك الكثير من الساسة البريطانيين أن وعد بلفور كان من أكبر الأخطاء التي وقعت فيها بريطانيا، فإنه في الواقع خدمها في اتجاهات مختلفة فأبعد الفرنسيين من منطقة الحولة وميناء عكا وضمن حصول بريطانيا على

(١) مذكرات هرتزل، ج ٤، ص ١٤٧٤.

(٢) ثي. غولدارايخ، سحر صهيون، كراسه، ١٩٠٥. الإشارة إلى أفريقيا الجنوبية تعني وقوف اليهود هناك بجانب بريطانيا في حرب البوير.

(٣) صحيفة نيوجوديا، كانون الثاني، ١٩٣٠.

إنتداب فلسطين ومن ثم السيطرة على خط أنابيب كركوك - حيفا وحجب الاستقلال عن البلاد حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

وخلال كل ذلك الوقت، غدت الامبريالية البريطانية الفكرة الصهيونية وشجعته ووضعتها موضع العمل والتطبيق. وفي عام ١٩٤٨، قدر لهذا الزواج أن ينحل ويفسخ بعد أن وجدت العروس عشيقاً جديداً أغنى مალأ وأوفر شباباً وقوة. لقد آن الأوان لتغيير المراهنة مرة أخرى.

العم سام يغير المراهنة

عالم الأغيار بالنسبة لليهودي النمطي التقليدي عالم غريب عنه وأخلاقياته شؤون لا تعنيه كثيراً. كل ما يرجوه من هذا العالم هو ألا يمسّه بسوئه. ومن هذا المنطلق أيضاً جاء موقفه السياسي وتحالفه مع القوى المختلفة وفق إعتبارات براغماتية لا علاقة لها بصورة عامة بأخلاقيات هذه القوى أو طهر صحيفتها. إنه في الواقع الموقف الذي يعطينا جوهر السياسة والدبلوماسية في التطبيق. ومن هنا كان اليهودي التاريخي من أحذق الناس في رصد التحولات في موازين القوى ومجرى الأحداث. وله من تاريخه التجربة المبررة التي تذكره بأن خطأ واحداً في تقدير توازن القوى بين مصر وآشور أطاح بمملكته القديمة. ومنذ تلك الصفحة، دأب على التمسك بقاعدة بسيطة فعالة، وهي محالفة القوى. عندما صعد نجم الإسلام في القرون الوسطى ناصر اليهود المسلمين وتجنسوا لهم ضد الإفرنج والروم. وعندما تضاءل ظل الإسلام في القرن التاسع عشر ناصروا الغرب ضد المسلمين. وقد رأينا كيف تحول رهانهم من حصان إلى حصان عبر العصر الحديث، من فرنسا إلى انكلترا، ثم فرنسا ثانية فألمانيا ثم انكلترا مرة أخرى.

وكان من بدائع إحساس الصهاينة في رصد الغالب والمغلوب أنهم ربما كانوا أول من شعر بأفول نجم الأسد البريطاني في الأربعينات وصعود نجم العم سام في أفق السياسة الدولية، فحولوا ولاءهم وتصرفوا على هذا الأساس. الفصل الأخير في هذه المسرحية هو الفصل الأمريكي.

الاتصال الأولي للولايات المتحدة بالشرق العربي. كان عبر بعثاتها التبشيرية. وتوجهت هذه البعثات إلى سوريا (التي شملت طبعاً لبنان). وبالنظر لسيطرة العثمانيين - التي أخذت طابعاً دينياً - على المنطقة، فقد نشأ ضرب من التحالف بين الفئة العربية القومية والبعثات التبشيرية إيطاره المصلحة المشتركة في ضرب الخلافة العثمانية. وضمن هذه الجبهة لم يكن من السهل للمصالح الأمريكية تبني البرنامج الصهيوني المعادي للقومية العربية في ذات الولاية التي كانت فلسطين جزءاً منها. ولهذا لم تظهر إهتمامات أمريكية بفلسطين من الزاوية الصهيونية حتى أواخر القرن التاسع عشر، عندما تقدم عدد من الشخصيات البارزة التي شملت بلاكستون، ورئيس القضاة ملفل فلر، رئيس مجلس الكونغرس توماس ريد والأسقف غيوبنز والمصري بيير بوينت، وجون روكفلر ووليم روكفلر ورسل سيج، بعريضة إلى الرئيس وليم هنري هارسن يطالبون فيها بتأييد إقامة وطن يهودي في فلسطين.

كان ذلك في عام ١٨٩١، أي بعد تفجر الهجرة اليهودية ومعاداة السامية الفعالة في أوروبا الشرقية. وعليه فإن مثل هذا الاهتمام كان أكثر إرتباطاً بهذا الجانب من الحياة السياسية منه بجانب الطموح الامبريالي. وكما لاحظنا في الفصل الثاني، إرتفعت هجرة اليهود إلى أمريكا من ٤١٥، ٣٧ شخصاً في ١٨٩٩ إلى ٧٤٤، ١٥٣ في عام ١٩٠٦. وكان أن أثارت هذه الأرقام مخاوف قطاعات مختلفة من الأوساط العليا في الولايات المتحدة. ورأينا كيف تحول القاضي برانديز إلى إعتناق الفكرة الصهيونية بعد أن لاح له شبح الهجرة اليهودية المتعاطمة.

في نفس هذه الفترة الأولية، إمتدت بعض مصالح الرأسمالية الأمريكية إلى فلسطين عندما حصلت شركة ستاندرد أويل على إمتيازات من السلطان للبحث عن النفط والمعادن حول البحر الميت^(١). وبدأ المهندسون الأمريكيان

(١) ذي ماركست، تموز ١٩٦٩، النفط والاستعمار.

في التنقيب قبيل الحرب مباشرة. وبعد سقوط فلسطين بيد الانكليز، سارع هؤلاء إلى البحث عن المنقبين الأمريكيين للحصول منهم على نتائج بحثهم. ووضعت سلطات الانتداب البريطاني كل العراقيل أمام الشركات الأمريكية حتى إضطرت إلى التخلي عن عملياتها^(١). ومع ذلك فإن الرأسمالية الأمريكية لم تكن قد دخلت بعد ميدان الصراع الامبريالي في الشرق الأوسط، وكان جل إهتمامها بوجه عام هو الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الحكومات المعنية. ومن ذلك مثلاً أنها عينت ثلاثة سفراء يهود بشكل متسلسل في الآستانة للفترة الممتدة إلى نهاية الحرب العظمى، إعتقاداً منها على ما يظهر بأن اليهود من الشرق وأكثر فهماً للشرق. ولم يبد أي من هؤلاء السفراء تعاطفاً مع الجانب الصهيوني، بل على العكس، كان هنري مورغنتاؤ من ألد أعداء الصهيونية وحث حكومته على معارضة وعد بلفور والعمليات الصهيونية، مما جر عليه سخرية حاييم وايزمان وسخطه^(٢).

كان لدخول الولايات المتحدة في الحرب العظمى آثار عميقة على السياسة الأمريكية، فأول مرة شعرت هذه الدولة بقوة عضلاتها وبثقلها الكبير في ميادين الصراع الدولي، وبإمكاناتها، أو من حقها أن تكسب فيه شيئاً لقاء تدخلها. وفي هذا الجوارحت الصهيونية تنمو بشكل مدهش في حداثق البيت الأبيض. ولكن سياسة الرئيس ولسن ظلت تتأرجح بين الصويين. كان ولسن من المثاليين القلائل في هذه الميادين. كان له جانبه الإنساني الذي حجب له فكرة الوطن القومي لليهود كملاذ لهم ومخلص مما يتعرضون إليه من إضطهاد. وكان له الجانب الذي أقر مبدأ تقرير المصير الذي ذكره بحقوق السكان العرب. وكان هناك أنصار لكل من الجانبين راحوا يوجهون ضغطهم على الحكومة والكونغرس. وقدر لهذا الموقف المزدوج القائم على المصالح المرتبطة بالعرب والمصالح المرتبطة بنفوذ الصهيونية

(١) س. لونغريغ، النفط في الشرق الأوسط، لندن، ١٩٦١، ص ٤٢.

(٢) وايزمان، ص ٢٤٦.

وقوتها، أن تطبع بطابعها المتأرجح السياسة الأمريكية عبر السنين التالية. وتجلت هذه الازدواجية أيضاً في تضارب جواب الرئيس ولسن على الحكومة البريطانية عندما إستأنست برأيه قبيل إصدار وعد بلفور. ففي الاستفسار الأول في أيلول ١٩١٧، أعطاهما جواباً غير مشجع على الإصدار، ولكنه عاد فغير رأيه بعد أسابيع قليلة عندما إستفسرت منه ثانية، فأيد في هذه المرة فكرة الوعد. ولسوء حظ العرب أن تغيير الرأي لم يحدث بالشكل المعكوس. وحسب رواية شتاين، تردد ولسن في قبول وعد بلفور على إعتباره وسيلة أخرى يعزز بها الانكليز قبضتهم على مصر والهند^(١). وكان ممن أثروا على الرئيس في تغيير رأيه هذا القاضي برانديز، الزعيم الصهيوني، والكولونيل هاوس، أحد المعروفين بمعاداتهم للسامية.

وبعد صدور وعد بلفور وإنهاء الحرب، أوردت صحيفة التايمس في ٤ مارس ١٩١٩ تصريحاً عن ولسن بـ «وضع الأسس لإقامة دولة (كومنولث) يهودي في فلسطين». ولكن الولايات المتحدة عادت في صيف ١٩١٩ إلى الميل في الاتجاه المعاكس، عندما قررت إيطاليا وفرنسا وبريطانيا الامتناع عن المشاركة في لجنة التحقيق التي قرر مؤتمر الصلح في باريس إرسالها إلى فلسطين لإعداد تقرير عن مصير البلاد. وأصر ولسن على المضي في المشروع فبعث بلجنة كنغ - كرين (هنري كنغ وشارلس كرين) لتقوم بالمهمة وعادت فنشرت تقريراً معارضاً كلياً للمشروع الصهيوني وسياسة بريطانيا في فلسطين. بيد أن الضغط الصهيوني قتل التقرير. وقلم يعثر على ذكره الباحث الآن في معظم المؤلفات.

وبموجب المعاهدة الأنكلو أمريكية لعام ١٩٢٤، صممت الولايات المتحدة مصالحها في فلسطين وإستطاعت بذلك أن تدير ظهرها للموضوع. ورغم أن السياسة الأمريكية ظلت مؤيدة رسمياً للوطن القومي اليهودي،

(١) شتاين، ص ص ١٩٦، ٥٢٩.

فإنها لم تظهر أي حماس أو إندفاع كبير حتى الحرب العالمية الثانية. وطوال السنين التي توالى بين الحربين، ظلت بريطانيا هي المربية الخنون لوليد الحركة الصهيونية. وبقيت لندن مركزاً للمنظمة الصهيونية ونشاطاتها. وتحديث المراجعون (جناح جابوتنسكي المتطرف) عن بقاء فلسطين بمثابة الدومنيون السابع ضمن الامبراطورية البريطانية.

وإنعكس الفتور الأمريكي على فتور الصهيونية الأمريكية، فسرعان ما اختلف القاضي برانديز مع الوكالة اليهودية بشأن مشاريعها وأساليبها في فلسطين التي بدت للزعيم الأمريكي إشتراكية، فانسحب من الميدان واقتصر تأييد اليهود الأمريكيان على حث بريطانيا على إستيعاب المهاجرين اليهود في فلسطين خوفاً من تدفقهم على أمريكا، بالإضافة إلى تبرعاتهم طبعاً. وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، وقفوا موقف المتفرج حتى دخلت البلاد الحرب ضد المحور. وكما قال بارنيت لتفينوف، «بدخول أمريكا الحرب، اختفت بشكل عجيب كل اعتراضات الطائفة اليهودية الأمريكية ضد فكرة الدولة اليهودية التي لم يكونوا قط متفقين بشأنها أو بشأن تشكيل جيش يهودي» (١).

والواقع أن دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية كان من أهم أحداث الخمسين سنة الماضية، فبدخولها خرجت هذه الدولة العملاقة من عزلتها التاريخية وألقت بثقلها في ميدان التنافس الامبريالي بحماس وتهالك، وما ترتب على ذلك من تقوض الاستعمار القديم وتقلص ظل الامبراطورية البريطانية.

وكان الصهاينة من أول من إلتفت إلى فحوى هذا التحول الذي أخذ يشق طريقه بالنسبة لهم منذ أن أصدرت الحكومة البريطانية في ١٩٣٩ الكتاب الأبيض الذي حدد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، في حين دعت

(١) ب. لتفينوف، الطريق إلى القدس، لندن، ١٩٦٥، ص ٢٢٨.

أمريكا بعد أشهر قليلة إلى إطلاقها. وقعت نقطة التحول الحاسمة في تاريخ الصهيونية الأمريكية في مايس ١٩٤٢ عندما اجتمع نحو سبعمائة زعيم يهودي في فندق بلتيمور في نيويورك، كان بينهم بن غوريون ووايزمان، وأصدروا قراراً بإقامة الدولة اليهودية. وفي هذه الأثناء بدأت قصص المآسي تتوالى من أوروبا النازية حيث شرعت أفران الغاز بتنفيذ الحل النهائي لمشكلة اليهود وتثير في نفوس الأمريكان فضلاً من العطف والتعاطف ظل يتصاعد ويوسع الدائرة الصهيونية. وسرعان ما لمعت في سماء السياسة الأمريكية الشخصيات الصهيونية الشهيرة مثل الحاخام ستيفن وايز وهلل سلفر. وتجمعت ظاهرة اللوبي الصهيوني. وفي هذا الجو الجديد، حاولت الهاغانا تعيين أحد الجنرالية الأمريكيين قائداً لقواتها في فلسطين، ولكن يظهر أن الإدارة الأمريكية تخوفت من ذلك فإكتفت الهاغانا في ١٩٤٧ بتعيين الكولونيل ديفيد ماركوس، الضابط الذي عمل تحت إمرة الجنرال هلدنغ. وتبعت ذلك بتعيين آل شفيمر قائداً لقوتها الجوية. وأسس هذا شركة خاصة في كاليفورنيا واشترى مطاراً في لوس أنجلوس وآخر في بناما مع مجموعة من الطائرات لتدريب الطيارين الصهاينة وتهريب طائراتهم الى فلسطين^(١). وعندما أعلن عن تأسيس إسرائيل، رفعت في نيويورك أعلام اسرائيلية تجاوزت عدداً ما رفع منها في إسرائيل. وهكذا انتقل مركز الثقل الصهيوني كلياً إلى العالم الجديد.

وعلى الطرف الآخر وقعت شركات النفط الأمريكية على عقود استثمار النفط السعودي التي آذنت بدخول المصالح الأمريكية الامبريالية على نطاق واسع لأول مرة في العالم العربي. وكان من أول النتائج السياسية لهذه العلاقة اللقاء التاريخي بين الملك عبد العزيز بن سعود والرئيس روزفلت وتصريح الرئيس الأمريكي بعدم تبني أي حل لمشكلة فلسطين بدون إستشارة العرب.

(١) دان كركزمان، التكوين ١٩٤٨، لندن، ١٩٧٢.

وبإنتهاء الحرب، واجهت الولايات المتحدة هستيريا الخطر الشيوعي، ولا سيما على أوروبا الغربية والشرق الأوسط. ويوحى هذا التفكير، ولدت نظرية ترومان عندما صرح هذا الرئيس الأمريكي الجديد بأن بلاده لا تستطيع حماية نفسها وراء حدودها فقط، وإنما يعتمد ذلك على الدفاع عبر البحار، وفي خطوط دول المواجهة مع الخطر السوفيتي التي تتطلب مساعدة الولايات المتحدة لتعزيز إستقلالها. وإنطوى كل ذلك على ضرورة كسب الدول العربية ووقايتها من الخطر الأحمر. وذهب أصحاب هذه المدرسة سوية مع دهاقنة النفط إلى أن من الضروري تحاشي الانسياق وراء المطامح الصهيونية. وأمام هذه الكتلة، راحت القطاعات الصهيونية تبرهن أن اليهود في فلسطين أضمن للمصالح الأمريكية. وبين الطرفين ظلت سياسة واشنطن تتأرجح لمدة طويلة، وإن كان الميل الغالب في جانب الكفة الصهيونية في أكثر المراحل. وجاء وصف السناتور هاتفيلد لسياسة بلده في هذه المرحلة بالسكزوفرينية (الانفصامية) أبلغ وصف للوضع المتأرجح الذي عاشته الولايات المتحدة في هذه الفترة (١).

بذلت أمريكا جهوداً مختلفة لكسب العرب إلى جانبها، ولا سيما في عهد آيزنهاور وجون كندي. وبالنسبة للأول، لعبت واشنطن دوراً كبيراً أثناء العدوان الثلاثي على مصر في مناصرة الجانب العربي وتوقعت أن يستجيب العرب لموقفها بموقف مشابه. وفي أوائل ١٩٥٧، كشف آيزنهاور النقاب عن فكرته التي عرفت بمبدأ آيزنهاور. وبموجبها أكدت الولايات المتحدة على ضرورة تدعيم إستقلال دول الشرق الأوسط حيال مطامح الشيوعية العالمية بمدها بالمساعدات الأمريكية (٢).

(١) محمد شديد، الولايات المتحدة والفلسطينيون، لندن، ١٩٨١، ص ٩٠.

(٢) أحمد الكاشف، سياسة الولايات المتحدة تجاه السباق العربي الإسرائيلي، مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٦٩، ص ص ٥٧-٦٠.

بيد أن إمتناع أمريكا عن تمويل سد أسوان وإرغام مصر على شراء الأسلحة من أوروبا الشرقية إستمر حائلاً دون نجاح هذا الغزل في حين واطبت مصر على توطيد علاقاتها أكثر فأكثر مع موسكو. ويرفض القاهرة ودمشق مبدأ آيزنهاور، عمد الحلفاء إلى نقل ثقلهم شرقاً وإقامة حلف بغداد. وتوالى التطورات السياسية في إتجاه معاكس للمصالح الاستراتيجية الأمريكية. وذهبت حتى محاولة جون كندي للتقرب إلى العرب أدراج الرياح وختم عليها ناصر بكلماته التهديدية بأن على أمريكا أن تذهب وتشرب ماء البحر.

بحرب ١٩٦٧، دخلت الحركة الصهيونية مرحلة جديدة من التوسع. لقد وقع الساسة والاعلاميون العرب بالخطأ المعروف عندما تشدقوا بعزمهم على القضاء على إسرائيل وقذف أهلها في البحر... الخ، إستطاع الصهاينة أن يستخدموا ببراعة هذه التهديدات في إثارة موجة عالمية من الذعر أعادت إلى أذهان اليهود في أوروبا وأمريكا ذكريات الفصول النازية. وبعد الانتصار المدهش الذي حققته إسرائيل، تدفقت كل تلك المخاوف والعواطف في تيار دافق من الحماس والابتهاج إكتسح في طريقه جل من بقي خارج الحركة الصهيونية من اليهود اللبراليين والمندمجين واليساريين. وكان من صحائف هذا التاريخ تحول المجلس الأمريكي لليهودية (الذي مثل لسنوات التيار اليهودي المعادي للصهيونية في أمريكا) نحو الصهيونية.

وتبرعم اتجاه مشابه في فرنسا بين الطائفة اليهودية التي التزمت تقليدياً بالموقف الاندماجي. بانتصارها الساحق في تموز ١٩٦٧، استطاعت تل أبيب أن تقنع من ناحية اليهود بأن إسرائيل دولة جديرة بإعتزازهم وفخرهم ومن ناحية أخرى المسؤولين الأمريكيين بأنها أقدر من العرب سوية وأجدر بثقة البيت الأبيض في ضمان المصالح الأمريكية والهيمنة على سلامة المنطقة.

وحدث في عين الوقت تحول في السياسة الدولية بنمو الوفاق الدولي وتلاشي هستيريا المكارثية وبعبع الخطر الأحمر. وإذا كان للأمريكيين درس في

هذا الخصوص، فقد تعلموه من الدول العربية. فرغم تمرد هذه الشعوب على العم سام ورفضها أحلافه ومساعداته ومغازلتها لموسكو والأحزاب الشيوعية، فإنها لم تقع في أحضان الماركسية. وجاءت نقطة التحول في هذا الفهم عندما قلب عبد الكريم قاسم ظهر المجن ضد أصدقائه الشيوعيين وأظهر للعالم أن الشرق الأوسط ليس بالتربة الجاهزة للأنظمة الشيوعية^(١). وفي تلك المرحلة أيضاً، إتضح للأمريكان أيضاً أن تهديد العرب باستخدام سلاح النفط وقطعه عن الغرب، تهديد فارغ كسائر تهديداتهم الأخرى. لقد كشفت إسرائيل أن العرب أهل لسان وكلام لا غير. وكشفت لأمريكا أكثر من ذلك.

وجدت أمريكا أن خراب بيت العرب وتمرغهم في السوحل أنفع للغرب. فهزيمتهم أمام إسرائيل وحاجتهم إلى السلاح وفقدانه عوائد قناة السويس جعلهم في أمس الحاجة إلى العملة الصعبة وزاد من إعتمادهم على شركات النفط والبيع للغرب. ولم تحرص الحكومات العربية على سلامة تدفق النفط كما حرصت في السنوات التالية. ولأول مرة بعد عدة أعوام راحت مصر تطرق أبواب الأسواق الغربية تعرض قطنها بسخاء. فبينما بلغ صادراتها من القطن إلى الكتلة الشيوعية في ١٩٦٤/١٩٦٥ نحو ٦٦٩,٠٠٠ بالة، اضطرت إلى تخفيض ذلك في ١٩٦٧/١٩٦٨ إلى ٣٦٠,٠٠٠ بالة لتبيع الباقي البالغ ٤٤٠,٠٠٠ بالة إلى العالم الرأسمالي بحثاً عن العملة الصعبة. وإنخفض ما صدرته إلى الكتلة الشيوعية في ١٩٦٧ إلى أقل معدل (٤٥ ٪) سجل منذ عام ١٩٥٦ (٢).

لقد توقعت الرأسمالية الأمريكية أن تكسب العالم العربي الواسع كسوق وقاعدة استثمارية رئيسية كما حدث لكوريا الجنوبية وفرموزة مثلاً. بيد أن

(١) مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، تحليل خاص، معهد المشاريع الأمريكية، ١٩٦٨، ص ٢٢.

(٢) نفس المصدر، ص ٦١.

حساسية العرب ضد الامبريالية الغربية وجنوحهم إلى التأميم والتطبيقات
اللارأسمالية حالت دون ذلك. وإستغل الاسرائيليون الفرصة ليقوموا بمهمة
الوسيط، المهمة اليهودية التقليدية.

وجاءت حرب ١٩٦٧ لتزيل أي شك في قابلية إسرائيل على إضطلاع
بمهمة العمالة على نطاق عالمي. وما إستقر غبار الحرب حتى إنهالت الرساميل
الأمريكية عليها. فبينما كان مجموع رأس المال الخاص المنقول للتوظيف فيها
طوال عام ١٩٦٦ نحو ٤٠ مليون دولار، وصل هذا المجموع ٩٣ م/د خلال
السته أشهر الأولى فقط من ١٩٦٨. وإرتفع مجموع المبالغ المحولة إليها من
٢٩٢ م/د في ١٩٦٦ إلى ٥٢٢ م/د في ١٩٦٧ وإلى ٨٠٠ م/د في ١٩٧٠
وإلى ١٦٠٠ م/د في ١٩٧١^(١). ويفضل هذه الرساميل الأجنبية، إستطاعت
إسرائيل أن تزيد صادراتها بنسبة ٢٦ ضعفاً من ٢٨ م/د في ١٩٤٩ إلى
٧٢٨ م/د في ١٩٦٩.

وبفضل هذا الوضع، أصبح من السهل لأمريكا أن تتسرب إلى كيان
الدول المعادية للاستعمار كزامبيا بتياب الدولة الصديقة الآسيوية الناشئة -
إسرائيل. وحيث لم يكن من المنطق ولا الأصول السماح للخبراء الأمريكيين
العسكريين للعمل بجانب الخبراء السوفييت، جيء بالمدرسين الاسرائيليين
ليأخذوا مكانهم «حرمة للحياد» كما فعلت حكومة أوبوته في يوغندا^(٢).
وقامت أثيوبيا بتوازن من نوع آخر فإستخدمت الاسرائيليين للعمل بجانب
الأمريكيين في تدريب جيشها قبل الثورة دفعاً لتهمة التحول إلى قاعدة
أمريكية. وحاول موبوتو درء نفس التهمة فإنتدب الاسرائيليين لتدريب
كتائب المظليين^(٣). وعملت البعثات العسكرية الاسرائيلية في كثير من
الدول الأفريقية بما فيها أثيوبيا والكونغو وسيراليون وغانا ويوغندا، بالإضافة

(١) مدل إيست أنترناشنال، أيلول ١٩٧١.

(٢) سجل أفريقيا المعاصر، ١٩٦٩/١٩٧٠، ص ٦٨١.

(٣) الجيوش الأفريقية والنظام المدني، معهد الدراسات الاستراتيجية، لندن، ١٩٦٩ ص ٨٥.

إلى إيران وملاييزيا في آسيا. ومع الخبراء تذهب طبعاً البضائع العسكرية الاسرائيلية والأمريكية إلى هذه الدول. ويتضح مدى تعاطف التوغل التجاري الاسرائيلي في أفروآسيا خلال هذه الفترة من النسب المثوية في الجدول التالي (١):

سنة	إلى بريطانيا	إلى الولايات المتحدة وكندا إلى أفروآسيا
١٩٤٩	٥٣,٧	١٧,٠
١٩٦٧	١٣,٠	١٧,٨
		١٧,٣

في عام ١٩٦٣، تأسست في أفريقيا ٤٢ شركة بالاشتراك بين إسرائيل والدول الأفريقية (٢). وقامت إسرائيل بعشرات المشاريع الضخمة كالشركة الملاحية مع لايبيريا ومصنع السيارات في تركيا وشبكة مياه طهران ومطار أكرا الدولي وبرلمان سيراليون ومشروع مجارير أصفهان وعدة مطارات في أثيوبيا والمشروع السياحي الضخم للرفيرا الأفريقية في ساحل العاج من تصميم المهندس الأمريكي هاينز فنشل، بالإضافة إلى عشرات المشاريع الزراعية والصناعية والانشائية والتعدينية. ومن المشاريع الجبارة التي تعاونت عليها مع إيران بعد حرب ١٩٦٧ كان مشروع خط الأنابيب المشترك بين إيلات والبحر المتوسط بقيمة ١١٢م/د.

إن من الصعب جداً التحقيق بالتفصيل عن مدى حظ الرساميل الأمريكية في هذا النشاط الأخطبوطي بالنظر للأبواب المتعددة التي ترد فيها الأموال الأمريكية والأسماء التي تجري تحتها النشاطات المختلفة في إطار من الكتمان. فمثلاً أن معظم فعاليات إسرائيل في غانة جرت عن طريق شركة غانة الأهلية للبناء، وترتبط هذه الشركة بمؤسسة سوليل بونة التي تمتلكها المستدروت الغارقة بالقروض الأمريكية. ومن السخف أن نتصور إسرائيل

(١) يوسف شبل، تجارة إسرائيل الخارجية، مركز الأبحاث الفلسطينية، ص ٢٦.

(٢) ب. ديفيدسن، أي طريق أفريقيا، لندن، ١٩٦٤، ص ١١٨.

الغارقة في الديون تقدم القروض للدول الأجنبية، وفي بعض الاحيان دول أغنى منها، من جانبها فقط، إنها تقوم بالكثير من هذه العمليات بالنيابة عن الامبريالية التي غذتها بما تجاوز البليون دولار من المعونات الرسمية و ٢,٥ بليون دولار من الأموال الخاصة حتى عام ١٩٦٨. وتقدر المصادر المالية أن نصف البرامج الاقتصادية الاسرائيلية ممول من الخارج. ويؤكد الأستاذ سلفربرغ الخبير بالشؤون الأفريقية الاسرائيلية أن محاولة الحصول على صورة دقيقة لحظ الرأسمال الأمريكي من هذه البرامج مضیعة للوقت بسبب السرية التي تحيط بها.

ومع ذلك فإن التدفق الأمريكي نحو الاستثمار عن طريق إسرائيل أصبح واضحاً بعد ١٩٦٧، وذكرت التايمس اللندنية أن حرب ١٩٦٧ رفعت مجموع الرساميل الأمريكية الواردة للتوظيف في إسرائيل إلى حد ٧٨٠ م/د في ١٩٦٨، أي بزيادة قدرها ٣٠٠ م/د عن مجموع السنة السالفة. ووصل النشاط ذروة جديدة في مؤتمر المليونيرية الذي انعقد في القدس وإنبثقت عنه اللجنة الأمريكية التي وضعت أسس ٨٢ مشروعاً في إسرائيل بقيمة ١٢١ م/د. وساهمت في هذه المشاريع ١٦ شركة أمريكية كبيرة منها شركة أمفينول لوحداث الطائرات وشركة مغنافوكس للألكترونيات وشركة إيروجت جنرال كوربوريشن. وإنبثقت من المؤتمر أيضاً لجنة كاليفورنيا للتجارة والتكنولوجيا لتجنيد العلماء والخبراء الأمريكيان لهذه الصناعات الاسرائيلية الجديدة (١).

والتفت الممولون إلى الامكانيات التي فتحتها إسرائيل في إستغلال الأيدي العاملة العربية الرخيصة في المناطق المحتلة حتى ترددت في إسرائيل النكتة القائلة بأن اليهود ستركون إسرائيل لأن العرب أصبحوا هم الذين يقومون بالعمل والأمريكان هم الذين يمدون رأس المال. وتحت عنوان «غزة: خزان للطاقة العاملة الرخيصة لإسرائيل»، كتبت صحيفة معارف الاسرائيلية

(١) فاينانشال تايمس، ٢٧/١/١٩٧٠.

قائلة أن إنخفاض أجرة العامل في هذا القطاع وصلت حداً يضطر الناس إلى استخدام أطفالهم دون العاشرة. وأضافت الصحيفة بأن خبراء وول ستريت الأمريكان أعربوا عن إستحسانهم بشأن الموقف الاقتصادي في القطاع (١).

وإلى هذا الموقف الاقتصادي تدفقت الرساميل الأمريكية وكان من ثمارها هلتن القدس وفندق المستعمرة الأمريكية في القدس الغربية. وتأخذ الشراكة الأمريكية الاسرائيلية صوراً مختلفة أهمها القروض المالية. والمثال الأول لذلك السندات الاسرائيلية التي بيعت في الولايات المتحدة لقاء فوائد بلغت في ١٩٧٠ فقط نحو ١٨٠ م/د. ومن الصور الأخرى تأمين المواد الخام لأمريكا والمثال هنا تجارة الماس. وفي هذا المجال يقوم معهد المجوهرات الأمريكي بتدريب الاسرائيليين ومد معهد الماس الاسرائيلي بالخبرة والمساعدة. وبعد الحصول على المادة الخام من الدول الأفريقية ومعاملتها وصقلها في إسرائيل، يعاد تصديرها إلى الولايات المتحدة. وقد فطنت لايبيريا إلى الموضوع ففسخت إتفاقها مع تل أبيب وراحت تصدر ماسها إلى أمريكا مباشرة. وبفضل هذا التعاون إرتفعت تجارة إسرائيل في هذه المادة الثمينة بالنحو التالي:

سنة	المستورد بالدولار	الصادر بالدولار
١٩٥٤	١٣,٧٩٣,٠٠٠	١٥,٦٩٨,٧٨٠
١٩٦٩	١٩٢,٧٥٠,٤٧٧	٢١٥,٩٠٧,٣١٦

ومن صور التعاون الأخرى الاشتراك في الحصول على مشاريع إستثمارية في العالم الثالث ومن ذلك معمل المعدات الالكترونية الذي أقامه الطرفان في السنغال، والاشتراك في إقامة صناعات داخل إسرائيل للتصدير إلى الخارج ومن ذلك شركة أراد لإنتاج الكيماويات ومؤسسات الإنتاج العسكري الذي إزدهرت صادراته بشكل مثير بعد حرب ١٩٦٧. وخلال السنوات الثلاث

(١) معارف، ١٤/١/١٩٦٨.

التي تلت حرب ١٩٦٧، إرتفعت صادرات أمريكا إلى إسرائيل نحو ٥٠ ٪.

ومن الطريف أن نلاحظ سير النشاط الاسرائيلي بإمتداد خطوط النفوذ الأمريكي في العالم الثالث. فخط الملاحة الليبري الوطني (من مشاريع شركة هارون روزفيلد الاسرائيلية)، كان يسير من إيلات إلى أثيوبيا وأفريقيا الجنوبية ونايجيريا ولايبيريا. ويسير خط زم من إيلات إلى فرموزة وهونغ كونغ واليابان وأمريكا الشمالية. وكانت الدول العميلة الرئيسية لإسرائيل إيران الشاه وأثيوبيا هيلاسلاسي وأفريقيا الجنوبية ولايبيريا.

إستفادت إسرائيل من خبرة اليهود التاريخية في ميادين توصيل المعلومات والتغلغل في البلدان الأجنبية والانتشار في ربوع العالم في إطار الأسرة اليهودية وإتقان اللغات المتعددة، وأخيراً من الخبرة الكبيرة في التجسس على النازيين لمصلحة الحلفاء، وإستخدمت كل ذلك في إقامة شبكة مخابرات تعتبر من أنجح الشبكات في العالم. وبالنظر لإستعمال الدول العربية أسلحة سوفيتية، فقد عمدت إسرائيل إلى إستخدام إمكاناتها في هذا الميدان للحصول على كل المعلومات الممكنة بالنسبة لهذه الأسلحة. وخلال الحروب، وقع قسم كبير منها في يد الاسرائيليين. وفي ميدان آخر، أصبحت المخابرات الاسرائيلية والخبرة الأكاديمية الاسرائيلية من أدق المصادر عما يجري في البلاد العربية والشرق الأوسط عموماً. ولم تتردد أوساط الولايات المتحدة العسكرية والمدنية في الاستفادة من كل هذه الثروة من المعلومات والخبرة. وإنتفتح بذلك مجال آخر للتعاون الاسرائيلي الأمريكي.

وبنتيجة كل هذا التداخل في المصالح الأمريكية الاسرائيلية، جنحت واشنطن شيئاً فشيئاً إلى المزيد من الدعم لتل أبيب وتبنت في الأخير القاعدتين الجوهريتين في الدبلوماسية والاستراتيجية الاسرائيلية، وهما حل مشاكل النزاع العربي الاسرائيلي بالتفاوض مباشرة مع إسرائيل أولاً وإبقاء إسرائيل في وضع عسكري يرجح على قوى الدول العربية مجتمعة ثانياً.

وأصبح من المحتم لمثل هذه التطورات السياسية والاقتصادية والعسكرية

أن تنعكس على الحركة الصهيونية في أمريكا لتعطيتها عصراً ذهبياً تكتسح فيه كافة الأوساط اليهودية بحيث أصبح اليهودي غير الصهيوني في الولايات المتحدة من المخلوقات النادرة التي يقصدها الإنسان من بلد إلى بلد للتفرج عليها. ويتدفق الصهيونية من المدن الأمريكية نحو الشاطئ الاسرائيلي إكتسب الوضع السياسي في إسرائيل لون العنف الدموي والاجرامي الذي تعيشه الشوارع والأحياء الأمريكية ولون الاكراه والإبادة والتهجير القسري الذي خبره الأمريكان في معاملتهم للهنود الحمر. والواقع أن الخلفية الأمريكية ساعدت على التجاوب مع المنهج الصهيوني، وكثيراً ما أشار بالفعل غلاة المناصرين للصهيونية في الولايات المتحدة إلى تاريخ بلادهم عندما قام الأوربيون المهاجرون بإبادة المواطنين الأصليين وطردتهم من أماكنهم لفسح المجال لبناء الثروة والمدنية الأمريكية العملاقة. وبوحي مثل هذه الأفكار، أصبح التطرف الذي إرتبط بالمهاجرين أمن أوروبا الشرقية، إعتدالاً ورحمة بالنسبة للتطرف الذي جاء به المستوطنون الجدد من القارة الأمريكية.

في خدمة التسلط والاستعمار

لقد أوجزنا في العرض السابق دور التوسع الاستعماري في ترعرع وتوسع الحركة الصهيونية. وربما نكون قد قصرنا في إيفاء الموضوع حقه الكامل إذا أغفلنا في بيان دور الصهيونية ذاتها في خدمة التسلط الاستعماري. وفي ذلك العرض، أتينا على ذكر الخدمة التي قدمها وعد بلفور وإقامة الوطن القومي اليهودي في تبرير الانتداب البريطاني على فلسطين وتثبيت ذلك الانتداب حتى ١٩٤٨. بيد أن هذا الدور قد تعدى الساحة الفلسطينية فتناول شتى مناطق الشرق الأوسط.

بالطبع إن من السهل تبرير مساندة الصهيونية للإستعمار في ضوء النزاع العربي الصهيوني ومصلحة إسرائيل في إبقاء العرب تحت أقدام أسيادها في الغرب. بيد أن هذا الاتجاه المعادي لتحرر الشعوب، يستغرق تاريخاً أطول وأوسع شمولاً، وربما يعكس بشكل أو آخر تقاليد الغيتو القديمة القائمة على

خدمة الأقوى ومناصرة الأغلب . ومن هذا المدخل نجد أنه في الوقت الذي لاحظت فيه القوى الغربية نمو الحركة الوطنية العربية في القرن التاسع عشر وسعت أحياناً في تأييدها ضد الأتراك، تجاهلت الصهيونية هذا النمو وظلت تتمرغ بأذيال السلطان لا بالنسبة للعرب فقط - مما يمكن فهمه - وإنما بالنسبة للعناصر الأخرى . فمن المعروف أن زعماء الصهيونية وقفوا بجانب العثمانيين ضد اليونانيين عند ثورة هؤلاء في كريت ضد الحكم التركي . وبينما اجتاحت العالم المتمدن موجة من السخط ضد المجازر التي قام بها الأتراك، سارع الصهاينة إلى مد الجيش العثماني بالمساعدات .

ونشأ وضع مشابه بالنسبة للنزاع مع الأرمن، عندما عجزت تركيا عن الحصول على تأييد أي طرف في أوروبا غير المنظمة الصهيونية . وهنا إتصلت الحكومة العثمانية عن طريق نفلنسكي بالمنظمة للحصول على تأييدها وإستعمال نفوذها بين الأوساط الغربية . وقد كتب هرتزل في مذكراته في ٧ مايس ١٨٩٦ فقال: «رأيت أن الفكرة ممتازة» . وطلب من نوردو وهكلر، القس الصهيوني في السفارة البريطانية في فينا يدعوهما إلى بذل جهودهما لإقناع الأرمن بالتخلي عن تمردهم ضد الأتراك . وإتصل بالقائد الثوري نزار بك داعياً إياه إلى وقف الثورة لقاء تعهد العثمانيين بالإصلاح . وفي ٢٢ حزيران، إتصل بالأتراك مطالباً تزويده بمزيد من المعلومات، فكان أن طلبوا منه شن حملة دعائية لهذا الغرض . وتزدحم مذكرات هرتزل في هذه الفترة بالاشارات إلى إتصالاته بلوسيان وولف وغيره من ذوي النفوذ لطمأنة الرأي العام الأوروبي في هذا الخصوص .

وقلما يرد ذكر للإتصالات التي قام بها بعض رواد الحركة الوطنية العربية بالمنظمة الصهيونية آملاً في تعاون الطرفين . ومن ذلك ما رواه هرتزل أيضاً بشأن الزيارة التي قام بها الزعيم المصري مصطفى كامل للرائد الصهيوني عند وجوده في باريس لهذا الغرض . ولم يخرج مصطفى كامل بغير التمنيات بالموفية . بيد أن من الطريف في هذا الصدد أن نلاحظ تعليقات هرتزل على

المبادرة وقوله بأنه كان يتمنى للمصريين فعلاً النجاح في طرد الانكليز من مصر لأن ذلك سيرغم أنكلترا على البحث عن طريق آخر للهند فتعمد إلى احتلال فلسطين^(١). وجرى إستئناف الحوار في ١٩١٤ في الآستانة عندما إتصل الزعماء القوميون العرب بجيكبسن، ممثل المنظمة الصهيونية هناك. بيد أن المحادثات التي إستمرت من كانون الثاني حتى تموز لم تسفر عن شيء وقد علق شتاين على الموضوع بقوله: «في الحقيقة، لم يكن بأيدي جيكلبسن شيء جدير بالعرض على العرب»^(٢).

والواقع أن الصهاينة كانوا مستعدين تمام الاستعداد لتوطيد القبضة العثمانية على فلسطين لقاء تعاطف السلطان مع مشاريعهم. ويروي ألان أن بن غوريون ذهب إلى أسطنبول لدراسة القانون ومن ثم دخول البرلمان التركي كنائب عن يهود فلسطين وخدمة السلطان في هذا الاطار. ولكن الحرب قاطعت مسيرته وإضطر إلى الرجوع^(٣). وبينما كان جابوتنسكي يسعى خلال الحرب إلى تأليف قوة يهودية للقتال بجانب الحلفاء، كان بن غوريون يحاول فعل نفس الشيء ولكن للقتال بجانب الأتراك.

كانت العواصم الأوروبية والآستانة مسرحاً لنشاط الجمعيات التحررية العربية، ولكن الصهاينة تجاهلوا قدر إمكانهم هذه النشاطات. وفي المواقف التي تعرضوا فيها لهذا الموضوع أخذوا جانب القوة المحتلة ضد تطلعات الشعب. ومن ذلك سلسلة المقالات التي كتبها جابوتنسكي بعد زيارته للآستانة في ١٩٠٨ وتوقع فيها وقوع الاصطدام بين القومية العربية والقومية التركية، ونصح أتباعه بتحاشي جانب التطلعات العربية أو تأييد مواقفهم المعادية للأتراك «مما سيصيبنا بالضرر في الآستانة أكثر مما يفيدنا في

(١) مذكرات هرتزل، ٢٨ مارت ١٨٩٧.

(٢) شتاين، ص ٩٣.

(٣) م. أدلان، بن غوريون، لندن، ١٩٦٤، ص ٤٨.

فلسطين»^(١) . ومن الجدير بالذكر أن نفس الزعيم الصهيوني وقف موقفاً مشابهاً ضد الثوار البولونيين في نضالهم من أجل إستقلال بلادهم من الروس فقال «أن من الضروري إزالة هذه الهالة المبدئية عن فكرة تقرير المصير البولوني وينبغي مقاومة تحقيقها على حساب اليهود»^(٢) .

لم تقم جميع هذه المواقف على مجرد أثرها على الساحة الفلسطينية وتقدم البرنامج الصهيوني . لقد تعدت ذلك بعد تنفيذ هذا البرنامج لتشمل صراعات لا علاقة لها بهذه الساحة ومن ذلك مثلاً تأييد الجانب الأمريكي في فيتنام حيث عمل موشي دايان . وفي الكونغو، ساندت إسرائيل حكومة كتنغا العملية الانفصالية . وفي نايجيريا أيدت الحركة الانفصالية اليافرية . وأثناء الحرب الجزائرية، نصح بن غوريون الحكومة الفرنسية بتقسيم الجزائر . وأشارت صحيفة الجويش كرونكل إلى أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر يلعب دوراً حضارياً مشابهاً لدور الاستعمار اليهودي في فلسطين^(٣) . ومن الوثائق السرية المهمة في هذا الصدد الكراسة التي وزعتها وزارة الخارجية الاسرائيلية على ذوي الشأن عن الاستراتيجية الاسرائيلية في أفريقيا . وقالت فيها أن من الضروري لأمريكا وبريطانيا أن تتدخلوا لمساعدة فرنسا في الجزائر، لأن سقوط الحكم الفرنسي فيها سيؤدي إلى سقوط ليبيا وضياع المغرب على الغرب . وعلى إسرائيل أن تساعد فرنسا وتحثها على عدم التفاوض مع الثوار . وكل ذلك رغم أن جبهة التحرير الجزائرية - كما قالت الكراسة - قد فاتحت إسرائيل وعرضت عليها السماح لليهود بالهجرة إلى إسرائيل إذا ساعدتهم هذه على نيل الاستقلال . وحللت الكراسة الوضع في أفريقيا فقالت أن هناك خطرين يحيقان بالقارة، هما الإسلام والشيوعية . ولدرء هذين الخطرين، يتعين على إسرائيل دعم حركات التبشير المسيحي

(١) شختمان، ص ١٥٢ .

(٢) نفس المصدر، ص ١٤٩ .

(٣) جويش كرونكل ١٩٥٦/١١/٢ .

بين الأفريقيين. ولهذا السبب أيضاً إقتضى دعم هيلاسلاسي في أثيوبيا^(١). وكما عارضت في مارت ١٩٥٢ أدراج قضية المغرب أمام الأمم المتحدة، إمتنعت عن دعم قضية أفريقيا الجنوبية الغربية أمام لجنة الوصاية في نفس الشهر.

ومما لا شك فيه أن هذه المواقف وأمثاله قد لعبت دوراً كبيراً في توجيه الحركات الثورية والتحررية في العالم ضد إسرائيل والصهيونية، ولا سيما عندما تقارن تلك المواقف بالمواقف العربية تجاه تلك الحركات والتي جاءت في كثير من الأحيان على حساب المصالح العربية الصرفة.

ولعل المقارنة بين الحركتين القوميتين العربية واليهودية تعكس وتجسم مدى الترابط بين الصهيونية والاستعمار الغربي. لقد ساهم هذا الاستعمار في غرس البذرة الصهيونية وتغذيتها لتخضر وتينع وتعود لتلعب دورها في تغذية الاستعمار الغربي بثمارها.

(١) زاينست ركورد، ٢٤/١/١٩٥٨.

الفصل الخامس

يهوه والحاخام والكنيس

الرابطه بين الديانة اليهودية والحركة الصهيونية من العناصر الأساسية التي تلفت النظر في ميدان هذه الحركة والدعوة إليها. وسبق أن أشير إليها في أكثر من مناسبة في بطون هذا البحث. ويخطر إلى الذهن أولاً في هذا الصدد ارتباط الدعوة بالأرض المقدسة وما ورد في شأنها في الكتاب المقدس هكذا كتب أنيس صايغ في مقدمته لكتاب أسعد رزوق «الدولة والدين في إسرائيل» فقال: «إسرائيل من الدول القليلة جداً في عالمنا المعاصر التي تربط كيانها السياسي بالدين وتجعل من الدين أساساً لوجودها وهي في الوقت نفسه الدولة الوحيدة في عالمنا المعاصر التي يكون الدين هو حجتها للوجود»^(١). ولكن الموضوع يتعدى في الواقع مجرد الرابطة الروحية ليأخذ كثيراً من الصور العملية المادية في تنظيم الحياة اليومية للمجموعة كما سنجد بعد قليل.

إن من أهم العوامل التي أثرت في تاريخ اليهود وصياغة تراثهم النفسي عمليات السبي والأسر التي تعرضوا لها بعد سقوط مملكتهم على يد الآشوريين ثم البابليين ثم الرومان، وتكرر هذه العمليات في مراحل وأماكن مختلفة من تاريخهم على شتى النطاقات كان منها إخراجهم من الأندلس على

(١) أسعد رزوق، الدين والدولة في إسرائيل، مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٨، ص ٧.

يد المسيحيين ثم من أواسط أوروبا إلى أوروبا الشرقية في القرون الوسطى . وربما يمكن القول أن المشكلة اليهودية لم تكن لتقوم لو أن الفاتحين إكتفوا بسبي اليهود في أماكنهم وتركهم فيها دون تهجيرهم من تربتهم . إن من الظواهر النفسية التي أقرها علماء الاجتماع وأطباء النفس في العصور الحديثة ظاهرة ، أو علة المهجرية refugism التي تصيب معظم المهاجرين في مهجرهم وتتصف بعوارض القلق والكآبة والتعطش المحموم إلى الكسب والسبق والتشبث بأهداب الماضي والتكتل كمجموعة . هذه عوارض طامالمستها شخصياً في مجموعات اللاجئين المتعددة الموجودة في بريطانيا وفرنسا . وعندما تتعرض هذه المجموعات إلى العبودية والاضطهاد ، تنحو نحو التضامن الكلياني totalitarian solidarity التي يسلم الأفراد في ظلها مقاليد حياتهم ومصيرهم بيد القادرين من الزعماء . وتفعل المجموعة ذلك بصورة مركزة أكبر أثناء عملية التهجير والمسيرة التعيسة من منطقة إلى أخرى . هكذا ظهر موسى بين اليهود أثناء أسرهم في مصر وخلال مسيرتهم الشاقة عبر سيناء ، أو فلنقل هكذا صيغت الفصول الأولى من تراجيدية الوجود اليهودي .

وتحت وطأة الاضطهاد الخارجي ، إضطر اليهود إلى التنازل عن المزيد من حريتهم وفرديتهم إلى قادة المجموعة الذين إنخذوا في تلك العصور هوية رجل الدين ، الكاهن أو النبي أو الحاخام . ولا شك أن المشكلة اللغوية كانت وما زالت من العناصر الرئيسية في هذا الصدد . لقد لوحظ مثلاً في بريطانيا أن المنكوبين البسطاء الوافدين من بنغلادش وغيرها من الدول الإسلامية كانوا يهرعون فوراً إلى المسجد والالتجاء إلى أمام المسجد لحل مشاكلهم والتفاوض بإسمهم نتيجة جهلهم في اللغة الانكليزية والأنظمة البريطانية . وما لا يمكن أن نشك فيه هو أن المهجرين اليهود كانوا يهرعون إلى حاخامهم في بابل ونيينوى وروما وبرلين ونيويورك لنفس الأسباب . ولتوطيد هيمنتها هذه ، إحتاجت القيادة الدينية إلى إطار فكري تشد به تضامن المجموعة وتربطهم بها ، فجرى سبك التوراة على النحو الذي شاؤوا إعطاءه لها ، ثم جاء جيل جديد من القادة الروحيين فصاغوا حول التوراة

شروح المدرّاش ثم تعاليم المشنا والهلاشا. وظهر التلموذ بمعلوماته وقواعده الموسوعية المتشعبة كمرحلة متطورة لكل هذا التراث المديد. وأصبحت حياة اليهودي العملية محدّدة بأسوار من النواهي والأوامر والوعود والتعليقات التي لا يمكن حصرها. وغدت حياته الفكرية محصورة في إطار التمارين والأكروبايكيات اللفظية والفقهية المترتبة على كل هذا البناء الشامخ من النظرير الروحي. وإقتصر التعليم على نظام الكتابيب الذي تحدّد بثلاوات العهد القديم والزماير واللغة العبرية ومبادئ اللاهوت.

وما إن حلت القرون الوسطى حتى ظهرت بنتيجة ذلك طبقة كاملة تعيش على هذا التراث وتمسك بيدها زمام الحياة العامة للمجموعة، بل والخاصة أيضاً؛ وتضمنت أفواجاً من الكهان والحكماء (حكيم) والكتاب (سفرير) والحاخامين والمنشدين ورؤساء الحاخامين... الخ. وبالإضافة إلى إحتكار التعليم، نشرت هذه الطبقة هيمنتها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والمالية للمجموعة. وكان من أسباب ذلك إعتياد الأغيار على فرض غرامات وضرائب جماعية على اليهود وتحميل مسؤولية استحصاها على زعماء المجموعة. وهكذا تعين على هؤلاء أن يقوموا بمهمة الحصول على المبالغ المفروضة من الأفراد، وتضمن ذلك دراسة أحوالهم وقدراتهم المالية لتعيين حصة كل فرد أو عائلة، وكذلك للدفع بالنيابة عن الفقراء والمقعدين. وبمرور الزمن استقر التنظيم على جباية «ضريبة الجماعة» من كل مجتمع يهودي بصورة مقطوعة وترك توزيعها لمعرفة الرئاسة الحاخامية. ووسع كل هذا سلطة الطبقة الدينية التي نظمت نفسها في مؤسسة بيت الدين (بيت دين) وراحت تتخذ ما شاءت من القرارات الضرورية للمجموعة وتعهد بتنفيذها إلى مجموعة جديدة من البيروقراطيين، مجموعة الشماسين. وأسند هؤلاء تنفيذ شتى قواعد التكانا الاجتماعية التي امتدتحتى شملت تحديد عدد الزوار إلى بيت كل فرد وتناولت كل ما يتعلق بالصحة العامة من التعليمات التي صيغت بالصيغ الدينية من التحليل والتحرير وأدت بدورها إلى إعطاء سلطات إضافية لبيت الدين.

ونشأت من هذا النشاط فصائل عديدة مختلفة الاختصاصات منها الشوشيط الذي إحتكر الجزارة وتحديد المحرم والمحلل من الحيوانات (الكوشير) والموحيل المسؤول عن الختان والشازان المسؤول عن الطقوس والشولكلوبفر (المؤذن للصلاة) والغايي (الجايي ومأمور المال) والديان (القاضي) والبرناس (الرئيس).

وبسبب هذا التنظيم الاجتماعي الصارم إضطر اليهود إلى العيش سوية في أماكن معينة عرفت في أوربا بالاسم الذي أعطاه ثيودور هرتزل لكراسته الشهيرة، ونقصد به «دولة اليهود». ويتفاهم الاضطهاد المسيحي بعد الحروب الصليبية وإنتهاء الحكم العربي في الأندلس، تحولت هذه الأحياء في القرن السادس عشر إلى مناطق مخصصة رسمية لليهود أطلق عليها اسم الغيتو ghetto. وجرى ذلك بتسوير الحي بسور عال تغلق بوابته عند غروب الشمس ولا تفتح حتى طلوعها. وكان غيتو مدينة فرانكفورت الألمانية أول هذه الأحياء بعد تشييده في عام ١٤٦٠. وسرعان ما تلتها أحياء مشابهة كان من أقدمها الغيتو الذي أسسه البابا بولص الرابع في روما في سنة ١٥٥٥. وأقيمت في أسبانيا أحياء مشابهة أمرت السلطات اليهود بالانتقال إليها، ومنعت عليهم العيش في خارجها. وعينت موظفين خاصين لفتح باب الغيتو وغلقها والتأكد من عدم بقاء أي يهودي خارج الحي بعد غروب الشمس.

بيد أن الغيتو لم يكن كلياً من إختراع الأغيار أو صنعهم، فقد كان اليهود يتجمعون معاً (كما يفعلون الآن في أيامنا هذه في كثير من الأحوال) ويعتكفون ضمن حيهم الخاص بهم كما أشرنا، بمحض إرادتهم وخيارهم. وكثيراً ما طلبوا في الواقع من السلطات المسيحية بناء هذه الأحياء لهم. وقد رحبت الطائفة اليهودية في مدينة فيرونا الإيطالية بقيام السلطات المسيحية ببناء غيتو خاص بها في سنة ١٥٩٩. وواصلت الطائفة الاحتفال سنوياً بذكرى إفتتاح هذا الغيتو حتى القرن الثامن عشر. وعمد الحاخام لبمان هلز

في النمسا إلى إستنهاض قومه لبناء غيتو مدينة فيينا الشهير بأنفسهم في أواسط القرن السابع عشر. وعندما قررت السلطات المسيحية هدم أسوار غيتو مدينة تريست وإلغائه في عام ١٧٨٥ إستجابة لروح التنوير العقلاني للعصر، إحتج اليهود بشدة على ذلك الاجراء.

وبعد تدفق اليهود من أوروبا الوسطى إلى روسيا القيصرية بنتيجة الاضطهاد المتصاعد، عمدت السلطات القيصرية في سنة ١٧٧١ إلى تحديد عيشهم ضمن المنطقة المعروفة برقعة الاسكان Pale of Settlement التي تضمنت المدن الجنوبية من روسيا واوكرانيا. وكان على اليهود أن يعيشوا في أحياء الغيتو لهذه المدن ضمن الغيتو الكبير لرقعة الاسكان.

كثيراً ما وصف البعض إسرائيل بأنها عبارة عن غيتو كبير، وهو وصف واقعي إلى حد كبير، وهو وصف واقعي إلى حد كبير، ويشير بصورة موضوعية إلى مدى تأثير غيتو القرون الوسطى على تفكير الحركة الصهيونية، مما يجعل من الضروري معرفة شيء عن الحياة العامة والخاصة في ذلك الحي اليهودي التاريخي، أو «الدولة اليهودية» المصغرة.

من الأسباب الرئيسية التي حدثت باليهود إلى تشجيع الغيتو هو أنه كان يعطيهم الأمان من التهديدات والضربات الخارجية. فعند الصباح تفتح بوابة الغيتو ويخرج اليهودي إلى العالم الخارجي ليتعامل ويزاول نشاطه، وما أن يداهم الخطر حتى يهرع إلى الغيتو ويحتمي بأسواره، فقد كان محرمات بصورة عامة على المسيحيين دخول الحي وكان الخفر على الأبواب يبادرون على أي حال إلى إغلاق الأبواب حالما يشعرون بالخطر. وفي داخل الغيتو كانوا يزاولون حياتهم على منحاهم وحسب تنظيمهم ولا شأن للسلطات المركزية بهم. وكل ما كان ينتظره الحكام من الغيتو هو دفع الضرائب والأتاوات التي يفرضونها على المجموعة ككل، وعلى رئيس الطائفة مسؤولية الدفع.

ولما كانت هذه الأحياء محدودة برقعة محاطة بسور فلم يكن هناك أي مجال للتوسع فيها تمثيلاً مع تكاثر السكان. وأدى ذلك إلى تكدس الأبنية

وتزاحمها بشكل جعل الطوابق العليا تلتقي بعضاً ببعض في أعلى الأزقة الضيقة جداً والتي لم يتجاوز عرضها في أكثر الأحيان المتر الواحد، مما كان يمنع حتى نور الشمس من الوصول إلى الأرض. وبالطبع تعذر على الجمهور استعمال العربات في أكثر الأماكن. وتعاظمت أزمة السكن بشكل مريع فبلغت كثافة السكان في غيتوروما مثلاً عشرة آلاف شخص لكل كيلومتر الواحد. وإقتضى على أربعة آلاف شخص في غيتو آخر أن يعيشوا في ١٩٠ بيتاً فقط. وإضطرت عدة عوائل إلى العيش في غرفة واحدة. وتقاضى أصحاب الأرض المسيحيون إيجارات مفرطة عن أملاكهم الحقيرة هذه.

وبالطبع نتج عن كل هذه الأحوال أسوأ ما يمكن من الظروف المعيشية من النواحي الصحية والاقتصادية والأخلاقية والجمالية. كان من المعتاد أن تخصص دار واحدة أو أكثر للدعارة في كل غيتو وإضطرت كثير من النساء إلى إحتراف البغاء. وإنتشرت الأمراض الباطنية والصدريّة، ولا سيما السل الرئوي، بشكل فظيع. وتفاقت العلل النفسية والعقلية والعاهات الوراثية بسبب الزواج المتداخل المحصور بين أهل الغيتو، وفي الغالب بين الأقارب. وتكدست الأوساخ والمياه العفنة في زوايا الغيتو وأزقته. ولم يكن هناك بالطبع أي مجال للهندسة الجمالية والذوق في بناء البيوت وتخطيط الحي. وظهرت آثار ذلك في المستعمرات الصهيونية في فلسطين رغم رحابة الأرض وتوفر المصادر وكان من عناصر النقد التي وجهها الدكتور روبن المسزول الصهيوني عن هذه المستعمرات مجافاتها للذوق السليم والشعور الجمالي والنظافة.

تطلبت كل هذه الأوضاع الصعبة إجراءات مشددة وقيادة صارمة تضمن إستمرارية هذا المجتمع. ولما كان الأغيار يعتبرون الغيتو عالماً مظلماً ومخيفاً محتشداً بالشُرور والأمراض والعفاريّة، فقد تركوا شأنه لأصحابه من رجال الكهنوت في كل شيء حتى في ميدان القضاء الجنائي، وبما فيه عقوبة الإعدام التي تركت لقرار محكمة الفعاد عربية أراتسوث الحاخامية^(١).

(١) أي. أبراهامز، الحياة اليهودية في القرون الوسطى، لندن، ١٩٣٢، ص ٥٢

ورفضت السلطات المسيحية السماح لليهود بدخول المستشفيات والمصحات والملاجئ ودور العجزة، وأصبح على رئاسة الطائفة أن تتولى كل هذه الخدمات فوضعت قواعد دينية لمعالجة كل هذه المشاكل العسيرة. فبالنسبة للإسكان مثلاً، قضت بإعطاء اليهودي حق الأولوية في تملك رقة أي عقار. ولا يجوز لليهودي إيجار أي دكان أو دار بدون موافقة الشاغل السابق، ولا بيع أي ملك لغير اليهودي. وزاولت الرئاسة الدينية سياسة تأميمية فاحتكرت المسلخ والمقبرة (حديقة اليهود كما كان المسيحيون يسمونها) والفندق والمدرسة والمخبز والمطابخ العامة والأفران. ولما كانت السلطات المسيحية قد منعت اليهود من الاستحمام في الأنهر، فقد أقام الكنيس حماماً عاماً في الغيتو. وبالنظر للأخطار الخارجية المحيطة بالغيتو من هجمات الأغيار، فقد نظمت خلية خاصة للمعلومات والتجسس وتبادل التقارير والأخبار مع الأحياء اليهودية في المدن الأخرى وأحياناً إيصالها إلى السلطات المركزية. ووضعت قواعد وتقاليد طويلة بشأن الطعام والطبخ للتغلب على المشاكل الصحية بالأشكال التي كانوا يعتبرونها مجدية. وتشعبت قواعد الحياة اليهودية (متزفوت) فشملت كل التفاصيل اليومية. وأحصى العارفون هذه القواعد مجموعة ٦١٣ قاعدة تؤكد جميعاً على دوام المجموعة ولا تلتفت إلا بالقليل لوجود الفرد أو مصالحه أو نوازعه الذاتية. وبالطبع ظلت رئاسة الطائفة مسؤولة عن جمع الضرائب والأتاوات والرشوات والعطايا والهدايا وتقديم الخدمات، وكذلك عن توزيع الصدقات وتخصيصها^(١).

ورغم أن التقاليد قضت بإنتخاب الجمهور لرؤسائهم، فإن هؤلاء الرؤساء تمتعوا بسلطات مطلقة في تصريف شؤون الرعية. وأعطى هذا التنظيم رجال الكنيس سطوة لا حد لها على رقاب الجمهور^(٢). وهكذا نطق

(١) للمزيد من المعلومات عن حياة الغيتو، أنظر لويس ورث، الغيتو، شيكاغو، ١٩٦٦. وكذلك الموسوعة اليهودية، وكتاب أبراهامز أعلاه.

(٢) إلخام ج. تبوشوسكي، إعادة بناء صهيون، نيويورك ١٩٦٦، ص ٥٧.

الأديب اليهودي غوردن فقال في حق الحاخام التقليدي :

رجل لم يسع إلى السلام ولا عرف الشفقة .

ينهي أبداً عن هذا ويحظر عن ذاك ،

يديك هنا ويعاقبك هناك .

وقد عزز الحاخامون هيمنتهم بالتشدد الديني وربط كل فرد بهم فإشترطوا على كافة الرجال البالغين إداء الصلاة في الكنيس ثلاث مرات في اليوم ، على ألا يقل عدد المصلين عن عشرة في كل وجبة . وتوقفت كافة المراسيم الاجتماعية من زواج وطلاق وإرث على رأي الحاخام . وفوق المجموعة ، خيم شبح التحريم (حاريم) يهدد أي شخص يحاول شق عصا الطاعة أو الالتجاء إلى السلطات الحكومية لإلتماس العدل منها . ومن أحسن الأمثلة في هذا الصدد قضية شالوم في فلسطين القرن التاسع عشر . طالما تذر القنصل البريطاني من ضغط بيت الدين والمحاكم الحاخامية على الأشخاص الذين يلتمسون العدل من المحاكم القنصلية أو الرسمية للدولة . وإنفجر هذا الموضوع في عام ١٨٦١ في قضية جوزيف شالوم الذي عمل كجانبٍ لجمع الأموال من اليهود لبيت الدين . وعندما حصل نزاع بين شالوم وإثنين من الحاخامين في صدد حسابات ضريبة الطائفة ، إضطر إلى مقاضاتهما أمام السلطة القنصلية التي قضت بسجنهما حتى يقدم الحسابات المطلوبة . وبعد أن عجزت رئاسة الطائفة عن الحصول على قرار بالإفراج عنها أصدرت قراراً بتحريم جوزيف شالوم لإجباره على التنازل عن دعواه . وسرعان ما وجد شالوم نفسه في خراب إقتصادي شامل بعد أن منع كافة اليهود من التعامل معه أو الاقتراب إلى مسافة أربعة أذرع منه^(١) .

(١) وثيقة وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٢١ حزيران ١٨٦١ ، ١٩٥/٦٧٥ ، اف .أو .

وقد ظهر كثير من أساليب هذا العيش في أساليب العمل الصهيوني والاسرائيلي وإنعكس عليها ومن ذلك تقبل الاكتضاض السكاني وإتباع الصندوق القومي اليهودي لقاعدة منع بيع العقارات لغير اليهود وتحويلها إلى ملك للشعب اليهودي لا يمكن التنازل عنه إلى أبد الأبدين، وإنتهاج الوكالة اليهودية في فلسطين نهج الدولة ضمن الدولة، والاستعداد الاسرائيلي للعيش في مجتمع صغير محاط بسور يخرج منه الاسرائيليون لكسب مغنم وهرعون إليه لدى أول خطر أو غرم، وإتباع أسلوب إختيار القادة بالانتخاب، وإخضاع كل شيء لإجتهاادات السلطة الدينية والحاخامين. ولاحظ شالوم لكلم في كتابه عن مستوطنات الكبوتر أن حركة الكبوتر الزراعية في إسرائيل هي في الواقع إمتداد للتنظيم الديني القائم على التعاون الجماعي وإستعمال الرموز والطقوس الروحية في جوهرها^(١). ومن ذلك أيضاً إعتداد إسرائيل على الجاسوسية وجمع المعلومات وتركيزها على ذلك.

بيد أن تطورات العصر الحديث العملية والعقلانية والتحررية والمنفصلة عن الدين، أخذت تقوض ذلك الكيان القديم. وبإنتصار الثورة الفرنسية، أزال السلطات الأسوار القائمة حول الأحياء اليهودية، وبادرت الدول الأخرى إلى هدم أحياء الغيتو وإطلاق سكانها من عقابهم. وفي عام ١٨٧٠ تم تفويض جدران آخر غيتو في أوروبا الغربية عندما دخل الفرنسيون، حملة نبراس الثورة الفرنسية، مدينة روما. وكان من أول الخطوات التي جرت في هذا الاتجاه دعوة نابليون في ١٨٠٧ لزعماء الطائفة اليهودية لعقد مؤتمر السانهردين الكبير الذي قرر أن على اليهود أن يؤدوا الخدمة العسكرية لبلدانهم المختلفة كبقية المواطنين، وتجاهل القواعد الدينية التي تتناقض مع هذه الخدمة. وقرر المؤتمر أيضاً التساهل في زواج اليهود المختلط بالأغيار.

والواقع أن نابليون قد ردد أصدقاء الحركة الإصلاحية لليهودية التي سبق

(١) شالوم لكلم، يهودية الكبوتر، لندن، ١٩٨٤.

وإن مهد إليها موسى مندلسون في ألمانيا في القرن الثامن عشر لإعطاء اليهودية قالباً عصرياً ومكانة دينية كبقية الديانات الأخرى التي تواجدت بينها وبعيداً عن التشنجات الصهيونية المرتبطة بفلسطين والرجوع إلى الأرض المقدسة. وكان من أهم أعمال التطبيع التي اضطلع بها مندلسون قيامه بترجمة أسفار موسى الخمسة من العهد القديم إلى اللغة الألمانية كما فعل لوثر من قبل بالنسبة للإنجيل. وسرعان ما إنتشرت حركة الإصلاح اليهودي على غرار حركة الإصلاح البروتستانتي في ربوع أوروبا الغربية والوسطى. وإنظمت سلسلة من المؤتمرات التي نظمت لدراسة مواضيع إصلاح اليهودية وتحديثها، وكان من ذلك مؤتمر برونسفيك في عام ١٨٤٤ ومؤتمر فرانكفورت في عام ١٨٤٥ ومؤتمر برسلوا في السنة التالية. وتلى ذلك مؤتمر فلادلفيا في ١٨٦٩ ومؤتمر بتسبرغ في سنة ١٨٨٥. وقد شملت مقررات هذه المؤتمرات تحرير اليهود من العبادة القربانية في ظل أبناء هرون، وإلغاء الحاجة إلى القيام بالطقوس الكنيسة، والسماح لليهود بالزواج بالأغيار، والتخلي عن فكرة الرجوع إلى فلسطين وفكرة الانتماء إلى شعب واحد. وفي أوروبا الشرقية إنظم المثقفون اليهود للإستجابة إلى كل هذه التطورات الحديثة فراحوا يبثون الأفكار المتنورة العصرية المناقضة لتعاليم الكنيس المتشددة. وتضافرت أفكارهم هذه في حركة التنوير المعروفة بالحسقة والتي كان من مميزاتها التنديد المتطرف بالحاخامين.

وبينما سارت هذه الاتجاهات الليبرالية مساراً يؤدي في الأخير إلى تقوض سلطة الكنيس بين الطبقات الوسطى، ظهرت الحركات اليسارية بين الطبقة العاملة لتقود أتباعها من باب أخرى إلى نفس المحصلة. وبالطبع كان من أهم الرواد في هذا الميدان كارل ماركس الذي ربط اليهودية بال رأسمالية وقال أن دين اليهودي هو الكمبيالة وأن اليهودية ستختفي كلياً بإختفاء الرأسمالية^(١).

(١) كارل ماركس عن المسألة اليهودية.

وحمل معظم الاشتراكيين في القرن التاسع عشر على الديانة اليهودية كديانة بالية تخدم الرجعية. وندد لنين بالاستقلال الثقافي اليهودي على أنه «شعار الحاخامين والبرجوازيين»^(١). وسرى في الأوساط المثقفة الاعتقاد الذي تردد على ألسنة الكثيرين بأن السبيل الوحيد لتحرير اليهود وخلصهم يمر عبر تخليهم عن ديانتهم القديمة.

ولا شك أن جميع عالم الأديان في أوروبا قد تلقى ضربات كبيرة من النظريات والمكتشفات العلمية التي ضعفت الإيمان وأجبرت الأوساط الدينية على الانكماش وحدث من نفوذ رجال الدين. ولكن هذه الضربات جاءت بأوجع صورها وزخها ضد المعتقدات اليهودية. وإذا كان هذا التطور قد تسبب في تخلي الكثير من المسيحيين عن دياناتهم، فقد جاء الأثر واضحاً بصورة أكبر بين أوساط اليهود. وبعين الوقت، إصطدمت الحياة الصناعية الحديثة بالتقاليد اليهودية القديمة ولا سيما فيما يتعلق بالامتناع عن العمل وإيقاد النار يوم السبت والامتناع عن أكل لحم الخنزير والطبخ المسيحي السائد في مطاعم الورشات والمعامل مما سبق وأن أشرنا إليه.

وفي هذه الظروف، نشط رجال الكنيسة في محاولة إقناع اليهود بأن الوقت قد حان لوضع حد للمعاناة القديمة بقبول المسيح وحل المشكلة اليهودية بإعتناق المسيحية. وبالفعل خطى هذه الخطوة كثير من أبناء الطبقة المتوسطة اليهودية ومنهم مثلاً الموسيقار الشهير ماهلر، لأسباب إنتهازية أو حقيقية. وكان السياسي البريطاني الكبير ذررائيلي من هذه العوائل التي تنصرت. والواقع أن هرتزل نفسه فكر بالفعل بقيادة اليهود في مسيرة كبرى إلى روما لإعلان تنصرهم أمام البابا^(٢). ومما يجدر بالذكر أيضاً أن الزعيم الصهيوني كان نفسه لا دينياً وأن بناته إعتنقن المسيحية. وظهرت بين

(١) و. كولارتز، الدين في الاتحاد السوفيتي، لندن، ١٩٦١.

(٢) مذكرات هرتزل، ج ١، ص ٧.

المسيحيين طائفة من رجال الدين ممن تعصبوا في تأييد الفكرة الصهيونية على أساس تعبئة اليهود للعودة إلى فلسطين تمهيداً لتنصرهم فيها على اعتبار أن المسيح قد ظهر وحق على اليهود على يعودوا إلى الأرض المقدسة ويؤمنوا به .

وهكذا راح الكنيس يواجه هجمات من كافة الجوانب، من الحركة الإصلاحية، ومن الاشتراكية ومن الليبرالية ومن العلوم الحديثة ومن الكنيسة المسيحية . وراح أبناء الموسوية يهجرون ديانتهم القديمة أو يتمردون على سلطة الحاخام بأعداد متزايدة . ومما يذكر أن بعض اليهود قد أسسوا جمعية خاصة في روسيا الجنوبية لغرض البحث عن أحسن دين يناسب أبناء الطائفة ليعتقوه ويتخلوا عن ديانتهم القديمة ^(١) . وقد أحصى عدد اليهود الذين تركوا ديانتهم ودخلوا المسيحية خلال القرن التاسع عشر بنحو ٢٠٤,٥٤٠ نسمة . وكثر زواج اليهود بالأغيار بشكل مخيف، فبلغ عدد الزيجات المختلطة في فينا مثلاً في عام ١٨٩٨ ما مجموعه ١١٠ مقابل ٨٤٧ زيجة يهودية صرفة . وإرتفعت النسبة في برلين إلى ٢٢٩ زيجة مختلطة من مجموع ٦٢١ زيجة يهودية صرفة . ونجد في إحصائيات أستراليا الجنوبية لعام ١٩٠١ أنه كان هناك ٣٦١ زواجا مختلطاً مقابل ٧٨١ زواجا يهودياً صرفاً، أو بعبارة أخرى نحو ثلث مجموع كافة الزيجات اليهودية ^(٢) . وإنكمش أيضاً تعلم اللغة العبرية حتى وجدت إحدى المدارس اليهودية من المتعذر عليها أن تعثر على معلم واحد لهذه اللغة، فأعلنت في الصحف عن إستعدادها لقبول أي معلم حتى ولو كان يهودياً متنصراً . وبدأ اليهود بالالتجاء إلى المحاكم المدنية في قضاياهم بدلاً من المحاكم الحاخامية . وللتهرب من دفع الضريبة الجماعية التقليدية بين اليهود، أعلن الكثير عن تخليهم رسمياً عن الديانة اليهودية . وبلغ مجموع هؤلاء الناس في برلين في سنة ١٩٢٩ فقط ٤٦٤ شخصاً ^(٣) .

(١) أنظر مجلة الزاينست، كانون الثاني، ١٩١٢ .

(٢) أنظر الموسوعة اليهودية في هذا الخصوص

(٣) روبن، اليهود في العصر الحديث .

وبعد أن كان المسيحيون يمنعون اليهود من المشاركة في مؤسسات العالم المسيحي وشؤونه، إنقلبت الآية فراححت السلطات تجبر اليهود على إداء الخدمة العسكرية ودراسة اللغات الوطنية ومواد التراث القومي الذي كثيراً ما إنطوى على أفكار مسيحية صرفة. وبعد أن أجبر اليهود في القرون الوسطى على تمييز أنفسهم بلبس ملابس خاصة ووضع نجمة داود عليها، صدرت التعليمات المعاكسة في روسيا القيصرية ضمن حملة التنوير العامة لإرغام اليهود على لبس الملابس المسيحية ودخول المدارس الرسمية (المسيحية)، كما طبقت على اليهود أحكام القضاء المدني القائم على الشريعة الرومانية والمعتقدات المسيحية، فأصبح من الصعب على اليهود مثلاً الحصول على الطلاق، ومن المحرم عليهم الزواج بأكثر من واحدة.

وبالطبع لاحظت الطبقة الطفيلية القائمة على كيان الكنيس وبيت الدين وجموع الحاخامين والشماسين ومن جرى في مدارهم كل هذه التطورات وأدركت مدى خطرها على إمتيازاتها وسلطاتها القيمة. وقد كتب الأستاذ فمهاوسن، مؤلف الكتاب الشهير «تاريخ إسرائيل» فقال أن تحرر اليهود كان يؤدي بصورة حتمية إلى زوال اليهودية. والواقع أن السلطة الحاخامية أدركت هذا الخطر بجميع أبعاده منذ أيامه الأولى، فعندما غزا نابليون روسيا جاء حاملاً معه وصفة الانعتاق اليهودي كما فعل أينما ذهب في القارة الأوروبية. وبات من المتوقع أن يهب اليهود الروس إلى مناصرتهم بالنظر للإضطهاد المريع الذي كانوا يعانونه من القيصرية الروسية والكنيسة الأرثوذكسية. بيد أن حاخام روسيا شنوير زلمان فعل عكس ذلك تماماً فوجه ندائه إلى اليهود للوقوف في جانب القيصر الكسندر الأول ضد جيوش الثورة الفرنسية، وقال في ندائه: «أن اليهود سيصمدون أيضاً ضد قسوة الكسندر ولكن ليس ضد حريات نابليون»^(١). وعلى المستوى العملي، شن الحاخامون الروس حملة

(١) ج. تالر، الكرملن واليهود والشرق الأوسط، نيويورك، ١٩٥٧، ص ٣٤.

موسعة ضد محاولات الحكومة لتعميم التعليم الحديث بين اليهود وتحسين أحوالهم.

وفي أنكلترا أصدر كرول، حاخام مدينة كيمبرج، كراسة هاجم فيها التحرر الجديد وأكد على أن اليهود شعب منفصل لا شأن له بما يجري لدى بقية السكان الانكليز. وقد إستشهد معادو السامية في أنكلترا بكراسته في معارضتهم ضد السماح لليهود بدخول البرلمان البريطاني^(١). وحمل اللورد أشلي على حركة الإصلاح اليهودي ووصف أتباعها بالكفار الذين يفضلون الجلوس في مقعد في مجلس العموم على الجلوس تحت أشجار الكرم والتين في الأرض المقدسة^(٢).

ولا بد أن لاحظ كافة الحاخامين أن زوال الغيتو وخروج سكانه منه للعيش والعمل مع الأغيار قد أدى إلى تفرق القطيع وإنفلاته من سلطة الكنيس، وأخيراً تخليه عن الديانة اليهودية كلياً بالزواج المختلط أو التنصر أو الإلحاد. لقد لوحظ مثلاً أن ستمائة شابة من مجموع العشرين ألف لاجيء يهودي الذين إستوعبتهم السويد بعد الحرب العالمية الثانية قد تزوجن بغير اليهود. وذاب الآخرون في حياة المعامل السويدية إلى الحد الذي أربع المنظمة الصهيونية ودفعها إلى إرسال مبعوثين لإنقاذ هذه المجموعة من الضياع! وقد سمى ناحوم غولدلمان، محرر اليهود بقبلة الموت (مئات نشيكة) للوجود اليهودي. وتحدث في البيان الذي ألقاه هذا الزعيم الصهيوني على المؤتمر التاسع والعشرين لعام ١٩٧٨ للمنظمة الصهيونية فأشار إلى الخطر الذي أصبح يهدد اليهود بإزدياد الزواج المختلط وتقلص نطاق التعليم اليهودي في عالم الشتات.

كان من أهم التطورات التاريخية بالنسبة للكنيس اليهودي ما جرى في

(١) أنظر هنسارد، مجلس العموم/١٠ مارت ١٨٤٠.

(٢) الوثيقة البريطانية رقم ١٦٥/١٩٥٠ أف. أو.

القرن التاسع عشر من قيام اللبرالية البرجوازية بتحرير الأغنياء اليهود من سيطرة الحاخامين على أموالهم، مما كان معتاداً طوال عهود الغيتو، بل وطوال التاريخ اليهودي عبر القرون^(١). وجرى ذلك بعد إنهيار كيان الغيتو. وقد وجد الحاخامون أنه لم يعد بالإمكان إعادة بناء الغيتو القديم لكل عاصمة أوربية، ونظروا فأروا أن الحل الوحيد الممكن عملياً للتعويض عن ذلك والرجوع إلى عالم القرون الوسطى قد يتحقق ببناء غيتو جديد كبير بإسم الوطن القومي اليهودي تحت شعار إعادة تجميع المشتتين والرجوع بهم إلى الأرض الموعودة، ومن ثم إعادة هيمنة الكنيس على الحياة اليهودية، وعلى أبناء موسى، أغنياء كانوا أم فقراء، وانبرى الزعيم الصهيوني ل. سيمون في بريطانيا فكتب كراسة لمعالجة هذه المسألة وقال فيها: «ما يريد الرجل البسيط أن يعرفه هو ما الذي يمكن عمله؟ أمامنا دول كانت تلتصق نواحيها فيها تخلياً واضحاً عن اليهودية وميلاً من الجيل الجديد من اليهود لفقدان لغتهم وتقاليدهم البليغة الثقة. ما الذي يمكن عمله؟ هل أن كلمة الشهادة الساحرة تكفي لإعادة غير العائنين إلى القطيع؟ ومضى سيمون فكتب في مجلة الزاينست بلتن قائلاً، «إذا جاء ذلك اليوم الذي لا توجد فيه حياة جماعية للطائفة اليهودية قائمة بذاتها، فلن يكون للدين اليهودي وجود في ذلك الحين غير ظلال شاحبة لليهودية القديمة آخذة إلى الزوال بسرعة. وإذا كان المعادي للصهيونية يريد برهاناً قاطعاً على ذلك، فما عليه غير أن ينظر الى الكنيس الفارغ من المتعبدين ويتأمل كيف سيصبح أكثر فراغاً ما لم توجد مجموعة يهودية مجسمة في مكان ما تقود الطائفة بفيض جديد من اليهود»^(٢).

وفي مقالة أخرى نشرتها مجلة الزاينست في سنة ١٩٠٦، كتب سولومون شختر محذراً اليهود من النزعة الاندماجية بأنها تؤدي في الأخير إلى الكفر وقطع علاقة الفرد اليهودي بالكنيس. وأكد على أن الدفاع الوحيد ضد ذلك يكمن في الصهيونية، بالرغم مما فيها من عيوب.

(١) هرتزبرغ، الفكرة الصهيونية، نيويورك، ١٩٦٠، ص ٥٩.

(٢) زاينست بلتن، حزيران ١٩١٤.

وفي كانون الثاني ١٩١٦، عقد الحاخامون البريطانيون مؤتمراً في لندن أيدوا فيه الحركة الصهيونية^(١) وكان من المساهمات المهمة في إخراج وعد بلفور تأييد الدكتور هرتز، رئيس الحاخامين للإمبراطورية البريطانية للوعد بناء على إستشارة الحكومة، وتعبيره عن إرتياحه العميق عن الفكرة^(٢). وفي عام ١٩٠١ تألف حزب المزارحي (المركز الروحي) الديني تحت شعار، «أرض إسرائيل لشعب إسرائيل وفق شريعة إسرائيل»، على أكتاف طائفة من الحاخامين والمتدينين. وبعد مباحثات دينية وجيزة مع أصحاب الصهيونية السياسية، سويت الخلافات بين الطرفين في سنة ١٩١١ وبدأ المزارحيون بإعطاء كامل تأييدهم للحركة. وفي عام ١٩١٨، أصبح الحزب المزارحي حزباً رئيسياً في فلسطين قدر له أن يلعب دوراً رئيسياً في توجيه إسرائيل فيما بعد.

بيد أن فريقاً كبيراً من الحاخامين توجسوا شراً من الحركة الصهيونية، لما قد تثيره في نفوس الأغيار من شكوك في إخلاص اليهود وفي إندماجهم بمجتمعاتهم المختلفة، ولما قد تسببه أيضاً من ردود فعل سلبية بالنسبة لمطامعها السياسية والاستعمارية وتحديداً للسيادة العثمانية في فلسطين. وكان من أول المنتقدين للبرنامج الصهيوني الدكتور أدلر، رئيس الحاخامين البريطانيين أثناء الأيام الأولى من تاريخ المنظمة الصهيونية السياسية. وكذلك كان موقف الحاخام باشي للإمبراطورية العثمانية. الذي لم يتعرض أتباعه بعد إلى حركة التحرر.

وبخلاف ذلك وبمرور الزمن، هرع رجال الدين اليهودي لإعلاء راية الصهيونية. وأينما حل ثيودور هرتزل، توجه إلى رؤساء الطائفة الروحية وألقى كلماته على اليهود من منابر الكنيس. وكان من أبرز مؤيدي هرتزل في

(١) بي. غورمان، الصهيونية في أنكلترا، لندن، ١٩٤٩، ص ٣٦.

(٢) س. لاندمان، أصول تصريح بلفور، ١٩٤٢، ص ٢٦٨.

أيامه الأولى رئيس الحاخامين لمنطقة فلورنسة. وكتب الزعيم الصهيوني في هذا الصدد في كراسته «الدولة اليهودية» قائلاً: «سوف يقوم حاخامونا الذين نتوجه إليهم ببناء خاص بتكريس طاقاتهم لخدمة فكرتنا، وسوف يتوجهون بها إلى رعيّتهم عن طريق الوعظ من منابر الصلاة». وتأمل هرتزل من رجال الكنيس أن يصبحوا بمثابة ضباط إتصال بين كل من جمعية اليهود والشركة اليهودية من طرف وأبناء الطائفة من الطرف الآخر. ومن مثل هذه المنطلقات الدينية كتب قائلاً في نفس الكراس، «نحن نشعر برابطتنا التاريخية فقط عن طريق إيمان آبائنا وأجدادنا. . . فالإيمان هو الذي يوحد بيننا». وفي مذكراته كتب هذا الزعيم اللاديني فأعرب عن نيته بعد تحوله إلى الصهيونية في تربية أولاده وتنشئتهم على الاعتقاد بالإله التاريخي، وعن إعتقاده بأن بقاء الشعب اليهودي إنما كان عملاً أراد به الله إستمرارهم، ليلعبوا دورهم في صياغة تاريخ البشر (١).

ولعل من أدل الإشارات إلى دور الكنيس في بعث الحركة الصهيونية ومساندتها، تلك القوائم الطويلة بأسماء الحاخامين الذين خفوا لنصرة الحركة ولعبوا أدواراً رئيسية في مسيرتها الطويلة. ونذكر من ذلك الحاخام كاليشر، أحد رواد الحركة ومن أول من لفت النظر إلى الأخطار المحيطة بالوجود اليهودي نتيجة تحرير اليهود. ومن أهم مساهمات كاليشر الدينية الأساسية لتقدم الصهيونية الفتوى التي أفتى بها من حيث عدم ضرورة إنتظار مجيء المسيح لعودة اليهود إلى فلسطين. وبموجب هذا الاجتهاد الجديد صاغ هذا الحاخام فكرة السعي الذاتي لعودة اليهود إلى الديار المقدسة بكفاحهم العملي الخاص دون ما حاجة إلى التدخل الرباني المباشر. ومن قاد الجمهور لمناصرة حركة أحباء صهيون (شوفوف صهيون) الحاخام سامويل موهيلفر. وفي فلسطين قام الحاخام كوك بمهمة أساسية في تدعيم الوجود اليهودي حتى وفاته في عام ١٩٣٥. وقاد الحاخام شورسن،

(٢) أسعد رزوق، الدولة والدين في إسرائيل، مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت،

١٩٦٨، ص ١٨ - ١٩.

حاخام مدينة ريغا في روسيا، النضال الصهيوني ضد عمليات التطبيع والتحرير التي بدأ بها البلاشفة بعد ثورة أكتوبر. وبالإضافة الى هؤلاء كان هناك الدكتور ماغوليس والحاخام غوستاف غوثيل والدكتور ماغنز (أول رئيس للجامعة العبرية في القدس) والحاخام ستيفن وايز والحاخام هيل سلفر والدكتور ماكس نوسبوم (الذي أصبح رئيساً للمنظمة الصهيونية في الولايات المتحدة) والحاخام أرثر ليليفيلد رئيس المؤتمر الأمريكي اليهودي، والحاخام ميمون الذي ألف كتاب «تطور الصهيونية الدينية» دفاعاً عن الرابطة بين الديانة الموسوية والصهيونية وأصبح فيما بعد وزيراً للشؤون الدينية في إسرائيل، والحاخام أرفنغ ملر، رئيس المجلس الصهيوني الأمريكي، وغيرهم الكثير ممن تتوارد وما زالت تتوارد أسماءهم أمامنا حتى أيامنا هذه.

وكان بين هؤلاء الحاخامين، الحاخام يكوئيل هلبيرستام الذي آمن بأن الدين اليهودي لا يمكن أن يتواجد في الأقطار التي يمتص فيها الرخاء والاندماج أبناء هذا الدين باستمرار. وبعد نجاة هلبيرستام من القمع النازي إلتجأ إلى الولايات المتحدة فوجد أن الحياة البرالية فيها تشكل خطراً كبيراً على الإيمان، فإقتاد أتباعه في هجرة جماعية إلى إسرائيل بمساعدة الوكالة اليهودية. وعلى نقیض هذا الحاخام، آمن شختر بأن الصهيونية حركة لا دينية، ولكنه عاد فغير رأيه وأصبح من المتحمسين في الدعوة إليها بعد أن يش من إمكانات صد المد الاندماجي الذي راح يجتاح صفوف اليهود في العالم الجديد.

ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن كثيراً من قادة الحركة الصهيونية من غير الحاخامين كانوا ينتمون في الواقع إلى عوائل حاخامية. فمثلاً أن كلاً من ديفيد ولفسن وماكس نوردو اللذين خلفا هرتزل على رئاسة المنظمة الصهيونية كان أبواهما حاخامين. أما ناحون سوكولو الذي ترأس المنظمة أيضاً لفترة مهمة فقد تلقى على يد عمه الحاخام سوكولو ثقافته ليصبح بدوره حاخاماً فيما بعد. وكان جد ثيودور هرتزل نفسه حاخاماً أيضاً. وكان والد حاييم وايزمان تاجر خشب ولكنه كرس جل اهتمامه وكثيراً من وقته في خدمة الكنيس

حيث دأب في كثير من الأحيان على القيام بدور الانشاد بما أضفى على أولاده الشعور بالفخر والسعادة - كما قال وايزمان في مذكراته . وبنفس الوقت ، كان عم هذا الرائد الصهيوني وأول رئيس جمهورية لإسرائيل حاخام مدينة لومزه في روسيا . وظل حايم الشاب متعلقاً بعمه هذا وحاول فيما بعد نشر كتاباته الدينية . أما أحاد هاعام (آشر غنزبرغ) فقد تزوج في أول شبابه بنتاً من عائلة حاخامية . وكان والد الدكتور بنسكر معلماً للغة العبرية . ومن الأسماء اللامعة في تاريخ الحركة الصهيونية إسم رشا فراير التي تزوجت حاخاماً من برلين ولعبت دوراً مهماً في حركة هجرة الشباب اليهود إلى فلسطين (عليا الشاب) بعد أن نصحت مجموعة من الشباب الألماني اليهودي بالتدريب للهجرة إلى الديار المقدسة والعمل فيها^(١) . وتلت ريشا فراير في هذا العمل وتعبئة الشباب للهجرة هنريته سزفلد ، التي كانت بدورها ابنة حاخام آخر . ومن النصائح التي كانت تلقى على المهاجرين الجدد في فلسطين أن يبادروا إلى قراءة العهد القديم ليتفهموا رسالتهم ولماذا إقتضى عليهم تحمل كل ما تحمله وليدركوا أبعاد حياتهم الجديدة المختلفة كلياً عما ألفوه . ومن الشخصيات الراهنة حايم هرتزغ ، رئيس الجمهورية لإسرائيل الذي إنشغل منذ أول شبابه في الحركة الصهيونية عندما كان أبوه رئيس الحاخامين لمدينة دبلن في أيرلندا . ويضيق المجال لتعداد كافة الشخصيات الصهيونية ذات العروق الحاخامية . ولا يسع المراقب لهذه الوقائع غير أن يدرك مدى واقعية قول لينن بأن الصهيونية هي شعار الحاخامين .

وما يلاحظ أيضاً أن العلاقة في هذا الخصوص كانت متبادلة . فبينما راح رجال الدين يدعون لإعادة تجميع القطيع في غيتو كبير جديد ، إندفع رواد الصهيونية إلى الدعوة للتمسك بالدين وإحياء علومه ولغته ومحاربة الزواج المختلط . ومن أول الأعمال الأدبية في هذا الصدد رواية الدكتور كوهن التي كتبها ماكس نوردو في سنة ١٨٩٨ وصور فيها محنة بطل القصة في سقوطه في

(١) ن . بنتويتش ، عودة الشباب اليهودي إلى الوطن ، لندن ، ١٩٤٤ ، ص ٣٥ .

هوى فتاة مسيحية هي بذاتها ابنة حاخام ترك اليهودية وتنصر. وبعد زواج كوهن من هذه الفتاة، إكتشف كيف أن العالم المسيحي ظل يحتقره ويحاربه. وفي أحد مشاهد الرواية يجبره أهل الفتاة بأن بإمكان اليهودي أن يصبح مسيحياً ولكن ليس بإمكان الرجل الشرقي أن يصبح ألمانياً. ويعطينا نوردو رأيه في الموضوع على لسان الدكتور كوهن، «إذا دفع الرجل الآري الرجل السامي إلى الوراء ومنعه من الدخول إلى العرق الآري من البشرية، فعلى السامي أن يسعى ليصبح رجلاً قوياً كيهودي. وتتطلب الرجولة القوية، التمسك بالقومية التي يعترف بها الفرد أمام نفسه وأمام الآخرين». وتطورت من هذا المنطلق فكرة «اليهودي غير القابل للدمج» التي أصبحت من أعمدة الفكر الصهيوني.

ومن الرواد الذين كتبوا في هذا السياق في أواخر القرن التاسع عشر، يحيل ميخائيل باينس الذي دافع عن أهمية الدين بالنسبة للقومية، وإستحالة تحويلها إلى حركة علمانية نظراً لأنها تعتمد على التوراة، وكانت التوراة هي المسؤولة عن بقاء اليهود، وكان الضغط على العبادة هو الذي أثار اليهود ضد الحكم الأجنبي. وفي مقالته «الدين مصدر القومية اليهودية»، أوضح باينس أن حذف الدين من القومية اليهودية لا يترك منها شيئاً سوى الكلمات الجوفاء التي لا تفيد أي معنى.

ونحن نجد المطبوعات الصهيونية مليئة بالمقالات والتقارير التي تؤكد على ضرورة التمسك بالدين وشعائره وتدق أجراس الخطر إزاء أي إجراءات تؤدي إلى تقلبص التعليم الديني ومزاولة طقوسه وقواعده. وكان من ذلك ما كتبه مجلة الزاينست رفيو عندما راحت تنحب على إنفضاض اليهود في الاتحاد السوفيتي من الدين في مقالة بعنوان، «فقد تم اليهودية» وقالت المجلة فيها، «لقد سمح السوفييت بالصهيونية، ولكن لا يوجد أي نشاط صهيوني هناك، ولا إحتمال للقيام بذلك. جميع الشباب يتبعون الشيوعية بحماس،

وهو ما يعني أن اليهودية قد فقدتهم»^(١). ومن المخصصات الرئيسية للمنظمة الصهيونية ما كرس لدعم التعليم الديني. وكان من مقررات المؤتمر الصهيوني الثاني عشر لعام ١٩٢١ اشتراط الالتزام بتعاليم الدين اليهودي في كافة المعاهد التي تستلم مساعدة مالية من المنظمة الصهيونية العالمية.

ومن الطريف في هذا الصدد أن معظم العاملين في المنظمة الصهيونية كانوا ملحدين أو لا دينيين أو غير ملتزمين بالدين. ومع ذلك فإنهم أكدوا باستمرار على ضرورة التمسك بالدين وإعتمادهم في كثير من المحاججات على الاستشهاد بأقوال العهد القديم. ونجد أجلى صورة لذلك بين صفوف اليسار الصهيوني الذي ضم الماركسيين والعماليين والاشتراكيين. وتستشهد كراسة منظمة أسراكا «الدولة الصهيونية والهوية اليهودية» الصادرة في ١٩٧٣ بكثير من الشواهد على هذا التناقض، ومن ذلك قول غولدا مثير، «إنني لست متدينة ولكنني أعرف بأنه لولا الدين لأختفينا من الوجود». وتحدثت في مناسبة أخرى عن الزواج المختلط فقالت: «لا يوجد الآن خطر بالإبادة الجسمية للشعب اليهودي، ولكن هناك خطراً أكبر من ذلك، ألا وهو الزواج المختلط»^(٢). وتحدث موشي أرين بإسم حزب بولي صهيون الاشتراكي أمام البرلمان الاسرائيلي عن موضوع هوية اليهودي فقال أنه كإشتراكي لا يؤمن بالدين، ومع ذلك «فإن إيماننا العميق الذي لا يقوم على أي أنظمة أو برامج حزبية يؤكد بأن اليهودي الذي يدخل ديناً آخر يقطع بعمله هذا علاقته بالمجموعة وبالشعب نظراً لأن الدافع لذلك ليس الإيمان ولا المعتقد وإنما الرغبة في الهروب من مصير الشعب ومعاناته ونضاله»^(٣).

ووصل الرياء الفكري أوجه عندما حاول الاشتراكيون إعطاء الوصفة الدينية الصهيونية والنزوع النفسي إلى فلسطين مبررات إشتراكية علمانية

(١) زاينست رفيو، ١٠ كانون الثاني ١٩٤٧.

(٢) الدولة الصهيونية والهوية اليهودية، أسراكا، كانون الثاني ١٩٧٣، رقم ٥.

(٣) عكيفة أور، ص ٥٠ - ٥١.

وعقلانية. من المسلم به أن اليهودي المتدين يفسر إرتباطه النفسي بفلسطين بالرجوع إلى العهد القديم ووعده الرب. ولكن بربروخوف الاشتراكي الذي افترض فيه عدم الإيمان بهذه النصوص والتعاليم، إلتزم أيضاً بفلسطين كوطن قومي يهودي دون كل بلدان العالم. فما الذي برر له ذلك؟ قال بروخوف أن إختيار فلسطين يقوم على إعتبارها بلداً فقيراً لا يجتذب رؤوس الأموال، ومن ثم سيمكن إقامة وطن قومي إشتراكي فيها بدون رأسمالية. وبعد أن كان يتحدث عن الوطن القومي بإسم فلسطين، إنبرى بعد قليل ليقط هذا الاسم الدنيوي من كتاباته ليستعمل الاصطلاح الديني «أرض إسرائيل». وفي ميدان آخر، ربما إستغرب فتساءل الإنسان ما الذي يبرر للصهاينة الاحتفال بالأعياد الدينية الصرفة؟ أعطى برل كتنزلسن تبريره لذلك بقوله بأن عيد الفصح هو الاحتفال بتحرر الإنسانية من العبودية (كناية إلى خروج بني إسرائيل من مصر)، وعيد تسعة آب هو يوم الحداد على فقدان الوطن الأم. أما أنبياء العهد القديم فهم الطلائع الثورية لذلك الزمان. ومن الظريف أيضاً أن نلاحظ الكتاب الاشتراكيين العلمانيين كسمولنسكي ولينوم يستعملون في كتاباتهم كلمات مثل «تقديس الاسم» و«الشعب المقدس» و«الخلاص». ولعلنا نجد مثلاً جيداً آخر من هذا الرياء الفكري والازدواجية في سلوك بن غوريون، الزعيم الاشتراكي الذي كرس الأيام الطوال في التأمل الروحي، وإعتمد في معظم محاججاته على الاستشهاد بالعهد القديم الذي إعتبره دستور إسرائيل. الواقع أن الحاخام كوك، رئيس الحاخامين في فلسطين، إنتبه إلى الارتباط المحتم بين الصهيونية والدين فقال: «أن روح إسرائيل مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بروح الله بحيث لا يستطيع أي قومي يهودي مهما كان علمانياً في رؤيته غير أن يؤكد على الاهليات رغماً منه» (١).

ومن عالج هذه العلاقة بين الدين والصهيونية السياسية المفكر والمؤرخ

(١) هرتزبرغ، الفكرة الصهيونية، نيويورك، ١٩٦٠، ص ٤٣٠.

دبنو الذي رأى أن العامل الرئيسي في تكوين الأمة هو ليس قوتها الخارجية وإنما قوتها الروحية ونوعية ثقافتها والإيمان الداخلي لأعضاء الأمة. وراح يستوحي نظرية التطور الطبيعي فقال أن القومية nationality تمر بمراحل مختلفة أولها القبلية وأعلىها الروحية. وفي هذه المرحلة الأخيرة تختفي العلاقة بين الدولة والأمة وتصبح الأمة ظاهرة روحية لا غير. ويجري التطور الآن نحو مجتمعات متعددة القوميات. وعندئذ ستصبح القومية المهيمنة على غيرها بمثابة الكنيسة الحاكمة في دولة حرة. وفي هذا الإطار يصبح الدين ضرورياً للقومية. وفي مثل تلك المرحلة سيصبح بإمكان القومية اليهودية أن تحظى بالاعتراف. وبعد أن عارض هذا المفكر الصهيونية بادىء الأمر، راجع فكره فأيدها واعتبر الدين أساساً لها، وقال أن اليهودي لا يبقى يهودياً إذا ترك دينه. ومن المبادئ التي جاء بها وأصبحت من أسس الحركة الصهيونية ولا سيما بين اللادينيين من أتباعها هو أن الديانة الموسوية بالنسبة لليهود هي التراث القومي. وسار أحادها عام مساراً مشابهاً في التأكيد على الديانة اليهودية والعنصر الروحي كأساس للحركة الصهيونية. وإصطدم في الواقع فيما بعد بساسة الحركة الصهيونية عندما وجد تصرفاتهم في فلسطين لا تشرف هذا الدين، أو أي دين. وأعطى مارتن بوبر أسساً فلسفية في إطار الكوزموس في تبرير النزوع الروحي الصهيوني إلى فلسطين، وقوله بأن العمل في حث وزرع التربة في أرض إسرائيل هو السبيل لإتحاد الفرد بالكوزموس (١).

وبتوالي الأحداث ومرور الزمن، أدرك كلا الطرفين، بيت الدين والمنظمة الصهيونية، أن مسيرتهما مسيرة واحدة نحو مصير واحد، وإندفعاً معاً يؤيد كل منها الآخر. وبتأسيس إسرائيل، إستطاع الصهاينة أن يضعوا حداً للتفرق اليهودي، ويعيدوا تجميع القطيع في الغيتو الكبير بجدران العتيدة المشيدة بالأسلاك الشائكة والدبابات والمدافع. وفي هذا الغيتو - كما قال أحد

(١) بوبر، ص ١٥٥.

الصحفيين الغربيين أصبح الدين تجارة كبرى big business. وعادت للحاخامين سلطتهم في الأمر والنهي في كل صغيرة وكبيرة، إعتباراً من تقديم الآيس كريم في طائرات خطوط العال وتسيير الحافلات في يوم السبت، إلى التصريح بشرعية القوانين الدستورية. مرة أخرى، أصبحت السلطة الحاخامية المتمثلة بوزير الشؤون الدينية، ومن ورائه اليد المحركة لدار الحاخامية (المؤسسة الدينية العليا في إسرائيل) والمحاكم الحاخامية التي تشكل جزءاً من النظام الإداري للدولة، هي الحاكم الأمر في شؤون المجموعة. أصبح الزواج المدني الذي إعتاد عليه اليهود وغير اليهود في الغرب غير معترف به في إسرائيل. وعلى من يريد الزواج بغير اليهودية أن يدخلها في دورة دراسية لعامين من غسل الدماغ وتطهيرها في حمام تغطس فيه عارية أمام ثلاثة من الحاخامين. وخضع المطبخ في الجيش والبحرية وخطوط الطائرات والمدارس والجامعات إلى قواعد الطعام اليهودية (الكاشروت). وخاض الحاخامون الأرثوذكس معركة طويلة إستمرت من عام ١٩٦٢ إلى عام ١٩٦٤ لإرغام باخرة الركاب شالوم على تقديم الطعام الكوشر فقط. وفي حزيران ١٩٨٥، إستطاعت الكتلة الدينية على الحصول على موافقة الكنست لإصدار قانون بمنع تربية الخنازير أو تقديم لحمها للإستهلاك. وكان من الطريف أن يحظى القانون الجديد بتأييد حزب الماباي اليساري.

وبعد تأسيس إسرائيل، فازت الأحزاب الدينية في إنتخابات عام ١٩٤٩ بنسبة ١٢ ٪ من أصوات الناخبين وبمجموع ١٦ مقعداً من أصل ١٢٠ مقعداً. وظلت محافظة على مثل هذه النسبة عبر السنين اللاحقة مع تفاوتات محدودة. ويتنظر الإنسان تحت الظروف الاعتيادية ألا يكون لمثل هذا العدد القليل من الناخبين والممثلين شأن مهم في أمور البلاد. بيد أن الحقيقة غير ذلك. وبالتعادل النسبي للمقاعد التي فازت بها أحزاب اليسار وكتلة لكود في السنين الأخيرة، أصبح الحاخامون هم الذين يقررون سير الحكم ويعلمون على الحكومة ما ينبغي من التشريعات والإجراءات. وقد ضج المجتمع الاسرائيلي طيلة وجوده بالأزمات والمحاكاة المستمرة المنبعثة من إجتهادات

الحاخامين ومواقفهم سواء أكان الموضوع يتعلق بتشريح الجثث أو التنقيب الآثاري في المقابر والأماكن المقدسة، أو إحترام يوم السبت، أو تربية الخنازير وبيع لحومها، أو طريقة سلخ الحيوانات، أو إختلاط الرجال بالنساء، أو وجود المجندات في القوات المسلحة .

بيد أن الموضوع الحيوي الذي لعب فيه الحاخامون دوراً أساسياً كان في تطبيق قانون العودة الذي يعطي الحق لكل يهودي في الهجرة إلى إسرائيل والعيش فيها، الموضوع الذي يثير بالضرورة سؤال من هو اليهودي؟ إذا كان اليهود أمة وقومية - كما تؤكد الصهيونية - فالمفروض ألا يكون دين الفرد أساساً لها، وهو ما حاول بعض اليساريين اليهود أن يصروا عليه ويحاربوا من أجله في إسرائيل. ولكن الحاخامين والصهاينة السياسيين رفضوا ذلك وأصروا على عنصر الدين. وأثار كل ذلك حيرة فكرية ما زال النقاش محتدماً بشأنها. وكثيراً ما انفجرت هذه الحيرة على النطاق العملي في قضايا معينة، كان منها قضية يهود الفلاشا الذين هاجروا من الحبشة. وترددت السلطات الحاخامية حين من الزمن في قبولهم كيهود. ومن القضايا الشهيرة التي أصبحت جزءاً من التاريخ القضية المتعلقة بهوية الراهب دانيال الذي ولد ونشأ كيهودي في بولونيا ثم دخل الدين المسيحي وأصبح راهباً كرملياً. وأعرب فيما بعد عن رغبته في الهجرة إلى إسرائيل على أساس قوميته اليهودية، وترك السلطات الاسرائيلية في حيرة من أمرها. وهناك أيضاً قضية رينة إيتاني التي هاجرت إلى إسرائيل وعملت في قواتها المسلحة وشاركت بحماس في خدمة الكيان الجديد حتى إكتشف خصومها أن أمها لم تكن يهودية فوضع الحاخامون علامة الاستفهام القاسية على هويتها، وأصبح موضوعها من القضايا التي شغلت المجتمع الاسرائيلي لردح من الزمن. وعلى غرار آخر تحيرت السلطات في شأن ذلك المؤذن في أحد مساجد عكا الذي ولد يهودياً في اليمن ثم نشأ كمسلم ودخل فلسطين كواحد من بني إسرائيل ليشتغل في المسجد ويضع نفسه في ذات المأزق أمام السلطات الاسرائيلية الحاخامية التي رفضت الاعتراف به كيهودي .

هكذا تم اللقاء بين قادة الصهيونية والحاخامين على ساحة ساند فيها
 الحاخامون الحركة وسهرت الحركة على حماية سلطة الحاخامين وتجديدها
 بشكل جعل إسرائيل الدولة المتطورة الحديثة الوحيدة التي أخذ شأن الدين
 ورجال الدين يتعاضم فيها بدلاً من أن يتقلص على نحو ما جرى ويجري في
 الدول الغربية الصناعية المتطورة، بل والعالم أجمع باستثناء حالات معدودة
 (كإيران مثلاً). لقد كان إنحسار ظل الكنيسة وبيت الدين اليهودي وحرص
 رجاله على صيانة نفوذهم وإبقاء القطيع ضمن أسوار حكمهم من العوامل
 الرئيسية في تنمية الفكرة الصهيونية ومساندة مخططات المنظمة الصهيونية
 العالمية. وفي مقابل ذلك، استطاعت المنظمة أن تحقق للكنيس ما كان يصبو
 إليه من تجديد الاهتمام بالدين والتوراة والشريعة الموسوية لا في إسرائيل
 فقط، وإنما في عموم الشتات أيضاً. وأوجز القاضي سلبرج، رئيس المحكمة
 العليا في إسرائيل هذا الموقف الجديد بقوله في قضية اليهودي البولوني
 أوسفلد روفيسن، الذي أصبح كاثوليكيّاً، «لقد مضت تلك الأيام التي كان
 فيها عدم الإيمان علامة من العلامات المهمة لتنور الفكر. وقد دخلنا فترة لا
 يتنازع فيها العلم مع الإيمان»^(١). وأشار القاضي سلبرج إلى أن المستأنف لم
 ينتبه إلى الجيل الجديد في إسرائيل الذي أخذ يتمسك بالدين.

أصبحت إسرائيل الغيتو الجديد الذي يهرع إلى الاحتفاء بجدرانها اليهود
 المهددون بشقى الأخطار سواء عن حق كانت أو باطل. وكم من مجرم ومزور
 ومدين يهودي تخلص من أيدي العدالة في وطنه الأصلي بالهروب إلى الغيتو
 الجديد. وفي هذه الأثناء راح يهود الشتات ينظرون إلى إسرائيل كموطن
 لليهودية والحكم الحاخامي إلى درجة أن الحكومة الاسرائيلية أصبحت تحشى
 من القيام بأي إجراءات لا يرتضيها الحاخامون خوفاً من ردود الفعل ضدها
 في الشتات. ومرت الأيام هدد خلالها يهود أمريكا بمقاطعة إسرائيل إقتصادياً
 على نحو المقاطعة العربية إذا خرجت عن اتباع قواعد الشريعة الموسوية.

(١) عكيفة أور، ص ١٠٩.

ومن الطريف أن يهود الشتات هؤلاء كانوا لا يعيشون وفق هذه القواعد أساساً في بلدانهم المختلفة، ولكنهم أصبحوا ينتظرون من كل إسرائيلي أن يعيش بموجبها^(١).

لقد أعطى مثل هؤلاء المتدينون تأييدهم للحركة الصهيونية في إطار إحياء علوم الدين وأضافوا بذلك مساهمة مهمة أخرى إلى الزخم في إنبعاث فكرة العودة إلى صهيون وإعادة تمثيل رواية المصير اليهودي القديمة.

(١) جورج فريدمان، نهاية الشعب اليهودي، لندن، ١٩٦٧، ص ١٨٢.

الفصل السادس

تضافر العوامل والمؤشرات

لقد خيبت الصهيونية ظنون كل منتقديها والمشككين فيها من حيث إستحالة تحقيق أمانها في إقامة دولة قادرة في ذات الأرض المقدسة التي دعت إليها. لقد حققت ذلك، وحققت في الواقع أكثر مما كانت تنتظره بعد أن أصبحت قوة ضاربة تهابها كل دول الشرق الأوسط، وتشغل مكانة خاصة في العالم، وتؤثر على أقوى الدول المعاصرة. لقد تضافرت على تحقيق ذلك عوامل وعناصر عديدة جاء في مقدمتها العوامل التي كرسنا هذا الكتاب لمعالجتها، وأتينا عليها في الفصول السابقة. ورغم كل التفصيل الذي ورد فيها، فلا يمكن أن يقال أن هذه الدراسة قد غطت تماماً كل العناصر التي لعبت دورها في التفاعل التاريخي الذي أعطى ذلك الزخم السياسي والعسكري لإقامة إسرائيل ودعمها. لا يمكن لأي باحث أن يمسك بجميع العوامل المتناهية في الأثر والمتناهية في الصغر التي تدخل في المفاعلة الاجتماعية والسياسية. وفي مجال هذا البحث، نجد بالإضافة إلى العوامل التي سبق وأن عولجت - الصدمة النفسية التاريخية، الانفجار السكاني، معاداة السامية، الاستعمار الغربي الدور الحاخامي - عوامل أخرى ضاق المجال عن التوسع فيها، وكان منها ببساطة الاستغلال المالي.

الاستغلال المالي من العناصر التي قلما يلتفت إلى دورها الباحثون

والمراقبون. ويصاحب هذا العنصر كثيراً من الحركات السياسية التي تنشأ بريئة وعلى أكتاف أفراد مخلصين ونزيهين ولا تلبث بمرور الزمن أن تتوسع وتجذب شتى أصناف المرتزقة والطفيليين والانتهازيين الذين يجدون في موارد الحركة الأخذة في الإتساع فرصاً مؤاتية للكسب والانتفاع، بل والاختلاس والابتزاز، نظراً لميوعة الرقابة المالية في مثل هذه الحركات السياسية، ولا سيما عندما تكون سرية أو شبه سرية. وقد لعب عنصر النفعية دوراً خاصاً في الحركة الصهيونية بالنظر لسعة مواردها وإعتمادها على البذل والرشوة والدعاية والاعلام والانفاق الغزير على شراء الأراضي والأموال ونقل المهاجرين وإسكانهم... الخ. وكثيراً ما يلاحظ المتتبع شتى الشخصيات الغربية في أوروبا وأمريكا ممن يعيشون في بحبوحه من الرفاه بدون أي عمل أو وظيفة غير القيام بشتى العمليات ذات العلاقة القريبة أو البعيدة بالحركة الصهيونية. وزادت في تعميق هذا الجانب النفعي الموارد الضخمة المتوفرة لدى المنظمة الصهيونية العالمية والثروة اليهودية بصورة عامة. وقد طرزت تاريخ الصهيونية الحديث شتى الفضائح المالية التي حرص قادة المنظمة على إسدال الستار عليها وعدم الإشارة إليها إلا لمأماً. ومن الفضائح التي لم يمكن كتمانها، فضيحة الصحفي نفلنسكي الذي إبتز أموالاً طائلة من الحركة الصهيونية بشتى الادعاءات المزيفة، ومنها تقديم المخطط الصهيوني للسلطان والتأثير على الرأي العام العالمي بواسطة صحيفته «كورسبوندنس دلايست». وعندما حاولت المنظمة الاستمرار بصحيفته هذه بعد موته، وجدت أن الصحيفة لا توزع غير دوزينة من النسخ. ومن الأفاقين الآخرين الذين إستغلوا الحركة الصهيونية نوري بك، الموظف العثماني الذي إبتز مئات الجنيهات منها بشتى الادعاءات. ولا عجب أن يكتب هرتزل في مذكراته، «إنني أقف على رأس مجموعة من المحتالين والشحاذين وتجار الإشاعات الذي يستغلني بعضهم»^(١).

(١) مذكرات هرتزل، ٢٣ أغسطس ١٨٩٧.

وكما سلف وأشرنا، إلتفت عدد من الأغيار منذ أوائل القرن التاسع عشر إلى الدعوة إلى إسكان اليهود في فلسطين من زاوية تجارية صرفة كعملية من عمليات الاستثمار والاستعمار الاستيطاني المربحة. وظلت الفكرة السائدة في تحقيق أمني الصهيونية حتى أوائل القرن العشرين تقوم على أساس تأسيس شركة ذات إمتياز من الدولة صاحبة الشأن مع بنك خاص مرتبط بالمشروع. وفي إطار مثل هذه المحاولات حصل اللقاء الأولي بين لويد جورج والمنظمة الصهيونية عندما قامت بتكليفه كمحام بإعداد الجوانب القانونية من المشروع. وبعد عامين من التكليف تحول لويد جورج إلى «مؤمن متحمس» في الحركة الصهيونية^(١).

لقد دخل في ذهن الكثيرين أن هناك أموالاً طائلة تنتظر من يقتطفها في مسيرة المشروع الصهيوني. ودأب ثيودور هرتزل وزملاؤه على تعميق هذا الاعتقاد بحديثهم عن الملايين المعبأة للإستثمار في المشروع. وكان ممن إستطاع بالفعل أن يجني مثل هذه الأموال المدعو بنحاس روتنبرغ الذي أشغل منصب وزير الشرطة في حكومة كرنسكي الروسية. وبعد أن هرب من وجه الثورة البلشفية والتأليب ضدها، إنتقل إلى لندن في عام ١٩١٩ كرجل أعمال يحاول الحصول على قروض لتنفيذ مشاريع إعمارية في فلسطين. وبعد أن رفضت كافة المصارف وبيوت المال مده بما يريد، إهتدى إلى المنظمة الصهيونية العالمية التي وجدت طموحاته مؤاتية ومفيدة لأغراضها. وبعد الاعتماد المالي الذي حصل عليه من البارون آدموند دروشيلد، إستطاع أن يحصل من الحكومة البريطانية على الموافقة السرية على مخططاته لإستغلال القوة الكهربائية في فلسطين، وضمان أرباح طائلة نتيجة إعفاء المشروع من كل الضرائب. وأصبحت قضية روتنبرغ من فضائح العشرينات الشهيرة حتى وصفه أحد الكتاب الإنكليز بالدب الذي راح ينعم بطنجرة من المربى. ولم يحل كل ما كتبه الصحافة البريطانية والعربية عنه دون تسلمه

(١) شتاين، ص ١٤٢.

منصب رئيس الفعاد لومي (برلمان اليهود في فلسطين عهد الانتداب) وتحوله إلى نصير من أشد أنصار الحركة الصهيونية تحمساً لها^(١).

لقد أصبحت المنظمة الصهيونية من الامبراطوريات المتعددة الجنسيات التي أنفقت الملايين من الجنيهات على فعاليتها الأخطبوطية الممتدة من الميادين العسكرية والاعمارية إلى الميادين الاعلامية والثقافية، حيث تصدر أو تهيمن على إصدار مئات الصحف والمجلات والكتب والأفلام في عشرات الدول. وفي كل هذه الساحات يعمل ألوف الرجال ممن ربطوا حياتهم ورخاءهم بمصير الحركة وإزدهارها.

وكما هو الحال في الحركات السياسية الأخرى، سرعان ما تكتسب هذه العناصر النفعية والطفيلية طاقة ذاتية تستطيع بموجبها أن تؤثر على مسيرة الحركة ذاتها وتغذيها وتمدها باستمرار جديدة. وربما يمكننا أن ندخل في هذا الإطار أيضاً النفوذ والدعم المالي والإعلامي اليهودي الذي طمح في الحصول عليه شتى رجال السياسة في العالم الغربي ولا سيما في الولايات المتحدة (وخاصة أثناء الانتخابات) من جراء تأييدهم للحركة الصهيونية.

ومن العوامل الأخرى التي كان لها وقعها في المصير الصهيوني التراجع الذي تعرضت له الفكرة الأثمية والحركات اليسارية القائمة عليها. لقد تطلعت الإنسانية خلال القرن التاسع عشر وحتى إندلاع الحرب العظمى إلى عالم واحد تزول فيه الفوارق والحدود القومية والدينية وتعيش فيه البشرية كأسرة واحدة، ويتحول صراع الإنسان في نظر اليساريين من الميادين المذهبية والقومية إلى ميدان الصراع الطبقي، ومن ثم إلى الصراع ضد الطبيعة والبيئة. ومن مثل هذه المنطلقات جاءت الاعتراضات اليسارية والأثمية ضد الحركة الصهيونية، أو بعبارة أخرى القومية اليهودية، بمدلولاتها الضيقة القائمة على العرق والدين.

(١) أنظر تفاصيل القضية في ج. م. جفريرز، فلسطين الواقع، لندن، ١٩٣٩ وكذلك في كرستوفر سايكس، ملتقى طرق إلى إسرائيل.

وقد إحتدم النقاش في هذا الموضوع في روسيا القيصرية حيث رأى لينين أن الإقليم المشترك هو العنصر الأساسي للقومية، ولما كان اليهود لا يعيشون في إقليم واحد فلا مجال هناك لإعتبارهم قومية مستقلة. وآمن لينين بأن الاندماج التدريجي لليهود في المجتمع الذي يعيشون فيه هو الحل النهائي لمشكلتهم^(١).

وطور ستالين هذه النقطة فيما بعد على أثر دراسته للمسألة الوطنية وتوصل إلى تعريفه المعروف للأمة كمجموعة مستقرة مؤلفة تاريخياً على أسس اللغة والمنطقة والحياة الاقتصادية والتركيبة النفسية والثقافية المشتركة. وتطرق ستالين إلى اليهود بقوله أنهم بناء على ذلك لا يشكلون أمة واحدة^(٢). وبصورة عامة ظل هذا الرأي متحكماً في أوساط اليسار. وعندما حاول حزب بولي صهيون اليساري الانضمام إلى المكتب الاشتراكي الأممي قبيل الحرب العظمى رفض المكتب بدون أي تردد قبوله ككتلة تمثل الشعب اليهودي.

وبعد إندلاع الحرب العظمى وما أثارته من تشنجات عاطفية قومية ومساهمة من جانب الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في الحرب، حصل تراجع في الروح الأممية تمثل عملياً بإنبهار الأممية الثانية وإفلاسها. وفي الجو الذي تلى كل ذلك، إنحدرت الأحزاب العمالية إلى جانب النزعة القومية التي أخذت تبدو لكثير من اليساريين في ثياب جديدة مقبولة. وبتشتت الجبهة الأممية أثناء الحرب إستطاع الصهاينة الاشتراكيون أن يتغلغلوا في الأحزاب الاشتراكية الهولندية والسكندنافية. وكان من آثار ذلك حصول الصهاينة على بند في بيان ستوكهولم للسلم لوفود الأحزاب الاشتراكية المحايدة والصادر في ١٩١٧، يتضمن الدعوة لإعطاء اليهود الاستقلال الذاتي في فلسطين. وكان هذا البيان أول وثيقة عمالية رسمية دعت إلى «حماية

(١) اليهود السوفيت خلال فترة لينين/ستالين، دراسات سوفيتية، جامعة غلاسكو، ج ١٦، رقم ٦، ١٩٦٥.

(٢) الماركسية والمسألة الوطنية، أعمال ستالين، موسكو، ١٩٥٣، ج ٢، ص ٣٠٧.

الاستيطان اليهودي في فلسطين». وهللت منظمة بولي صهيون بالبيان فقالت: «تشير مقترحات البيان المتعلقة بالمسألة اليهودية إلى إبتداء عهد جديد في علاقات الأهمية الاشتراكية بمشكلة اليهود. لقد تعاملت الأهمية قبل الحرب مع المسألة اليهودية بعداء وتحامل. وبدت ميول الأيديولوجية الاندماجية البرجوازية وكأنها قد فازت باليد العليا. ونظر أصحابها على الغالب إلى الحركة الوطنية اليهودية نظرة شك على إعتبارها حركة رجعية»^(١). وإستطاع الصهاينة الاشتراكيون توسيع هذه الآفاق الجديدة والتغلغل في معظم الأحزاب اليسارية تحت ظروف الحرب العسيرة. وكان من ذلك ما جرى في بريطانيا حيث ألف الصهاينة مجلس العمال اليهود القوميين الذي ضمت عضويته ١٦ نقابة يهودية وأصدر مطبوعاته الخاصة باللغة الشلختية، وأقام إرتباطات متينة مع أوساط اليسار البريطاني^(٢). وعندما جدد حزب بولي صهيون طلبه للانضمام إلى المكتب الاشتراكي الأهمي أثناء الحرب، لم يرفض المكتب كما فعل من قبل هذا الطلب في هذه المرحلة من الافلاس السياسي التام. ولم يتردد حايم وايزمان، السياسي اليميني النزعة، في الإشادة في مؤتمر المجلس التنفيذي الصهيوني لعام ١٩٢٠ بأهمية «ترويج الصهيونية في عموم الحركة الاشتراكية»^(٣). ونحن نجد صدى هذا الترويج في إزدياد نسبة العمال في المنظمة الصهيونية كما يتضح من الجدول التالي:

نسبة الأعضاء العمال في المؤتمر الصهيوني

٨ ٪	المؤتمر الصهيوني الثاني عشر لعام ١٩٢١
٢٠ ٪	المؤتمر الصهيوني الثالث عشر لعام ١٩٢٥
٢٢ ٪	المؤتمر الصهيوني الخامس عشر لعام ١٩٢٧

(١) جويش ليوركورسبوندنس، تشرين الثاني، ١٩١٧. توجد نسخ من مطبوعات هذه الصحيفة النادرة في المكتبة البريطانية بلندن.

(٢) ب. غودمان، الصهيونية في أنكلترا، لندن، ١٩٤٩، ص ٤٦.

(٣) زاينست بلتن، ١١ شباط ١٩٢٠.

٢٩ %

المؤتمر الصهيوني السابع عشر لعام ١٩٣١

٤٤ %

المؤتمر الصهيوني الثامن عشر لعام ١٩٣٣

٤٥ %

المؤتمر الصهيوني التاسع عشر لعام ١٩٣٥

وتغلغل الصهاينة في حزب العمال البريطاني وأسسوا فيه جناحاً خاصاً ببولي صهيون. ورحب بنفوذهم في الحزب الزعيم العمالي هربرت موريسن الذي وصف الاتحاد اليهودي للعمال بأنه «ربما كان أجدر منظمة عمالية في العالم». وبتأثير هارولد لاسكي، المفكر الاشتراكي الكبير الذي ترك أثره العميق في الحركة العمالية البريطانية، رئاسة الحزب، استطاعت الصهيونية أن تسيطر على اتجاهات حزب العمال نحو المسألة الفلسطينية. وحقق الصهاينة نجاحات مشابهة في ميدان النقابات العمالية البريطانية التي انضموا إليها أيضاً بأجندتهم الخاصة ودأبوا على طرح قرارات في تأييد إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين في كل المؤتمرات السنوية للنقابات. وإعتاد المؤتمر على إبرامها بدون نقاش وبدون معرفة.

وأصبح النفوذ الصهيوني في حزب العمال البريطاني من المميزات المعروفة للسياسة الخارجية لهذا الحزب. وفي عام ١٩٤٤، أصدرت اللجنة التنفيذية قرارها الشهير الذي أخرج حتى الصهاينة بدعوته لإخراج العرب من فلسطين بنفس السرعة التي يدخل فيها اليهود إليها، «ينبغي تشجيع العرب على الخروج عند دخول اليهود. ينبغي تعويضهم بسخاء عن أراضيهم وتنظيم توطينهم بعناية في أماكن أخرى وبمساعداً كافية. إن للعرب أقاليم واسعة يمتلكونها». وقد إضطر حتى بن غوريون إلى التنصل عن هذا القرار.

ونشأت في الاتحاد السوفيتي ظروف مشابهة ساهمت من طرف آخر في تركيز فكرة القومية اليهودية. وتعرضت النظرة الرسمية للدولة إلى تغييرات مختلفة. لقد ساعد اليهود البلاشفة بدون شك في النضال الذي أدى في الأخير إلى ثورة أكتوبر وإستلام الشيوعيين الحكم، وكان من الطبيعي لليهود

أن ينتظروا ثمرات عملهم. ولكن الذي حدث هو أن الثورة أدت في الحقيقة إلى تدهور أحوالهم بدلاً من تحسنها نظراً لأن معظم اليهود كانوا يزاولون أعمالاً بتي برجوازية، وهي الأعمال التي جاءت الثورة لتقضي عليها. وبالنظر لولائهم للثورة وتواجدهم في منظمات الحزب وإنسداد مجالات العمل الفردي، فقد إنخرط الكثير منهم في سلك الدولة وتسلموا شتى المناصب الحساسة بشكل أثار أنظار غير الشيوعيين من بسطاء الناس أو من أعداء الثورة. وسرى في ذهن الكثير أن الشيوعية هي حقاً من بدع اليهود ومؤامراتهم. وأدى هذا الموقف إلى وقوع عدد من الهيجانات المعادية للسامية التي هزت قيادة الحزب بالنظر لوقوعها تحت ظل الحكم الاشتراكي.

ولما كان كثير من اليهود لا يتكلمون اللغة الروسية ليفهموا آخر التعليمات والأنظمة الحكومية الجديدة، فقد إستغل أعضاء البند (حزب العمال اليهودي) الذي تعاون بصورة وثيقة مع الحزب البلشفي، الفرصة لتحقيق أمانهم في الاستقلال الثقافي اليهودي وذلك بإقناع القيادة البلشفية بضرورة إصدار جرائد ومطبوعات باللغة الشلختية ثم فتح مدارس بهذه اللغة. وبذلك حققوا ما لم يحلموا بتحقيقه قومياً تحت ظل الرجعية القيصرية. وهكذا وجد لينن نفسه مضطراً إلى التراجع عن إعتراضه القديم ضد الاستقلال الثقافي اليهودي. وبالنظر للتدهور المريع الذي أصاب الاقتصاد البتي برجوازي اليهودي، فلم يعد بإمكانه الانتظار حتى يتحقق حلمه بحل المسألة اليهودية بالاندماج التدريجي لليهود. وتحت وطأة هذه الظروف، إضطر البلاشفة إلى إقامة قسم يهودي خاص في قومسيارية الشعب للقوميات التي ترأسها ستالين. وأضيفت أيضاً أقسام يهودية إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي.

وأمام مشكلة العاطلين اليهود الذين قضت الثورة على حرفهم ومهنتهم وتجارهم، إضطر البلاشفة في الأخير إلى تبني شعار الصهيونية، «العودة إلى الأرض». أو إمتهان الزراعة. وبادرت السلطات إلى فتح مزارع خاصة

لتشغيل اليهود، ما فتئت حتى توسعت إلى حد إقامة جمهورية ذات إستقلال ذاتي خاصة باليهود، جمهورية بيروبيجان. وكان المؤمل فيها أن تحل مشكلة البطالة التي تفتت بينهم وتحقق لهم ما كانوا يصبون إليه من إستقلال ذاتي. وبالطبع، إنطوت هذه الخطوة على تقبل صريح للفكرة الصهيونية سوى أنها إستبدلت فلسطين بجمهورية بيروبيجان. وعمدت السلطات السوفيتية إلى وضع مخططات طموحة لهذه الجمهورية راحت تروج لها إعلامياً في شتى أنحاء العالم، أملاً في الحصول على المساعدات الخارجية اليهودية في بناء هذه الجمهورية اليهودية. وفي تشرين الثاني ١٩٢٦، خرج الرئيس كالنين عن الفكرة اللينينية كلياً فقال بصريح العبارة، «أن الشعب اليهودي يواجه واجباً عظيماً، ألا وهو المحافظة على قوميته». ووجه كالنين كلامه إلى رأسمالي الغرب فقال: «يتطلب هذا الاستيطان الزراعي مبالغ ضخمة. ومن جانبها تبذل الحكومة كل جهد لتوفير بعض المساعدة المادية على الأقل... ولكنها من الناحية الأخرى لا تمنع في قبول المستوطنين اليهود للمساعدات من الرأسماليين اليهود في الخارج. هنا تلتقي مصالح الجماهير في المحافظة على نفسها كشعب بالمشاعر القومية للرأسماليين اليهود الذين لا يستطيعون النوم براحة - رغم كونهم رأسماليين يعيشون في وفر - عندما يعرفون أن الناس الذين ينتمون إليهم برابطة الدم يعانون ويشقون»^(١).

ولا شك أن كلمات كالنين هذه وإشاراته إلى رابطة الدم والمحافظة على القومية اليهودية، تعبر عن الأفكار التي طالما سمعناها في مواكبة الحركة الصهيونية. ولو نطق بها كالنين قبل بضع سنوات لإتهمه تروتسكي ولنين بالشوفينية، ولو نطق بها بعد سنوات قليلة لإتهمه ستالين بالكوزموبوليتانية. إذا كان من حق اليهود أن يحصلوا على جمهوريتهم الخاصة بهم، فلماذا تكون في بيروبيجان وليس في فلسطين؟ ولهذا لم يغفل الصهاينة فحوى

(١) ش. سولومون، اليهود في الاتحاد السوفيتي، نيويورك، ١٩٥١، ص ٢٧١.

التحول الجديد، فتدفق وكلاؤهم مع المساعدات الغربية لبناء الوطن القومي السوفيتي لليهود^(١).

وقد سمحت السلطات السوفيتية للصهاينة بمواصلة نشاطهم في الاتحاد السوفيتي داخل يبرويجان وخارجها حتى إتضح للمسؤولين فشل الحل الزراعي للمسألة اليهودية في أواخر العشرينات فصدر الأمر في ١٩٢٨ بمنع الأحزاب الصهيونية من القيام بنشاطها. بيد أن هذه الخطوة جاءت بعد أوانها. فقد كان من نتائج الاجراءات السوفيتية حيال مشكلة اليهود الاعتراف بالقومية اليهودية وحقوق اليهود في إقامة وطنهم القومي الخاص بهم. وتكثل هذا الاعتراف بعد الحرب العالمية الثانية بتصويت الاتحاد السوفيتي إلى جانب قرار الأمم المتحدة بإقامة إسرائيل، الأمر الذي فتح أبواباً جديدة للحركة الصهيونية. وكان من ذلك، أن كل الأحزاب الشيوعية في العالم، بما فيها الأحزاب الشيوعية العربية أخذت تزيد وجود قومية يهودية في فلسطين من حقها إقامة دولتها الخاصة بها.

والواقع أن الاتحاد السوفيتي بذاته أخذ يميل إلى الوطنية أكثر من ميله إلى الأمية منذ تعرضه إلى حرب التدخل التي شنتها الرأسمالية الغربية ضده في العشرينات. وكان من أسباب الانشقاق الذي حصل بين ستالين وتروتسكي إصرار الأخير على مواصلة النزعة الأمية بتوسيع النضال إلى نطاق الثورة العالمية الدائمة. وبعد الحصار الذي نصبه الغرب ضد موسكو وإنتصار الحركات الفاشية في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وبولونيا وغيرها من الدول الأوربية، إضطرت الكرملن إلى الانكماش على نفسه والانصراف إلى كيانه الذاتي. وبشن هتلر حربه الشعواء ضد الشرق الأوربي، وجد ستالين أن الشعور الوطني كان من أنجع الأسلحة النفسية التي إقتضتها مرحلة رد العدوان وإنقاذ البلد الاشتراكي الأول، مع ما ترتب على ذلك من نتائج في إذكاء روح الوطنية والقومية على حساب روح الأمية والإنسانية.

(١) اليهود السوفيت خلال فترة لينين - ستالين، نفس المقال.

ولم يكن ستالين فريداً في الاستجابة للتطورات التي تلت الحربين العالميتين، فقد جنح خصمه اللدود تروتسكي أيضاً إلى التخلي عن موقفه السابق المناهض لكل فكرة عن القومية اليهودية فتحول في آخر حياته إلى التفكير في إعطاء اليهود إقليماً خاصاً بهم يتمركزون فيه على أن يتم ذلك بعد إنتصار الثورة العالمية. وبعد أن كانت الصهيونية كلمة قدرة على ألسنة الاشتراكيين حتى الحرب العظمى، تحولت تدريجياً إلى طفل مدلل تحنو عليه شتى القطاعات اليسارية.

وإستجاب الصهاينة لكل هذه التطورات وسخروها لمسيرتهم. وكان بروخوف من أول اليساريين اليهود الذين إنتهوا لهوب الريح الجديدة فقال في المؤتمر الشلختي لعام ١٩١٥، بعد إندلاع الحرب مباشرة أن تلك الحرب أثبتت أن الإنسان لن يتوقف عن قهر الضعفاء عندما تصطدم مصالحته بمصلحتهم، كما كشف التأيد الذي أعطاه الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان للأمبراطور في حربه ضد الشعوب الضعيفة في لكسمبرغ وبلجيكا. وردّ الاشتراكيون الفرنسيون والبلجيكيون بالمثل على ذلك. ومضى بعد أشهر قليلة ليقول: «كان مارس محقاً في قوله أن البروليتاريين لا وطن لهم. ففي أيامه لم تكذ تظهر بعد القومية التقدمية السليمة من قوقعة الليبرالية البرجوازية. ولكن منذ تلك الأيام أصبحت القومية التقدمية ظاهرة تاريخية فريدة. القومية ليست بضاعة رجعية من صنع المهجرين التتي برجوازيين. إنها غريزة الأمم في المحافظة على نفسها ودافعها السليم لتقرير مصيرها»^(١).

وقد كتب بروخوف عن الوضع الاجتماعي الشاذ الذي عاشه اليهود وتوصل إلى نظرية «الهرم المقلوب». وبموجب هذه النظرية، يقول أن المجتمع يتألف من مجموعة من الشرائح تقع في أسفلها شريحة الفلاحين، وتليها الشريحة الأصغر من العمال، ثم الشريحة الأصغر من الموظفين والمستخدمين

(١) القومية والحرب الألمانية، ١٩١٦.

وتليها شريحة أصغر هي شريحة الفنانين وأصحاب المهن ثم الجار والعلماء... الخ. وقد إنقلب هذا الهرم بالنسبة لليهود رأساً على عقب حيث أصبحت شريحة الفنانين والمهنيين والتجار هي الطبقة السفلى الكبرى في حين أصبحت الشرائح العليا القليلة العدد تتكون من الفلاحين والعمال. وفي مثل هذا الوضع المقلوب، لا يمكن إقامة الاشتراكية. وعليه ينبغي تصحيح وضع الهرم وإعادة ترتيبه إلى وضعه الطبيعي، القاعدة في الأسفل والقمة في الأعلى. ويجري هذا التصحيح بخلق شريحة موسعة من الطبقة العاملة. وعليه فالحل الصحيح للمسألة اليهودية لا يتم بإصلاح الدين اليهودي وتخفيف القيود المفروضة على العاملين اليهود لينضموا إلى صفوف البروليتاريا المحلية، وإنما يعتمد على نقل المجموعة اليهودية برمتها إلى وطن جديد تستطيع أن تخلق فيه بروليتاريتها الخاصة بها كمرحلة أولى لبناء الاشتراكية. وقد ذهب كثير من الاشتراكيين اليهود بالفعل إلى فلسطين جرياً وراء مثل هذا الحلم وتطبيقاً لتحليلاته.

وأخيراً فلا بد من الاعتراف أيضاً بأن الجانب العربي كان له دوره أيضاً في نجاح الحركة الصهيونية وتآلق نجمها. ويقال أن أحد الضباط العراقيين وصل حداً من اليأس والأسى في حرب ١٩٤٨ إن قال لقائده: «سيدي، من حسن حظ العدو أن تكون قائدنا».

بالرغم من المكانة الدينية التي تحتلها القدس في قلوب المسلمين والمسيحيين العرب، فإن فلسطين كانت عند بداية الحركة الصهيونية مجرد ذيل مهممل ملحق بولاية دمشق. وكانت أحسن مناطقها الزراعية ملك إقطاعيين غير فلسطينيين يعيشون بعيداً في بيروت ولا يهمهم من شأنها غير إستلام دخلها المحدود. ولم تكن البلاد مسرحاً لحركات وطنية كما كانت سوريا ومصر والجزيرة العربية. وسهل كل ذلك للصهاينة تغلغلهم وشرائهم للأراضي والعقارات. وبعين الوقت أصبح مصير البلاد في أيدي غير أبنائها من هانت عليه المساومة على مصيرها كما حصل للأمير فيصل في مفاوضاته

مع حاييم وايزمان، أو إستخدامها كورقة في مناوراتهم السياسية لمصالح حكمهم وحكوماتهم. وقد كشف القناع في السنوات الأخيرة عن مدى إستعداد القيادات العربية منذ بداية القرن للتضحية بفلسطين من أجل مخططاتها الخاصة. وفي الأحوال التي حسنت فيها النيات وصدقت العزيمة، أقعد الجهل وقصر النظر وعبوب التخلف العامة القيادات العربية عن أداء دورها بنجاح في وجه الصهيونية. ولعل من أهم الأخطاء التي تواجهنا في موضوع هذا البحث، الخلط الاعلامي الذي وقع به الناطقون العرب بين الصهاينة واليهود، وتهديداتهم الفارغة بتدمير إسرائيل وقذف أهلها في البحر. كان من أهم نتائج ذلك تمكين الحركة الصهيونية من جر المزيد من اليهود إلى صفوفها ونجاحها في السيطرة على المنظمات اليهودية غير الصهيونية، وكسب الرأي العام في العالم الغربي إلى جانبها، كما حصل بصورة خاصة أثناء أزمة حرب ١٩٦٧. ومن هذه الزاوية يمكن القول أن أحوال الجبهة العربية وسلوك قياداتها كانت من العوامل الاضافية التي ساعدت على تركيز الفكرة الصهيونية وتوسع نفوذها.

لقد ساهمت كل هذه القوى والعناصر المختلفة في إجراء التفاعل الذي إنتهى بإفراز الحركة الصهيونية ثم تدفقها كسيل عارم لم يكن بإمكان أحد وقفه. ويبدو أثناء كتابة هذه السطور في صيف عام ١٩٨٥ أن الحركة الصهيونية قد إنتهت إلى أعلى مناسيها وأصبح هم المسؤولين عنها الآن المحافظة على حيويتها بوسيلة أو أخرى، والدفاع عنها ضد بوادر ردود الفعل والتحولات الوثيدة التي أخذت تظهر ضدها. وإذا كانت تلك العناصر والعوامل، موضوع هذا الكتاب، قد تضمنت القوى الجبارة التي أطلقت عملاق الصهيونية من عقاله، فهناك عناصر وعوامل أخرى تقابلها في الوزن والحساب، وإن تأخرت عنها في الزمن والمرحلية. كثيراً ما أشار أصدقاء الصهيونية المتطرفون إلى ما فعله الأوروبيون في فتح أمريكا وأستراليا ونيوزيلاندا بطرد السكان الأصليين أو إبادتهم أو السيطرة عليهم كلياً، تمهيداً لبناء الحضارة المعاصرة الجبارة في هذه الأقاليم، وإستنتجوا أن إسرائيل

ستحقق مصيراً مشابهاً في الشرق الأوسط .

هذه مقارنة مظلمة . فالعرب ليسوا كالهنود الحمر في أمريكا أو الأبورجيني في أستراليا، مجرد قبائل أو جماعات بدائية لا تاريخ لها ولا حضارة ولا ديانة متطورة تغذيها بالإرادة والقدرة على البقاء والمقاومة والصمود ومواجهة التحديات . العرب يشكلون دولاً قائمة وليس جماعات متفرقة متوحشة . والصهاينة لا يتفوقون على العرب عددياً أو إقليمياً كما تفوق الأوروبيون . الوطن العربي يمتد من الخليج شرقاً إلى المحيط غرباً، ومن البحر المتوسط شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً . وتحيط به شعوب إسلامية كبيرة تعطيها خطأً دفاعياً ثانياً . ولا سبيل للصهاينة للسيطرة على كل هذا العالم الواسع . وكلما حاول الاسرائيليون التوسع فيه أكثر مما فعلوا كلما ازدادت مشاكلهم وتعمقت أزماتهم، كما أوضحت الحرب في لبنان .

السبيل الوحيد الذي قد يضمن البقاء لإسرائيل على المدى الطويل هو في تجاوبها بصورة إيجابية مع الدول المجاورة لها وإنصهارها في عالم الشرق الأوسط بكل أفراحه ومتاعبه، وغنمه وغرمه . ولكن هذا ما تصر إسرائيل على رفضه وتهالك على إبقاء نفسها كخليفة أجنبية غريبة في أحشاء الشرق الأوسط . وبالطبع لا يمكن لمثل هذا الوضع غير أن يؤدي إلى التشاحن والنزاع . وبعين الوقت لا يمكن لهذا النزاع على المدى البعيد غير أن ينتهي إلى تدمير إسرائيل . فطالما أوضح الناطقون العرب - وبحق - أن خسارة العرب لأي حرب مع إسرائيل لن تؤدي إلى إنتهاء العالم العربي، ولكن خسارة إسرائيل لحرب واحدة تؤدي إلى إنتهائها . ولا ضرورة هنا لإنتهائها بأن يعني دمارها عسكرياً . إن مجرد نكسة كبيرة تصاب بها حتى ولو كانت إقتصادية أو سياسية، قد تؤدي إلى إنهيار معنويات سكانها بتركيتهم الاجتماعية القلقة ووضعهم الشاذ، ومن ثم نزوحهم عنها .

لقد كشفت إسرائيل في حربها في لبنان (حيث خف كثير من المسيحيين والمسلمين إلى الترحيب بقواتها) عن موهبتها العجيبة في خلق الأعداء وشد

عزيتهم ضدها. وعلى الطرف الآخر كشف تعاملها مع السلم المصري الاسرائيلي عن عجزها التام عن توظيف فرص السلم وتعميقها. ومرة أخرى نواجه هذا السؤال المحير: ما الذي يجعل إسرائيل بكل قدراتها وذكائها ومعلوماتها ونجاحاتها تعجز كلياً عن إستيعاب موضوع السلم مع العرب والوصول إلى السبل الكفيلة بتحقيقه؟

وأمام هذه الاعتبارات لا نملك غير أن نرجع إلى حيث بدأنا هذا البحث وإلى ما إنتهى إليه كثير من المراقبين. وهو أن إسرائيل لا تريد السلم مع العرب. وفي مثل هذا الحال لا نملك أيضاً غير أن نصل إلى النتيجة المنطقية لهذا الموقف، وهي أن إسرائيل تسير من حيث لا تدري إلى دمارها في الأخير وإعادة تمثيل نفس النهاية التي إنتهت إليها ممالكها القديمة. وقد يلوح مثل هذا الشبح بعيداً وأقرب إلى التأمل والخرافة منه إلى التوقع الواقعي، ونحن نرى ما عليه إسرائيل من القوة والجبروت وما عليه العرب من الهون والتشردم. بيد أن مثل هذه النظرة نظرة صحيحة لا تتناسب مع منطق التاريخ ومسيرته الطويلة. قبل نصف قرن فقط كانت فكرة إقامة إسرائيل على مثل هذه الدرجة من الخرافة غير الواقعية. ما الذي يمكن لنصف قرن آخر أن يحمله من العجائب؟ ولمن شاء أن نعطيه مثلاً لمسيرات التاريخ نشير إلى مملكة الصليبيين في القدس وكيف إستمرت نحو قرنين من السنين قبل أن يعيد العرب تطهير الأرض من جسمها الغريب.





الفهرست

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الفصل الأول: جذور الصدمة النفسية	١١
بذور المأساة	١١
الموت يطرق على الباب	٢٦
الطريق نحو عقدة الإثم	٣٠
في المنفى	٤٣
بصيص الأمل	٥٧
الحركة الصهيونية	٦٨
فحوى ضياع فرص السلام	٨٠
الفصل الثاني: الانفجار السكاني وعصر الهجرات	٩٣
هتلر يدخل الميدان	١١٥
الفصل الثالث: معاداة السامية	١٢٩
نشوء معاداة السامية	١٣٢
في ظل الرأسمالية	١٣٥
نظريات معاداة السامية	١٤٢

١٥١	عصر الانعتاق
١٥٩	- ولادة اليهودي الجديد
١٦٢	صهيونية الأغيار
١٧١	الفصل الرابع: الاستعمار يدخل الميدان
١٧٣	فرنسا تضع قناع الصهيونية
١٨٢	المانيا - قبصر في القدس
١٩٠	لندن تمخر شرقاً
٢٠٦	العم سام يغير المراهنة
٢٢٠	في خدمة التسلط والاستعمار
٢٢٥	الفصل الخامس: يهوه والحاخام والكنيس
٢٥٣	الفصل السادس: تضافر العوامل والمؤشرات